السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ

فصول مختارة من السيرة النبوية

تأليف
أ.د.أحمد صالح الزهراني

مؤسسة الأوراق الثقافيّة للنّشر الإلكتروني
١٤٤٤ هـ
٢٠٢٣م

حقوق النسخ والانتفاع بالكتاب بأي صورة إلكترونية أو ورقية أو أي وسيلة أخرى
محفوظة لمنصة أوراق عربية ويُحظر تداول المادة بأي شكل دون إذن من النّاشر أو المؤلف

أوراق عربية

جميع الحقوق محفوظة

منصّة أوراق عربية - www.aawraq.com

أحد مشاريع مؤسسة الأوراق الثقافية للنشر الإلكتروني .

ترخيص وزارة الإعلام رقم (١٤٩٨٣٧)

موقعها الجغرافي : جدة – المملكة العربية السعودية

هاتف: (٠٥٤٤٥٠٢٤٨٣)

البريد الإلكتروني للمؤسسة والمنصة : [info@aawraq.com]

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمنصة (أوراق عربية)

حقوق النشر الخاصة بالكتاب محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع: ١٤٣٨/١١٩٨ ردمك : ٩٧٨-٦٠٣-٠٢-٢٩٥٦٦-٧

تنبيه:

الآراء المنشورة في الكتاب تعبر عن رأي المؤلف ومنصة (أوراق عربية) لا تتحمل أي مسؤولية أدبية أو قانونية مترتبة عليها.

السلام عليك
أيّها النّبيّ

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرّحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

عاشت البشرية قبل مجيء النّبيّ ﷺ مرحلة فترة من الرّسل، وقد بُدّل دين الله قبل ذلك بزمن طويل فعُبدت الأوثان والأصنام وسيطرت الخرافة على العقول والأنفس، وسادت الأعراف والعادات الجاهلية التي كان يفاخر بها الإنسان أحيانا تحت مسميات خلقية، ولم يبق من الحنيفية وعلى الحنيفية إلاّ القليل، وأتباع الأديان كاليهود والنصارى غارقون في الوثنية حتى آذانهم واختلفوا مع المشركين في المعبود من دون الله واتفقوا معهم على أصل الشرك بالله ونسيان العهود الرسالية التي أخذها الله عليهم من حفظ الكتاب وتبيينه للناس، فبدلوا كتب الله وحرفوها ولم يبق على العهد الأول إلاّ نفر يسير في أقطار شتّى.

كانت حالة الأرض أشبه ما يكون بمنطقة تراكمت عليها النفايات والخرابات أزمنة طويلة متتابعة حتّى غطّت على من تحتها ضوء الشمس بطبقات عديدة.. فالفساد ضارب بأطنابه في كل صعيد وبكل أجناسه وأنواعه.

لقد كانت تلك الفترة السابقة للنبوة المحمدية حقيقة بوصف الجاهلية كما سماها القرآن، جاهلية في كلّ شيء: جاهلية في الفكر وجاهلية في العبادة والتوحيد، وجاهلية في الاجتماع والاقتصاد والأخلاق والسلوك، أينما توجهت وجدت الظلم والشرك والخرافة والبغي والجهل.

كانت الأرض بحاجة إلى شيء غير اعتيادي.. بحاجة إلى هزّة قوية.. بركان ثائر ينفض عن الأرض ركام الجهل والتخلف وتراكمات أجيال متتابعة من البعد عن الحق واستنبات الباطل الذي كانت جذوره عميقة جدا في حياة الناس أفرادا وجماعات.. حتّى استحقوا ما جاء عنه ﷺ: «**إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب**»[1].

(١) أخرجه مسلم (ح ٢٨٦٥).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

ولهذا كان من الحقيقي جدا والجاد جدا البدء في النظر للبعثة المحمدية والسيرة النبوية قبل ذلك بكثير، إذ الناظر والمتأمل يجد أنّ التاريخ بدأ يتهيأ لهذا الحدث الكوني قبله بزمن طويل.. بل لا أبالغ إن قلت إنّ الله بعلمه الغيب وحكمته قد هيّأ الأمر من أزمنة سحيقة، فقد سُئل النّبيّ ﷺ: متى كنتَ نبياً ؟ فقال: «**وآدم بين الروح والجسد**»(١).

وقال ﷺ في بيان واحد من أوجه هذا الاستعداد: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم**»(٢)، إذن فحتى في تناسل الخلق منذ القدم كان المعيار النَسَبي مأخوذاً في الاعتبار تهيئةً لنبوة النّبيّ ﷺ ووضعها في محضنها المناسب الذي يخدم أهدافها ويحقق مصالحها.

كثيرون كتبوا سيرة النّبيّ ﷺ وكتبوا عنها، لأنّها سيرة حقيقة بأن تُكتب وتُسطر بمداد الذهب، ولكلّ منهم هدفه من الكتابة، بعضهم يؤرّخ وبعضهم يتفقّه وبعضهم يعتبر وبعضهم يدافع وينافح.

وليس في الدنيا رحلة ألذّ ولا أمتع من السفر في حياة النبي ﷺ ، وإن كانت رحلة وجدانية مركبها الكتاب وحاديها الخيال.

صدقا أقول: إنّنا بحاجة إلى قراءة السيرة قراءة استمتاع وتلذّذ، لأنّنا سنرى ونجد ونلمس جوانب لم تكن تبدو لنا فيما قبل.

ولهذا نحتاج كذلك إلى تقديم السيرة في أكثر من قالب، ولو كانت قوالب مكررة، من حقّ كلّ شخص أن يسجّل تجربته مع السيرة العطرة، فأنا على يقين أنّ كل من يقرأ السيرة سيجد فيها جوانب لم يرها في كتابات الآخرين، وستفيض عليه إشراقات لم يعهدها من قبل، لأنّ للسيرة مع كلّ إنسان سيرة أخرى.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٥٩ و٣٧٩)، والبخاري في التاريخ الكبير (٧/ ٣٧٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٦٠٨)، وغيرهم من طرق عن منصور بن سعد وإبراهيم بن طهمان عن بديل بن ميسرة العقيلي عن عبدالله بن شقيق عن ميسرة الفجر، عن النّبيّ ﷺ، وقفي سنده اختلاف، والحديث قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي وقد روي من طريق آخر عن أبي هريرة أخرجه الترمذي (ح ٣٦٠٩) وصححه ووافقه الشيخ الألباني رحمه الله.

(٢) أخرجه مسلم (ح ٢٢٧٦).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

ولهذا أحببت أن أقدم السيرة النبوية في عرض اخترته، وكثير من نصوصه من زاد المعاد لابن القيم والرحيق المختوم، فليس الشأن في أن آتي بجديد، إذ لا جديد في سيرته ﷺ، وإنما أردت أن أسجل رؤيتي وما أفدته من خلال قراءتي وتأملي فيها، وكذلك سوق الأحداث والفوائد منها بطريقتي الخاصة، ولا أزعم فيها تميزاً، وإنما هي محاولة للتنويع .

لابدّ كذلك من إثراء المعرفة حول النّبيّ ﷺ كمعلومات لا يجوز بحال أن تخفى على أتباعه ومحبيه.

فمن العار أن لا يعرف المسلم أهمّ المعلومات عن أحب الخلق إلى الله وإلى الخلق ﷺ، حتى إني سألت بعض الناشئة عن اسم النّبيّ ﷺ كاملا فلم يجب ؟ أما زوجاته وذريته وسنواته وأيامه فهذه أكثر تغييباً للأسف الشديد.

سائلاً ربي تبارك وتعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه وأن يجعله سببا في رضوانه ومرافقة نبيّه في دار الكرامة.. قيل يا رسول الله: الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ؟ فقال: «**المرء مع من أحب**»[1] فاللهم إنّا نشهدك أنّا نحبه ونحب من يحبه ونحب ما يحبه ونحب ما يقربنا إلى حبّه فاحشرنا معه وتحت لوائه وارزقنا شفاعته آمين.

(١) أخرجه البخاري (ح ٦١٦٩) ومسلم (ح ٢٦٤٠).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

المرحلة الأولى:

ما قبل المولد الشريف

الكون يستعد

قال ﷺ: «إني عبدالله وخاتم النّبيّين، وإنّ آدمَ لَمُنْجَدِلٌ في طينته»

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

الكون يستعد

يبدو من خلال النظر إلى تسلسل الأحداث التاريخية أنّ بعثة النّبيّ ﷺ كانت حدثاً كونياً إضافةً إلى كونه مهمّةً دعوية، بمعنى أنّه حدثٌ تشارك في صياغته العامل الكوني المادي إضافة إلى التقدير الشرعي.

فهو تقريبا يمثّل القمّة الدرامية لأحداث التاريخ والوجود البشري على الأرض وغاية تفاعلاتها عبر قرون طويلة منذ بدء الصراع في السماء بين آدم وإبليس، ولهذا جاء عنه ﷺ قوله: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»[١] فبعثته وأمّته بالنسبة للوجود البشري على وجه الأرض خاتمة الرواية ونهايتها السعيدة للعنصر الصالح.

عامة أحداث هذه المرحلة تأخذ طابع التهيئة والتعبئة العامة لاستقبال الحدث وليس لهذه المرحلة أوّل يمكن تحديده، بل جاء في الكتاب والسنة ما يشير إلى بعض ملامح وأحداث هذه المرحلة، وأنّه شيء توارثته الأزمنة زمنا بعد زمن.

أخذ ميثاق الأنبياء

وقد سُئل النّبيّ ﷺ: متى كنت نبياً ؟ فقال: «**وآدم بين الروح والجسد**»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (ح ٦٥٠٤) ومسلم (ح ٢٩٥١) عن أنس رضي الله عنه.

(٢) سبق (ص٦).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

أخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال: «لم يُبعَث نبيٌّ قط من لدن نوح إلا أخذ الله ميثاقه ليؤمننّ بمحمد ولينصرنّه إن خرج وهو حيّ وإلا أخذ على قومه أن يؤمنوا به وينصروه إن خرج وهم أحياء».

وقد قال بعض العلماء إن المقصود بالآية أن يصدق كل نبي من جاء بعده من الأنبياء.

وهذا لا ينافي أن يكون محمّدﷺ أخصّ الناس بذلك، بل لو قيل إن الآية سيقت لأجله لكان متوجهاً، فلم يحك لنا القرآن أنّ موسى أخبر أمّته عن عيسى أو غيره من الأنبياء، وكذلك عيسى، بل كل الأنبياء بشروا بمحمّدﷺ وذكروه لأممهم، وهذا دليل على خصوصية معينة لمحمّدﷺ كونه خاتمهم وأعمّهم رسالة، ولذلك فهوﷺ الوحيد من الأنبياء الذي يجب على الكل اتّباعه حتى الأنبياء كما قالﷺ: «لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني»[1].

وفي هذا التشريع العجيب وضع الرب تبارك وتعالى الرسالة المحمّديّة في عقد هي واسطته وإن جاءت آخره، إذ جعل الدّعوة الرساليّة شبيهة بالأمانة الّتي يلقيها شخص لآخر حتّى تنتهي إلى المؤدي الحقيقي، وهو هنا محمّدﷺ إذ هو الخاتم الذي لا نبي بعده وهذا يجعل الحجّة قائمة على كلّ البشر الّذين يُبعث فيهم النّبيّﷺ سواء منهم الأميين أو أهل الكتاب، فالأمي ليس لديه ما يمكن مقارنته بدين التوحيد، والكتابي مأخوذ عليه العهد باتباع النّبيّﷺ.

وهذا ما جعل النّبيّﷺ يشير إلى هذا الملحظ حين بعث معاذ إلى اليمن فكان أوّل ما أوصاه به أن يعلم حقيقة القوم الذين يقدم عليهم فقال: «إنّك تأتي قوما أهل كتاب»[2]، وكأنّه ينبهه إلى ملاحظة حالهم حين دعوتهم وبيان الدين لهم.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٣٨) وحسنه الشيخ الألباني في الإرواء.

(٢) أخرجه البخاري (ح ١٤٩٦) ومسلم (ح١٩).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

البشارات وإخبار الأمم بمبعثه

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[البقرة:١٢٩].

وكل الأنبياء أخبروا أممهم بمبعثه ﷺ، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف:٦].

وقال رسول الله ﷺ: « **أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى عليهما السلام**»[(١)].

عن عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص قلت أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ قال: «أجل والله إنه لموصوفٌ في التوراة ببعض صفته في القرآن يا أيّها النبيّ إنّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميّين، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكّل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخّاب في الأسواق ولا يجزي بالسيّئةِ السيّئةَ، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إلَه إلا الله، ويفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقُلوباً غلفاً»[(٢)].

وهذه الأخبار التي كانت تنتشر في الأمم التي بُعث فيها أنبياء ورسل هي التي بقي منها شيء في أيدي الأحبار والرهبان سواء أولئك الذين انحرفوا عن الحنيفية وهم كثر أو الذين بقوا على التوحيد، فكلهم كان لديه علم بمبعث النّبيّ ﷺ وإن كانت مواقفهم مختلفة فمنهم من كان يضمر اتباعه ومنهم من كان يتربص به الدوائر.

ومن ذلك قصة بحيرا الراهب، وهي قصة لا تثبت بسند صحيح لكن تناقلها أهل السير ولا يُستبعد أنّ لها أصلاً وإن كان الرواة قد زادوا فيها أشياء، قال ابن إسحاق: ثم إن أبا طالب خرج في ركب إلى الشام فلما تهيأ للرحيل صبَّ

---

(١) انظر السلسلة الصحيحة للشيخ الألباني رحمه الله (ح١٥٤٥و١٥٤٦).

(٢) أخرجه البخاري (ح ٢١٢٥).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

به رسول الله ﷺ -فيما يزعمون- فرَقّ له أبو طالب، و قال: «و الله لأخرجن به معي و لا يفارقني و لا أفارقه أبداً»، أو كما قال، فخرج به معه، فلما نزل الرّكْبُ بُصرى من أرض الشام وبها راهب يُقال له (بحيرا) في صومعة له، و كان انتهى إليه علم أهل النصرانية و لم يزل في تلك الصومعة و كانوا كثيراً ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم و لا يعرض لهم، حتى كان ذلك العام فلما نزلوا به قريباً من صومعته صنع لهم الطعام كثيراً، و ذلك فيما يزعمون عن شيء رآه و هو في صومعته، يزعمون أنه رأى رسول الله ﷺ في الركب حين أقبلوا وغمامة تظله من بين القوم، ثمّ أقبلوا فنزلوا في ظلّ شجرة منه فنظر إلى الغمامة حتى أظلت الشجرة، و تهصرت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظلّ تحتها، فلما رأى ذلك بحيرا نزل من صومعته و قد أمر بذلك الطعام فصنع ثم أرسل إليهم: إني قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش، و أحب أن تحضروا كلكم صغيركم و كبيركم وعبيدكم وحُرُّكم، فقال له رجل منهم: و الله يا بحيرا إنّ بك اليوم لشأناً، ما كنت تصنع هذا بنا و قد كنا نمر بك كثيراً ما شأنك اليوم ؟ قال له بحيرا: صدقتَ، قد كان ما تقول، و لكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً فتأكلوا منه كلّكم، فاجتمعوا إليه و تخلّف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه في رحال القوم، فلما نظر بحيرا في القوم لم ير الصفة التي يعرف و يجد عنده فقال: يا معشر قريش لا يتخلفنّ أحد منكم عن طعامي قالوا له: يا بحيرا ما تخلف عن طعامك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام وهو أحدث القوم سناً فتخلف في رحالهم، قال: لا تفعلوا: ادعُوه فليحضر هذا الطعام معكم، فقال رجل من قريش: و اللات و العزى إن كان للؤما بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا، ثم قام إليه فاحتضنه و أجلسه مع القوم، فلما رآه بحيرا جعل يلحظه لحظاً شديداً و ينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم و تفرقوا قام إليه بحيرا فقال له: يا غلام ! أسألك بحق اللات و العزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه ـ و إنما قال له بحيرا ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما ـ فزعموا أنّ رسول الله ﷺ قال: لا تسألني باللات و العزى شيئا فو الله ما أبغضت شيئا قط بغضهما، فقال له بحيرا: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسالك عنه، فقال له: سلني عما بدا لك، فجعل يسأله عن أشياء من حاله: من نومه و هيئته و أموره و يخبره رسول الله ﷺ، فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه من صفته التي عنده، فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب فقال: ماهذا الغلام منك ؟ قال: ابني، قال: ما هو بابنك، و ما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

حياً، قال فإنه ابن أخي قال: فما فعل أبوه ؟ قال: مات و أمّه حبلى به، قال: صدقت، فارجع بابن أخيك إلى بلده و احذر عليه يهود فو الله لئن رأوه و عرفوا منه ما عرفتُ ليبغنه شراً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأسرع به إلى بلاده، فخرج به عمه أبو طالب سريعاً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام.

فزعموا أنّ نفرا من أهل الكتاب قد كانوا رأوا من رسول الله ﷺ مثل ما رأى بحيرا في ذلك السفر الذي كان فيه مع عمه أبي طالب فأرادوه فردّهم عنه بحيرا في ذلك، و ذكرهم الله تعالى و ما يجدون في الكتاب من ذكره و صفاته، و أنهم إن أجمعوا لما أرادوا لم يخلصوا إليه حتى عرفوا ما قال لهم و صدقوه بما قال فتركوه و انصرفوا عنه[١].

❁❁❁❁

(١) وهي قصة مليحة لكن انتقدها الذهبي في تاريخ الإسلام.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

النسب الشريف

قال ﷺ: « تجدون الناس، معادن، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام»

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

النّسب الشّريف

من أعجب ملامح وأحداث هذه المرحلة كذلك النسب الشريف، فإنّ له شأناً، بل هو من دلائل نبوّته ﷺ وحفظ الله وعنايته به.

اتفق أهل السير والنسابون على أنّ النّبيّ ﷺ هو: **محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَيّ بن كِلاب بن مُرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فِهْر بن مالك بن النَّضْر بن كِنَانة بن خُزَيْمَة بن مُدْرِكة بن إلياس بن مُضَر بن نِزَار بن مَعَدّ بن عدنان.**

و(عدنان) هذا من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما وعلى نبينا السلام.

وأمّا فوق عدنان فالنسب ليس متفقاً عليه فلا نشتغل به.

ولو جئنا نتتبع في آبائه وأجداده ﷺ لوجدناهم الخيرة والنخبة من أهل زمانهم، أعني في الشرف، والشرف هو كريم الخصال والأخلاق والمآثر الّتي ترفع الرجل فوق غيره، فالكلام هنا لا شأن له بإيمان ولا كفر، وإنّما الكلام في معادن الخلق، فالله تعالى فضل بعض خلقه على بعض، ومن ضمن التفضيل تفضيل بعض بني البشر على بعضهم في خصائصهم الخلقية والخلقية وهو ضمن الابتلاء الرباني لهم، يبتلي الفاضل بالشكر وبالمفضول بالصبر.

وقد جاء عنه ﷺ أنّه قال: « **تجدون الناس معادن فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام**»[1].

(١) أخرجه البخاري (ح ٣٣٥٣) ومسلم (ح ٢٣٧٨).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وهذا يدل على اختلاف الخلق في المعادن التي خُلقوا منها والمعادن متفاوتة في جودتها وجودة ما صُنع منها، فلهذا تجد اختلاف الناس في أخلاقهم وقرائحهم وفِطَرِهم بحسب معادنهم، وهذه الصفات محايدة يتم تطويعها لتخدم النفس التي تتحكم بها، ولهذا قال: «خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام »، فتجد الصحابة رضوان الله عليهم بينهم من التفاوت بحسب ما كان بينهم قبل أن يسلموا، فكل واحد منهم طوّع صفاته وإمكاناته وطبيعته الّتي هو عليها لتخدم أهدافه الجديدة الّتي أصبحت بنعمة الله عليهم أهدافا أخروية إيمانية.

والنّبيّ ﷺ خلقه الله من أشرف المعادن وأحسنها، وهذا من حسن صنيع الله له وللدعوة التي سيحملها والتي تحتاج إلى صفات وخصائص خاصة جدا فيمن يتولى القيام بها وكذلك كان ﷺ.

* الاصطفاء:

ومن هنا نفهم ما رواه واثلة بن الأسقع عن رسول الله ﷺ أنّه قال «إنّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[1].

وثبت في صحيح البخاري عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « بعثت من خير قرون بنى آدم قَرْناً فقرناً، حتى بُعِثْتُ من القرن الذى كنت فيه »[2].

وهذا يدلّ على أنّ الاصطفاء النّسَبي كان جزءا من الرعاية الربانية التي لازمت النّبيّ ﷺ منذ الأزل حتى أخرجه الله للدنيا وأخرج على يديه الدعوة العظمى.

إظهار الشرف

قضية شرف النسب والموقع الاجتماعي للنبيّ ﷺ قضية مهمة تنبع من أهمية الشرف في المجتمع الذي سيشهد انطلاقة الدّعوة.

---

(١) سبق (ص٦).

(٢) أخرجه البخاري (ح ٣٥٥٧).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

كثيراً ما يكون الشرف والفضائل لأفراد من البشر لكنّها لا تظهر ولا يُعرفون بها حتى يهيّئ الله ما يظهر ويشهر صاحبه.

ولعل هذا الأمر لا يهمّ كثيراً في عامة الناس وعامة الأحوال، لكن حين تكون الأرض تستعد لحدث مهمّ يقدره الله على يد واحد من هؤلاء فإنّه لابدّ من أحداث تتقدّمه تكون بمثابة التعريف للدنيا بعظمة ومقام القادم الجديد ليذعن الجميع له بالشرف والسؤدد القديم.

إنّه نوع متميز ونادر من التزكية الّتي يشارك فيها كلّ شيء، الإنسان والجماد والحيوان، الكل يشارك في أحداث شكّلت نقاط مهمة في التاريخ لم يكن أحد يومها يعلم أنّها كانت جزءا من رعاية ربانية رافقت الوجود المحمّدي صلى الله على صاحبه وسلّم، لكن الناظر إليها مجتمعة وفي سياقاتها يجد ذلك حقيقياً وواقعياً ومنطقياً كذلك، فلننظر في بعض الأسماء المهمة في سلسة النسب النبوي.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

قصي بن كلاب
وحيازة الشرف

أبوكم قصيٌّ كان يُدعى مجمّعاً ❖ به جمع الله القبائل من فهر
هم ملئوا البطحاء مجداً وسؤدداً ❖ وهم طردوا عنا غواة بني بكر

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

قُصيّ بن كلاب

ذكرنا سابقا أنّ للمعدن الجيد أثر في جودة صفات وأخلاق من خُلق منه، أقول هذا لأنّنا نذكر هنا لقصيّ بن كلاب كيف استطاع أن ينتزع مُلْكَ مكة من أهله بعد ثلاثمئة سنة، مع أنّه جاء إلى مكة وحيداً، وكل القصص والأخبار الّتي تُحكى عنه تدل على أنّه كان شخصيّة فذّة قيادية صعبة المراس لا تقبل إلاّ بالمراتب العليا.

وكان له ثلاثة أسماء: زيد، وقصي، ومجمعاً، فزيد هو اسمه الحقيقي، وأما قصي فسمي به لأنّ أمّه تزوجت بعد وفاة أبيه كلاب رجلاً من بني قضاعة وسافر بها وهو معها إلى أطراف الشام فسمي قصياً لبعده عن أهله.

وأما مجمعاً فسُمي به لأنّه جمع قريشاً في مكة بعد أن كانوا مشتتين متفرقين في الأودية والشعاب.

وأمّا قصة استيلائه على زعامة مكة فهي قصة عجيبة:

فقد كان الشرف والزعامة بمكة في يد إسماعيل عليه السلام وأبنائه، لكنّ الزعامة انتقلت إلى جرهم بعد موت ولدي إسماعيل نابت وقيدار، حيث وليها جدّهما لأمّهما مضاض بن عمرو الجرهمي، وظلّ الأمر بيد جرهم مئات السّنين، وأصبح وضع أبناء إسماعيل ضعيفاً حتى عهد عدنان الذي قاد جيش العرب ضدّ جيش بختنصر عندما غزاهم ما أدى إلى تفرق بني عدنان في اليمن، وأمّا معدّ فذهب إلى الشام وبقي فيها حتّى زالت قوة بختنصّر، فعاد عاد إلى مكة فتزوج من جرهم امرأة وولد له نزار.

وبهذا أصبح العدنانيون مجاورين بمكة لكن ليس لهم من الأمر شيء.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

ساء أمر جرهم بمكة بعد ذلك، وضاقت أحوالهم، فظلموا الوافدين إليها، واستحلوا مال الكعبة، الأمر الذي كان يغيظ العدنانيين ويثير حفيظتهم، ولما نزلت قبيلة خزاعة بِمَرِّ الظَّهْران[1]، ورأت نفور العدنانيين من الجراهمة استغلت ذلك، فقامت بمعونة من بطون عدنان ـ وهم بنو بكر بن عبد مناف بن كنانة ـ بمحاربة جرهم، حتى أجلتهم عن مكة، واستولت على حكمها في أواسط القرن الثانى للميلاد.

ولما لجأت جرهم إلى الجلاء سدوا بئر زمزم، ودرسوا موضعها، ودفنوا فيها عدة أشياء، قال ابن إسحاق: فخرج عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمى بغزالي الكعبة، وبحجر الركن الأسود فدفنهما في بئر زمزم، وانطلق هو ومن معه من جرهم إلى اليمن، فحزنوا على ما فارقوا من أمر مكة وملكها حزنًا شديدًا.

واستبدت خزاعة بأمر مكة دون بنى بكر العدنانيين، إلا أنه كان إلى قبائل مضر ثلاث خلال:

الأولى: الدفع بالناس من عرفة إلى المزدلفة، والإجازة بهم يوم النفر من منى، وكان يلى ذلك بنو الغَوْث بن مرة من بطون إلياس بن مضر، وكانوا يسمون صُوفَة، ومعنى هذه الإجازة أن الناس كانوا لا يرمون يوم النفر حتى يرمى رجل من صوفة، ثم إذا فرغ الناس من الرمي وأرادوا النفر من منى أخذت صوفة بجانبي العقبة، فلم يجز أحد حتى يمروا، ثم يخلون سبيل الناس، فلما انقرضت صوفة ورثهم بنو سعد بن زيد مناة من تميم.

الثانية: الإفاضة من جمع غداة النحر إلى منى، وكان ذلك في بنى عدوان.

الثالثة: إنساء (أي تأخير) الأشهر الحرم، وكان ذلك إلى بني فُقَيْم بن عدى من بني كنانة.

وهذا يعني عودة بعض الشرف لبني إسماعيل.

واستمرت ولاية خزاعة على مكة ثلاثمائة سنة، وفي وقت حكمهم انتشر العدنانيون في نجد وأطراف العراق والبحرين، وبقي بأطراف مكة بطون من قريش وليس لهم من أمر مكة ولا البيت الحرام شيء حتى جاء قصيّ بن كلاب ليعيد الأمر إلى نصابه.

---

(١) الظهران واد قرب مكة وعنده قرية يقال لها (مَر) تضاف إلى هذا الوادي فيقال مرُ الظهران، .. وبمر الظهران عيون كثيرة ونخيل . معجم البلدان لياقوت.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

عودة الأمر إلى أهله:

ويذكر من أمر قصيّ: أن أباه مات وهو في حضن أمه، فتزوجت أمه برجل من بني عُذْرَة ـ وهو ربيعة بن حرام ـ فسافر بها إلى بلاده بأطراف الشام، فبينما قُصيّ بأرض قُضاعة لا ينتمي إلا إلى ربيعة بن حرام زوج أمّه وقع بينه وبين رجل من قضاعة، شيء، فقال له: « ألا تلحق بقومك، فإنك لستَ منّا» فرجع قصيّ إلى أمه فسألها عَمّا قال له ذلك الرجل، فقالت له: «أنت والله أكرم منه نفساً ووالداً، أنت ابن كلاب بن مُرة بن كعب بن لؤي بن غالب، وقومك بمكة عند البيت الحرام وحوله ».

عند ذلك قرّر قُصيّ الخروج إلى قومه واللحوق بهم، وكره الغربة، فقالت له أمه: «لا تعجل بالخروج حتى يدخل عليك الشهر الحرام فتخرج في حاج العرب، فإني أخشى عليك أن يُصيبك بعض البأس »، فأقام حتى دخل الشهر الحرام، فخرج في حاج العرب من قضاعة، فقدم مكة فلما فَرَغ من الحج أقام بها، ويبدو أنّه ظهرت عليه أمارات النجابة والشرف، وقد كان للعرب فراسة في الخلق، فخطب قصيّ إلى حُلَيْل بن حُبْشة الخزاعي – وكان والي مكّة – ابنته حُبَّى، فرغب فيه حليل، فزَوّجه، فولدت له حبّى: عبد الدار، وعبد مناف، وعبد العزى، وعبد قصي.

فلما انتشر ولده، وكثر ماله، وعظم شرفُه هَلَكَ حُلَيْل أبن حُبْشِية، فرأى قصي أنه أوْلَى بالكعبة وأمر مكة من خُزاعة وبني بكر، وأن قريشاً صريح ولد إسماعيل بن إبراهيم، فكلَّم رجالاً من قريش وبني كنانة ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبني بكر من مكة، فلما قبلوا منه دعاهم إليه وبايعوه على ذلك، كتب إلى أخيه من أمه رزاح بن ربيعة وهو ببلاد قومه يدعوه إلى نصرته والقيام معه، فقام رزاح في قُضاعة، فدعاهم إلى نصر أخيه فأجابوه.

وكانت صوفة (وهم: بنو الغوث بن مرة) تدفع بالناس من عرفة، وإذا أرادوا النَّفْر من منىً أخذت صوفة بناحيتي العقبة، فحبسوا الناس، وقالوا: أجيزي صوفة، فلم يُجْزْ أحد من الناس حتى ينفذوا، فإذا مضت صوفة خلى سبيل الناس بعدهم، والعرب قد عرفت هذا لصوفة من عهد جرهم وخزاعة.

فلما كان العام أتى قصي بمَنْ معه من قريش وكنانة وقُضاعة عِند العَقَبة وقالوا: نحن أولى بهذا منكم، فباكرهم فقاتلوه واقتتل الناس، وانهزمت صوفة، وغلبهم قُصيّ على ذلك.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

ولّما رأت خُزاعة وبنو بكر ما حصل لصوفة تحالفوا ضد قصي، إذ عرفوا أنه سيمنعهم مثل ما منع صوفة، وأنه سيحُول بينهم وبين الكعبة، وأمْر مكة، فلما انحازوا عنه باداهم وأجمع لحربهم فالتقوا، فاقتتلوا حتى كَثُرت القتلى في الفريقين.

ثم إنهم تداعوا للصلح، فحكَّموا رجلاً يُقال له: عمرو بن عوف الكناني، فقضى بأن قُصيّاً أولى بالكعبة وأمْر مكة من خزاعة، وأن كلّ دم أصابه قُصَيٌّ من خُزاعة وبني بكر موضوع، وما أصابته خزاعة وبنو بكر من قريش وبني كنانة وقُضاعة ففيه الدّية فوَلِي قُصي البيت وأمرَ مكة، وجمع قومه من منازلهم إلى مكة، وتملّك على قومه وأهل مكة، فملّكوه، فكان قُصيّ أوّل ولد كعب بن لؤي أصاب ملكاً أطاع له به قومه، فكانت إليه الحجابة والسقاية والرَّفادة والندوةَ واللواء، فحاز شرف مكة كلّه، وقطع مكة أرباعاً بين قومه، فأنزل كلّ قوم من قريش منازلهم من مكّة التي أصبحوا عليها.

ويزعم الناس أن قريشاً هابت قطع شجر الحرم في منازلهم، فقطعها قُصيّ بيده، وما كانت تُنكح امرأة ولا رجل من قريش إلا في دار قصي، ولا يتشاورون في أمر نزل بهم إلا من داره، ولا يعقدون لواءً لحرب قوم إلاّ في داره، يعقدها لهم بعض ولده، وكان أمره في قومه من قريش في حياته وبعد موته كالدِّين المتَّبع، لا يعمل بغيره تيمناً بأمره، ومعرفة بفضله وشرفه، واتخذ قصي لنفسه دار الندوةَ، وجعل بابها إلى مسجد الكعبة ففيها كانت قريش تقضي أمورها.

وسميت دار الندوة لأنهم كانوا ينتدون فيها أي: يجتمعون للخير والشر، والندى: مجمع القوم، فأقام قصي على شرفه لا ينازع في شيء من أمر مكة، إلا أنه قد أقر للعرب في شأن حَجّهم ما كانوا عليه، وللنَّسأة من بني مالك بن كنانة، إلى أن جاء الإسلام، وهو أوّل من أوقد النار بالمزدلفة حيث وقف بها حتى يراها من دفع عرفه، فلم تزل توقد في تلك الليلة في الجاهلية، ولم تزل توقد على عهد رسول الله صلى الله علية وسلم وأبي بكر وعمر.

قالوا: فلما جمع قريشاً إلى الحرم سميت حينئذ، لجمعه إياهم وكان يقال لهم قبل ذلك (بنو النضر) وفيه قيل:

وزيد أبوكُم كان يُدْعَى مُجَمَعاً... بِهِ جَمَعَ اللهُّ القَبَائِلَ مِن فِهْرِ

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

ومن هذه القصة يتبيّن لك المحتد الّذي جاء منه النّبيّ ﷺ، وكيف أصبح قصيّ في قريش بمثابة الملهِم بل بمثابة النبيّ الّذي تُعدّ أفعاله ديناً يُتديّن به وهذا بلا شكّ سيلقي بظلاله على الدّعوة كما سنرى فيما بعد كيف كان لهذه الأسرة الهاشميّة أثر في حمايتها وردّ كثير من الأذى عنها.

عبد مناف

وقد وُلد لقصي أربعة من الولد، وكان قُصي فيما زعموا يقول: وُلِدَ لي أربعة، فسَمّيت اثنين بصنميٍّ، وواحداً بداري، وواحداً بنفسي؟ وهم: عبد مناف، وعبد العُزى، وعبد الدار، وعبد قصي، أمهم جميعاً: حُبَّى بنتَ حُلَيل بن حُبْشِية الخزاعي، ودفعت ولدها عبد مناف إلى مناف، وكان أعظم أصنام مكة تدَيُّناً بذلك، فغلب عليه عبد مناف.

واسمه المغيرة، وكان يقال له: القمر من جماله وحسنه، وهذا يشير إلى عناية من جانب آخر وهو سلامة الخلقة من الآفات وكسوتها بأحسن الصفات حتى جاء ﷺ أجمل الناس وأبهاهم، فقد وجدت في أكثر من جد له وصف بالجمال والحسن.

فعبد مناف كان يُقال له القمر، وفي المنتظم لابن الجوزي: أن عبد المطلب بن هاشم وَحَرْبَ بن أميّة رحلا إلى النجاشي الحبشي فأبى أن ينفر بينهما فجعلا بينهما نفيل بن عبد العزى بن رباح فقال لحرب: يا أبا عمرو، أتنافر رجلاً هو أطول منك قامة، وأعظم منك هامة، وأوسم منك وسامة».

قال ابن كثير: « وكان قد رأس في زمن والده، وذهب به الشرف كل مذهب ».

وله قيل:

كانَتْ قُرَيش بَيْضَةً فتلفَقَتْ... فالمحُّ خالِصَةٌ لِعَبْدِ مَنَافِ

هاشم

قال ابن هشام: ولد عبد مناف بن قصي أربعة نفر: هاشماً وعبد شمس والمطلب، ونَوْفلاً.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

فأمّا جدّ النّبيّ ﷺ هاشم فاسمه: عمرو، وإنّما سُمي هاشماً لأنّ قومه من قريش أصابهم قحْط، فرحل إلى فلسطين، فاشترى الدقيقَ، فقدم به مكّة، فأمر به فخبز له ثم نحر جَزُوراً، ثم اتخذ لقومه مِنْ مرقه ثريداً فكان أول من هشم الثريد لقومه، وأطعمه.

فقال ابن الزَّبَعْرى فيه:

عمرُو العُلا هَشَمَ الثّرِيدَ لِقَوْمِهِ... ورِجالُ مَكةَ مُسْتَمُونَ عِجَافُ

وهو أولُ مَنْ سنَ الرحلتين لقريش رحلة الشتاء والصيف، فقد ذكر المؤرخون أنّه كان من اعتقاد قريش في الجاهلية أن أهل البيت منهم كانوا إذا هلكت أموالهم خرجوا إلى براح من الأرض فضربوا على أنفسهم الخيام، ثم تناوموا فيها حتى يموتوا من قبل أن يُعلم بحالتهم، حتى نشأ هاشم بن عبد مناف، فلما عظم قدره قال: يا معشر قريش، إن العز مع كثرة العدد، وقد أصبحتم أكثر العرب أموالاَ وأعزها نفراً، وإن هذا الاعتقاد قد أتى على كثير منكم، وقد رأيت رأياً.

قالوا: رأيك رشد فمُرْنا نأتمر.

قال: رأيت أن أخلط فقراءكم بأغنيائكم وأعمد إلى رجل غني فأضم إليه فقيراً أجمع، عيالهُ بعدد عياله، وأذره في الرحلتين، فما كان من مال الغني من فضل عاش الفقير وعياله في ظله، وكان ذلك قاطعاً للأحقاد قالوا: نعم ما رأيت. فألف بين الناس، فلما بعث الله تعالى رسوله عليه السلام، كان فيما أنزل عليه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفِيل: ١] ثم نزلت: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش: ١]، أي: لتراحمهم وتواصلهم، وإن كانوا على شرك.

❁❁❁

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

عبد المطلب

«أنا النّبيّ لا كذب أنا ابن عبدالمطلب»

رسول الله ﷺ

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

عبدالمطّلب

ولد هاشم عبدَالمطّلب، واسمه **شيبة**، وإنما قيل له عبد المطّلب: لأنّ هاشماً أباه خرج إلى الشام في تجارة، فمر بالمدينة، فرأى (سلمى بنت عمر) وبعضهم يقول: بنت زيد من بني النجار، فأعجبته، فخطبها إلى أبيها فأنكحها منه، وشرط عليه أن لا تلد ولداً إلاّ في أهلها، ثم مضى هاشم لوجهه قَبْل أن يبنيَ بها، ثم انصرف راجعاً من الشام، فبنى بها في أهلها بيثرب، فحملت منه، ثم ارتحل إلى مكة وحملها معه، فلما أثقلت ردَّها إلى أهلها، ومضى إلى الشام فمات بغزة، فولدت له عبد المطلب، فمكثت بيثرب سبع سنين أو ثماني سنين، ثم إن رجلاً من بني الحارث مَرّ بيثرب، فإذا غلمان يتسابقون في الرماية، فجعل شيبة إذا اصاب الهدف قال: أنا ابن هاشم، أنا ابن سيّد البطحاء، فقال له الحارثي: مَنْ أنت؟ قال: أنا شيبة بن هاشم بن عبد مناف.

فلما أتى الحارثي مكة قال للمطلب وهو جالس في الحجر: أيا أبا الحارث، تعلم أنيّ وجدت صبياناً يتضلون بيثرب، وفيهم غلام إذا أصاب قال: أنا ابن هاشم أنا ابن سيد البطحاء، فقال المطلب: واللهّ لا أرجع إلى أهلي حتى آتيَ به، فقال له الحارثي: هذه راحلتي بالفناء فاركبها، فجلس المطّلب عليها، فورد يثرب عشاء، حتى أتى عدي بن النجار، فإذا غلمان يضربون كُرة بين ظهريْ المدينة، فجلس فعرف ابن أخيه، فقال للقوم: أهذا ابن هاشم؟ قالوا: نعم، هذا ابن أخيك، فإن كنت تريد أخذه فالساعة قبل أن تعلم به أمه، فإنها إن علمت لم تدعك وحلنا بينك وبينه، فدعاه فقال: يا ابن أخي أنا عَمّك، وقد أردتُ الذهاب بك إلى قومك، وأناخ راحلته، فما كذب أن جلس على عَجز الناقة، فانطلق به، ولم تعلم أمه حتى كان الليلُ، فقامت تدعوه فأخبرت أن عمه ذهب به، وقدِم به المطّلب ضحوة،

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

والناس في مجالسهم، فجعلوا يقولون: مَنْ هذا وراءك؟ فيقول: عبد لي، حتى أدخله منزله على امرأته خديجة بنت سعيد بن سهم، فقالت: مَنْ هذا؟ قال: عبد لي، ثم خرج المطّلب فاشترى حُلة فألبسها شيبة، ثم خرج به حتى كان العَشي أتى مجلس بني عبد مناف، فجعل بعد ذلك يطوف في سِكَك مكة في تلك الحُلة، فيقال هذا عبد المطلب، لقوله: هذا عبدي حين سأله قومه.

وقد كان لعبدالمطلب بعد موت عمَه المطلب ما كان إلى مَنْ قبله من بني عبد مناف من أمر السقاية والرفادة، وشرُفَ في قومه، وعَظُم خطره، فلم يكن يُعدَل به منهم أحد، وحدث له بعض الحوادث جعلت منه سيّد مكة بلا منازع حتى قال النّبيّ ﷺ في غزوة حنين: «**أنا النّبيّ لا كذب أنا ابن عبدالمطلب**»(١).

حفْرُ زمزم:

رأى عبدالمطلب في منامه من يأمره بحفر زمزم، فقال له: وما زمزم ؟ فقال له: « لا تنزف أبداً ولا تذم، تسقى الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم، عند قرية النمل ».

فلمّا تبيّن موضعها غدا بمعوله ليحفرها ومعه ابنه الحارث وما معه يومئذ إلاّ هو، فحفر فيها، فلما بدا لعبد المطلب الطي كبر، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته، فقاموا إليه فقالوا: يا عبد المطلب إنها بئر أبينا إسماعيل، وإن لنا فيها حقا فأشركنا معك فيها.

قال: ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم وأعطيته من بينكم.

قالوا له: فأنصفنا فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها.

قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه.

قالوا: كاهنة بنى سعد بن هذيم.

قال: نعم، وكانت بأشراف الشام.

---

(١) أخرجه البخاري (ح ٢٨٦٤) ومسلم (ح ١٧٧٦).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

فركب عبد المطلب ومعه نفر من بنى أمية، وركب من كل قبيلة من قريش نفر.

فخرجوا وساروا في الصحراء الواسعة، حتّى إذا توسطوها نفد ماء عبد المطلب وأصحابه، فعطشوا حتى استيقنوا بالهلاك، فطلبوا الماء ممّن معهم فأبوا عليهم وقالوا: إنا في صحراء وإنا نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم.

فقال عبد المطلب لأصحابه: أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرته لنفسه بما لكم الآن من القوة، فكلما مات رجل دفعه أصحابه في حفرته ثم واروه، حتى يكون آخرهم رجلاً واحداً، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعه.

فقالوا: نِعْم ما أمرت به.

فحفر كل رجل لنفسه حفرة ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشا.

ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه: والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض ولا نبتغى لا نفسنا لَعَجْز، فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض البلاد، ارتَحِلُوا.

فارتَحلوا، حتى إذا بعث عبد المطلب راحلته انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب، فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه واستسقوا حتى ملأوا أسقيتهم، ثم دعا قبائل قريش وهم ينظرون إليهم في جميع هذه الأحوال فقال: هلمّوا إلى الماء فقد سقانا الله.

فجاءوا فشربوا واستقوا كلهم، ثم قالوا: قد والله قضى لك علينا، والله ما نخاصمك في زمزم أبداً، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشداً.

فرجع ورجعوا معه، ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخلوا بينه وبين زمزم، ثم إن عبد المطلب أقام سقاية زمزم للحاج، وبذلك ثبتت لعبدالمطّلب رياسة وشرف بتأييد رباني عرفته قريش له واستدلوا بوقوع هذه الحادثة أنّ الربّ تبارك وتعالى قضى له عليهم.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

عبد الله وآمنة

إنى رأيت مخيلة لمعت فتلالات بحناتم القطر
فلمأتها نورا يضئ له ما حوله كإضاءة البدر
ورجوتها فخرا أبوء به ما كل قادح زنده يورى
لله ما زهرية سلبت ثوبيك ما استلبت وما تدرى

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

الوالدان

عبدالله بن عبدالمطلب وحادثة النحر:

وهذه حادثة جديدة تقترب فصولها زمنياً من النّبيّ ﷺ، إذ محور هذه الحادثة هو والد النّبيّ ﷺ عبدالله.

فقد كان لحادثة حفر زمزم أثرها على نفس عبدالمطلب الذي أحسّ أنّه رغم محلّه من الشرف والرياسة بحاجة إلى الرجال الذين يقفون معه عند الملمات، إذ رأينا كيف أنّ قريش نازعته في حفرها ولم يكن معه من يذود عنه سوى ولده الحارث، لذا فقد نذر إن وُلد له عشرة من البنين ثم بلغوا معه حتى يمنعوه ليذبحن أحدهم لله عند الكعبة، فلما تكامل بنوه عشرة، وعرف أنهم سيمنعونه، وهم: الحارث، والزبير، وحجل، وضرار، والمقوم، وأبو لهب، والعباس، وحمزة، وأبو طالب، وعبد الله، جمعهم ثم أخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء لله عزوجل بذلك، فأطاعوه وقالوا: كيف نصنع ؟ قال: ليأخذ كل رجل منكم قدحاً ثم يكتب فيه اسمه ثم ائتوني، فلما جاؤوه بها ذهب بالقداح عند هبل وضرب بها فخرج القدح على ابنه عبد الله وكان أصغر ولده وأحبهم إليه، فأخذ عبدالمطلب بيد ابنه عبد الله وأخذ الشفرة ثم أقبل به إلى إساف ونائلة ليذبحه، فقامت إليه قريش من أنديتها فقالوا: ما تريد يا عبد المطلب ؟

قال: أذبحه.

فقالت له: قريش وبنوه إخوة عبد الله: والله لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه، لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يجيء بابنه حتى يذبحه، فما بقاء الناس على هذا ؟ !

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

ثم أشارت قريش على عبد المطلب أن يذهب إلى الحجاز فإن بها عرافة لها تابع، فيسألها عن ذلك، ثم أنت على رأس أمرك، إن أمرتك بذبحه فاذبحه، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه مخرج قبلته.

فانطلقوا حتى أتوا المدينة فوجدوا العرافة وهي سجاح بخيبر، فركبوا حتى جاءوها فسألوها وقص عليها عبد المطلب خبره وخبر ابنه، فقالت لهم: ارجعوا عنى اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله.

فرجعوا من عندها، فلما خرجوا قام عبد المطلب يدعو الله، ثم غدوا عليها فقالت لهم: قد جاءني الخبر، كم الدية فيكم ؟ قالوا: عشر من الإبل.

وكانت كذلك.

قالت: فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشراً من الإبل.

ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضي ربكم ونجا صاحبكم.

فخرجوا حتى قدموا مكة، فلما أجمعوا على ذلك الأمر قام عبد المطلب يدعو الله، ثم قربوا عبد الله وعشراً من الإبل، ثم ضربوا، فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشراً ثم ضربوا، فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشرا فلم يزالوا يزيدون عشرا ويخرج القدح على عبد الله حتى بلغت الإبل مائة، ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل، فقالت عند ذلك قريش لعبد المطلب، وهو قائم عند هبل يدعو الله: قد انتهى رضى ربك يا عبد المطلب.

فعندها زعموا أنه قال: لا حتى أضرب عليها بالقداح ثلاث مرات.

فضربوا ثلاثاً ويقع القدح فيها على الإبل، فنحرت ثم تركت لا يُصد عنها إنسان ولا يمنع ولا سبع.

وهكذا أصبح لعبدالله موقعه من أبيه ومن قريش، ووقع منهم محلاً، ويبدو أنّه كان فتى قريش ولهذا اجتهد أبوه أن يزوّجه بأحسب وأجمل نسائها: آمنة بنت وهب الزهرية.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وقيل في الأخبار :إنّ عبدالله كانت تعلوه البهاء وتكسوه ملاحة ووسامة لا يخطئها من نظر إليه، وكيف يبعد ذلك وفي صلبه صاحب الوجه الأنور والجبين الأزهر ﷺ.

وفي عيون الأثر لابن سيد الناس: كان عبد الله أحسن رجل مرئي في قريش قط وكان أبوه عبد المطلب قد مَرّ به فيما يزعمون على امرأة من بني أسد بن عبد العزى و هي أخت ورقة بن نوفل و هي عند الكعبة فقالت له: أين تذهب يا عبد الله ؟ قال: مع أبي قالت: لك مثل الإبل التي نحرت عنك ـ و كانت مائة ـ وقع علي الآن قال: أنا مع أبي ولا أستطيع خلافه و لا فراقه و أنشد بعض أهل العلم في ذلك لعبد الله بن عبد المطلب:

أما الحرام فالممات دونه و الحل لا حل فأستبينه

فكيف بالأمر الذي تبغينه يحمي الكريم عرضه و دينه

فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهيب بن عبد مناف بن زهرة و هو يومئذ سيد بني زهرة سِناً و شرفاً فزوّجه آمنة بنت وهب و هي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً، فزعموا أنه دخل عليها حين أملكها مكانه فوقع عليها فحملت برسول الله ﷺ، ثم خرج من عندها فأتى المرأة التي عرضت عليه ما عرضت فقال لها: ما لك لا تعرضين علي اليوم ما عرضت بالأمس ؟

فقالت له: فارقك النور الذي كان معك فليس لي بك اليوم حاجة و قد كانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل أنه كائن في هذه الأمة نبيّ.

الفيل

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾[الفِيل:١]

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

عام الفيل

كانت حادثة الفيل بمثابة إعلان عالمي عن قداسة البقعة المكية، وشرف أهلها ومن قام عليها، ومن ثمّ استحقاق أهلها أن يخرج منهم نبيّ.

وشيء آخر مهم، وهو أنّ أبرهة وجيشه تعرضوا العذاب الله لأنّهم أرادوا ببيته سوءاً، فكيف بمن يخرج يريد إفساد البيت وتغيير الدين الصحيح والكذب على ربّ العالمين ؟

فبقاء النّبيّ ﷺ في حضن البيت يدعو إلى دين الحنيفية وتأييد الله له بالمعجزات وبالحفظ من كيد المشركين كان أيضاً دليلاً على صدقه وأنّه محلّ رضا من ربّ البيت تعالى.

وخلاصة القصّة كما سردها المؤرخون: أن أبرهة بن الصباح الحبشي، النائب العام عن النجاشي على اليمن، لما رأى العرب يحجون الكعبة بني كنيسة كبيرة بصنعاء، وأراد أن يصرف حج العرب إليها، وسمع بذلك رجل من بني كنانة، فدخلها ليلاً فلطخ قبلتها بالعذرة، ولما علم أبرهة بذلك ثار غيظه، وسار بجيش عرمرم – عدده ستون ألف جندي – إلى الكعبة ليهدمها، واختار لنفسه فيلاً من أكبر الفيلة، وواصل سيره حتى بلغ المُغَمَّس [1]، وهناك عبأ جيشه وهيّأ فيله، وتهيّأ لدخول مكة، فلما كان في وادى مُحَسِّر بين المزدلفة ومنى برك الفيل، ولم يقم ليقدم إلى

(١) المُغمَس: بالضم ثم الفتح وتشديد الميم وفتحها اسم المفعول من غمَستُ الشيء في الماء إذا غَيبتَهُ فيه، موضع قرب مكة في طريق الطائف مات فيه أبو رِغال وقبره يرجم لأنه كان دليل صاحب الفيل فمات هناك.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

الكعبة، وكانوا كلما وجهوه إلى الجنوب أو الشمال أو الشرق يقوم يهرول، وإذا صرفوه إلى الكعبة برك، فبينا هم كذلك إذ أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل، ترميهم بحجارة من سجّيل، فجعلهم كعصف مأكول، وكانت الطير أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر ثلاثة أحجار؛ حجر في منقاره، وحجران في رجليه أمثال الحمص، لا تصيب منهم أحدًا إلا صارت تتقطع أعضاؤه وهلك، وليس كلهم أصابت، وخرجوا هاربين يموج بعضهم في بعض، فتساقطوا بكل طريق وهلكوا على كل منهل، وأما أبرهة فبعث الله عليه داء تساقطت بسببه أنامله، ولم يصل إلى صنعاء إلا وهو مثل الفرخ، وانصدع صدره عن قلبه ثم هلك.

وأما قريش فكانوا قد تفرقوا في الشعاب، وتحرّزوا في رءوس الجبال خوفًا على أنفسهم من معرة الجيش، فلما نزل بالجيش ما نزل رجعوا إلى بيوتهم آمنين.

وكانت هذه الوقعة في شهر المحرم قبل مولد النبي ﷺ بخمسين يومًا أو بخمسة وخمسين يومًا ـ عند الأكثر ـ وهو يطابق أواخر فبراير أو أوائل مارس سنة ٥٧١ م، وكانت تقدمة قدّمها الله لنبيّه وبيته؛ لأنّا حين ننظر إلى بيت المقدس نرى أن المشركين من أعداء الله استولوا على هذه القبلة مرتين بينما كان أهلها مسلمين، كما وقع لبُخْتُنَصَّر سنة ٥٨٧ ق، م، والرومان سنة ٧٠ م، ولكن لم يتم استيلاء نصارى الحبشة على الكعبة وهم المسلمون إذ ذاك، وأهل الكعبة كانوا مشركين.

وقد وقعت هذه الوقعة في الظروف التي يبلغ نبؤها إلى معظم المعمورة المتحضرة إذ ذاك.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

فالحبشة كانت لها صلة قوية بالرومان، والفرس لا يزالون لهم بالمرصاد، يترقبون ما نزل بالرومان وحلفائهم؛ ولذلك سرعان ما جاءت الفرس إلى اليمن بعد هذه الوقعة، وهاتان الدولتان كانتا تمثلان العالم المتحضر في ذلك الوقت.

فهذه الوقعة لفتت أنظار العالم ودلّته على شرف بيت الله، وأنه هو الذي اصطفاه الله للتقديس، فإذن لو قام أحد من أهله بدعوى النبوة كان ذلك هو عين ما تقتضيه هذه الوقعة، وكان تفسيراً للحكمة الخفية التي كانت في نصرة الله للمشركين ضد أهل الإيمان بطريق يفوق عالم الأسباب.

وبعد حادثة الفيل بشهرين تقريباً بلغت هذه المرحلة قمّتها بإعلان ولادة النّبيّ ﷺ مؤذنا ببداية مرحلة جديدة من سيرته وحياته ﷺ.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

المرحلة الثانية:

من المولد الشريف

إلى البعثة

التهيئة الخاصة

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾

[الضُّحى: ٦-٨]

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

الاستعداد الكوني

ولد سيد المرسلين ﷺ بشعب بني هاشم – وهو شعب أبي طالب – بمكة في صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول، لأول عام من حادثة الفيل، ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان، ويوافق عشرين أو اثنين وعشرين من شهر أبريل سنة ٥٧١ م.

وقد روي عنه ﷺ أنّه قال: « إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بتأويل ذلك، دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت، وإن أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نورا أضاءت له قصور الشام »[1].

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٢) وصححه ابن حبان والحاكم .

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

ولما ولدته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بحفيده، فجاء مستبشرًا ودخل به الكعبة، ودعا الله وشكر له، واختار له اسم محمد – وهذا الاسم لم يكن معروفًا في العرب – وخَتَنَه يوم سابعه كما كان العرب يفعلون.

وأول من أرضعته من المراضع – وذلك بعد أمه ﷺ بأسبوع – ثُوَيْبَة مولاة أبي لهب بلبن ابن لها يقال له: مَسْرُوح، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبدالمطلب، وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي.

إرهاصات المولد الشريف

سبق أن قلنا إنّ ولادة النّبيّ ﷺ تعني بداية عهد جديد في تاريخ البشرية، إذ معناه ولادة الإنسان الذي سيكون على يديه أحداث جسام، أحداث ستقسم الخلق كله نصفين، وهذا الحدث الكوني كما قلنا حدث كانت تشترك في صياغته والتجهيز له الكائنات كلها بأمر من الله تعالى، ولهذا سبق مولده الشريف أمور ذكرها أهل السير وأكثرها لم يصحّ من طريق يُعتمد عليه، قال المباركفوري: «وقد رُوي أن إرهاصات بالبعثة وقعت عند الميلاد، فسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى، وخمدت النار التي يعبدها المجوس، وانهدمت الكنائس حول بحيرة ساوة بعد أن غاضت، روى ذلك الطبري والبيهقي وغيرهما، وليس له إسناد ثابت، ولم يشهد له تاريخ تلك الأمم مع قوة دواعي التسجيل».

قلتُ: وأشهره ما ذكره القرآن عن الجن واستراق السمع.

منع الجن من الاستراق

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: « لم تكن قبيلة من الجن إلا ولهم مقاعد للسمع، قال: فكان إذا نزل الوحي سمعت الملائكة صوتاً كصوت الحديدة ألقيتها على الصفا، قال: فإذا سمعته الملائكة خرّوا سجداً فلم يرفعوا رؤوسهم حتى ينزل، فإذا نزل قال بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم ؟ فإن كان مما يكون في السماء قالوا: الحق وهو العلي الكبير، وإن كان مما يكون في الأرض من أمر الغيب أو موت أو شيء مما يكون في الأرض تكلموا به فقالوا: يكون كذا وكذا، فتسمعه الشياطين فينزلونه على أوليائهم، فلما بعث الله محمداً دُحِروا بالنجوم، فكان أوّل من علم بها ثقيف، فكان ذو الغنم منهم ينطلق إلى غنمه فيذبح كل يوم شاة، وذو الإبل ينحر كل يوم بعيراً، فأسرع الناس في أموالهم فقال بعضهم لبعض: لا تفعلوا، فإن كانت النجوم التي يُهتدَى بها وإلا فإنه أمر حدث، فنظروا فإذا النجوم

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

التي يُهتدى بها كما هي، لم يرم منها بشيء فكفّوا، وصرف الله الجن، فسمعوا القرآن، فلما حضروه قالوا: أنصتوا، قال: وانطلقت الشياطين إلى إبليس فأخبروه فقال: هذا حدَثٌ حدَثَ في الأرض، فأتوني من كل أرض بتربة، فلما أتوه بتربة تهامة قال: ها هنا الحدث»[١].

وعن ابن عباس قال: « ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن وما رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم ؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فمرّ النفر الذين أخذوا نحو تهامة وهو بنخل عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء فرجعوا إلى قومهم، وقالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك به أحداً، فأوحى الله تعالى إلى نبيه ﷺ: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾[الجن: ١]»[٢] .

قلتُ: فهذه السماء ونظامها قد حدث فيها أحداث وتغير نظامها بمقدمه ﷺ إلى الدنيا تمهيداً لدعوته العظيمة، فلا أستبعد حدوث أمور كونية أخرى كانت بمثابة التهيئة الكونية لهذا القدوم الشريف وإن كنا لم نعلم بها.

❁❁❁

(١) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبو

(٢) أخرجه البخاري (٧٧٣).

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾

بعد أن تزوّج عبدالله بآمنة أرسله والده عبد المطلب إلى المدينة يشتري لهم تمرًا، فمات بها، وقيل: بل خرج تاجرًا إلى الشام، فأقبل في عير قريش، فنزل بالمدينة وهو مريض فتوفي بها، ودُفن في دار النابغة الجعدي، وله إذ ذاك خمس وعشرون سنة، وكانت وفاته قبل أن يولد رسول الله ﷺ، وبه يقول أكثر المؤرخين، وقيل: بل توفي بعد مولده بشهرين أو أكثر، ولما بلغ نعيه إلى مكة رثته آمنة بأروع المراثي، قالت:

عَفَا جانبُ البطحاءِ من ابن هاشم وجاور لَحْدًا خارجًا في الغَمَاغِم
دَعَتْه المنايا دعوة فأجابها وما تركتْ في الناس مثل ابن هاشم
عشية راحوا يحملون سريره تَعَاوَرَهُ أصحابه في التزاحم
فإن تك غالته المنايا ورَيْبَها فقد كان مِعْطاءً كثير التراحم

وجميع ما خلفه عبد الله خمسة أجمال، وقطعة غنم، وجارية حبشية اسمها بركة وكنيتها أم أيمن، وهي حاضنة رسول الله ﷺ.

دروس التنشئة

اليتم والكفالة: قال الله تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضُّحى: ٦].ثمّ قال آخراً: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾[الضُّحى: ٩].

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

هذه الآيات دستور في الأخلاق ورحمة الضعفاء وذوي الحاجة والنزول بمستويات المعاملة الإنسانية إلى الحضيض حين نتعامل معهم.

ويكفي أن تعلم أنّ سورة تُتلى إلى يوم القيامة نزلت عتابا للنّبيّ ﷺ حين عبس في وجه الأعمى.

والنّبيّ ﷺ تلقّى في هذا المجال أعظم وأرقى وأشدّ الدروس.. إذ أذاقه الله تعالى صنوفاً من ألوان الحياة الاجتماعية الّتي يعيشها النّاس: فوُلد ونشأ يتيماً، وعاش فقيراً.. وعاش عاملاً أجيراً وعاش مكفولاً في حضن جدّه عبدالمطلب ثم في حضن عمه أبي طالب وذلك بعد أن توفيت أمّه وعمره ست سنوات: إذ رأت آمنة ـ وفاء لذكرى زوجها الراحل ـ أن تزور قبره بيثرب، فخرجت من مكة قاطعة رحلة تبلغ نحو خمسمائة كيلو متر ومعها ولدها اليتيم ـ محمد ﷺ ـ وخادمتها أم أيمن، فمكثت شهرًا ثم قفلت، وبينما هي راجعة إذ لحقها المرض في أوائل الطريق، ثم اشتد حتى ماتت بالأبْوَاء بين مكة والمدينة.

كلّ هذا لم يأت اعتباطاً بل جاء تربية فذّة تصنع منه ﷺ شخصيّة متوازنة، شخصية تتمتّع بِنَواحٍ من القوّة لكنّها في نفس الوقت تتنازل عنها مقابل من لا يصلح معهم القوة.. لذلك جاء سياق الآيات مذكراً له بحاله قبل النبوة توطئة لأمره بحسن التعامل مع الناس بعدها.

وعاش النّبيّ ﷺ مكفولاً في حِجْر جده ثمّ في حجر عمه أبي طالب فعرف حياة المكفول وجرّب حياة المسكنة حين يكون الصغير في بيت قد لا يجد فيه من الدلال ما يمكن أن يجده في بيت أبيه وأمّه مهما كان الجد والعم من الشفقة والرحمة.

- وأمّا رعي الغنم فيذكر العلماء أنّه لأجل إكساب النفس خاصة التواضع والسكينة، كما قال ﷺ: « السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ »[1].

ورعاة الغنم يسرحون وحدهم غالبا في أماكن بعيدة عن التجمعات السكانية وهناك بعيداً يجدون فرصة للتأمّل والتفكير بمنأى عن ضوضاء المدينة وصخبها.

---

(١) أخرجه مسلم (ح٥٢).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

كما ساهم ذلك في إبعاده عن محافل مكة التي كان يكثر بها العصيان، قال ﷺ: «ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبينه، ثم ما هممت به حتى أكرمني برسالته، قلت ليلة للغلام الذي يرعى معي الغنم بأعلى مكة: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب، فقال: أفعل، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفًا، فقلت: ما هذا ؟ فقالوا: عرس فلان بفلانة، فجلست أسمع، فضرب الله على أذني فنمت، فما أيقظني إلا حر الشمس. فعدت إلى صاحبي فسألني، فأخبرته، ثم قلت ليلة أخرى مثل ذلك، ودخلت بمكة فأصابني مثل أول ليلة... ثم ما هممت بسوء »[(١)].

ورعاة الغنم يتعاملون مع بهائم رقيقة تتصف بالضعف وكأنّه تشبيه لحال غالب النّاس، ولم يرع الإبل لأنّ الإبل تحتاج إلى قسوة وقوة في التعامل فحتى لا يحتاج إلى تلك الصفات فيكتسبها مع مرور الوقت ويضرّ ذلك بالمهمة الّتي يُهيّأ لها كان حسن صنيع الله به أن رعى الغنم ولم يرع الإبل، ولهذا كَانَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ يَقُولُ: « مَا بَعَثَ اللهُّ نَبِيًّا إِلاَّ رَعَى الْغَنَمَ» فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ ؟ فَقَالَ: نَعَمْ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ » [(٢)].

قال ابن حجر رحمه الله: « قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى ونقلها من مسرح إلى مسرح ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرقها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة ألفوا من ذلك الصبر على الأمة وعرفوا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها فجبروا كسرها ورفقوا بضعيفها وأحسنوا التعاهد لها فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة لما يحصل لهم من التدريج على ذلك برعي الغنم، وخصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة، ومع أكثرية تفرقها فهي أسرع انقيادا من غيرها »[(٣)].

---

(١) أخرجه البزار (ح٥٨٢) والبيهقي في الدلائل (١/ ٤١٣) وقال الهيثمي في المجمع: « رواه البزار ورجاله ثقات ».

(٢) أخرجه البخاري (ح ٢٢٦٢).

(٣) فتح الباري (٤/ ٤٤١).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

كما أنّه بعمل الإجارة عرف حاجات فئة مهمة في المجتمع وهي فئة الأجراء أو ما يُسمى بلغة العصر: القوى العاملة فكان مثريا له في الحكم بين الأجير ورب العمل، ولهذا صدر عنه ﷺ نصوص في غاية القوة رحمة بالأجير وتذكيراً بحقه وترهيبا من العدوان عليه في بدنه أو أجرته.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

في مضارب بني سعد

«يا حليمة، والله إني لأراك قد أخذت نسمة مباركة»
زوج حليمة السعدية

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

في مضارب بني سعد

أعطى الله النبيّ ﷺ صفات خلقية تعينه على مهمة الدعوة وهذا بيّن منذ الصغر، ولعل قصّة رضاعه من حليمة السعدية ما يضيء لنا شيئا من هذا الجانب:

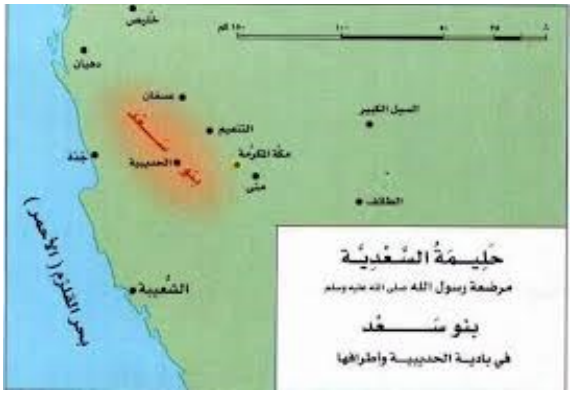

قالت حليمة: « قدمت مكة في نسوة من بني سعد ابن بكر، نلتمس بها الرضعاء – في سنة شهباء – فقدمت على أتان لي قمراء[١]، كانت أذمّت[٢] بالركب، ومعي صبي لنا، وشارِف لنا، والله ما ننام ليلنا ذلك أجمع مع صبينا ذلك، ما يجد في ثديي ما يغنيه، ولا في شارفنا ما يغذيه، فقدمنا مكة، فو الله ما علمت منا امرأة، إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ، فإذا قيل: إنه يتيم، تركناه وقلنا: ما عسى أن تصنع إلينا أمه؟ إنما نرجو المعروف من أب الولد، فأما أمه فماذا

(١) قال في النهاية: «أذمّت بالرّكب أي: حبستهم لضعفها وانقطاع سيرها» وقال قبله: «كأنّها حملت النّاس على ذمّها».

(٢) قال في النهاية: « أَقْمرُ: هو الشديد البياض. والأنْثَى قَمْراء».

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

عسى أن تصنع إلينا ؟ فوالله ما بقي من صواحباتي امرأة إلا أخذت رضيعاً غيري، فلما لم أجد غيره، قلت لزوجي الحارث ابن عبدالعزى: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحباتي ليس معي رضيع، لأنطلقنّ إلى ذلك اليتيم فلآخذنّه، فقال: لا عليك، فذهبت فأخذته، فوالله ما أخذته: إلا أني لم أجد غيره، فما هو إلا أن أخذته، فجئت به رحلي، فأقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب أخوه حتى روي، وقام صاحبي إلى شارفنا تلك، فإذا هي حافل، فحلب ما شرب وشربت حتى روينا، فبتنا بخير ليلة، فقال صاحبي: أما ترين ما بتنا به الليلة من الخير حين أخذناه ؟ فلم يزل الله عزّ وجلّ يزيدنا خيراً، ثم خرجنا راجعين إلى بلادنا، فوالله لقطعت أتاني الركب حتى ما يتعلق بها حمار، حتى إن صواحباتي ليقلن: ويحك يا بنت أبي ذؤيب، أهذه أتانك التي خرجت عليها معنا ؟ فأقول: نعم، فو الله إنها لهي، فيقلن: والله إن لها لشأناً، حتى قدمنا أرض بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله تعالى أجدب منها، فإن كانت غنمي لتسرح، ثم تروح شباعاً لبناً، فنحلب ما شئنا وما حولنا أحد تبض له شاة بقطرة لبن، وإن أغنامهم لتروح جياعاً، حتى إنهم ليقولون لرعاتهم: انظروا حيث تسرح غنم ابنة أبي ذؤيب، فاسرحوا معهم، فيسرحون مع غنمي حيث تسرح، يريحون أغنامهم جياعاً، وما فيها قطرة لبن، وتروح غنمي شباعاً لبناً، فنحلب ما شئنا، فلم يزل الله تعالى يرينا البركة، ونتعرفها حتى بلغ سنتين، فكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان، فوالله ما بلغ السنتين حتى كان غلاماً جفراً، فقدمنا به على أمه، ونحن أضن شيئاً به، مما رأينا فيه من البركة، فلما رأته أمه، قلنا لها: يا ظئر، دعينا نرجع بابننا هذه السّنّة الأخرى، فإنا نخشى عليه أوباء مكة، فوالله ما زلنا بها حتى قالت: فنعم، فسرحته معنا، فأقمنا به شهرين أو ثلاثة، فبينما هو خلف بيوتنا مع أخ له من الرضاعة في بهم لنا، جاءنا أخوه يشتد، فقال: أخي ذلك القرشي، قد جاءه رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاه فشقا بطنه، فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه، فنجده قائماً منتقعاً لونه، فاعتنقه أبوه وقال: أي بني، ما شأنك؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، أضجعاني فشقا بطني، ثم استخرجا منه شيئاً وطرحاه، ثم رداه كما كان، فرجعنا به معنا، فقال أبوه: يا حليمة، لقد خشيت أن يكون ابني قد أصيب، انطلقي بنا فلنرده إلى أهله قبل أن يظهر ما نتخوف، قالت: فاحتملناه، فلم ترع أمه إلا به، وقدمنا به عليها، فقالت: ما ردكما به ؟ فقد كنتما عليه حريصين، فقلنا: لا والله يا ظئر، إلا أن الله عزّ وجلّ قد أدى عنا، وقضينا الّذي علينا، وقلنا: نخشى الأتلاف والأحداث، فقلنا: نرده على أهله، فقالت: ما ذاك بكما ؟ فأصدقاني

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

شأنكما، فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره فقالت: أخشيتما عليه الشّيطان ؟ كلا، والله ما للشيطان عليه سبيل، وإنه لكائن لابني هذا شأن، ألا أخبركما خبره ؟ قلنا: بلى، قالت: حملت به، فما حملت حملاً قط أخف منه، ورأيت في النوم حين حملت به: كأنه خرج مني نور أضاءت له قصور الشام، ثم وقع حين ولدته وقوعاً ما يقعه المولود، معتمداً على يديه، رافعاً رأسه إلى السماء، فدعاه عنكما»[1].

❁❁❁

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (ح٦٣٣٥)، وأبو يعلى في المسند (ح٧١٢٧)، والطبراني في الكبير (١٢/ح٥٤٥)، وأبو نعيم في الدلائل (ص١١١)، والبيهقي في الدلائل (١/ ١٣٣)، وإسناده ضعيف، وقد روى جزءاً منه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني مختصراً (ح٣٤٧٠)، من وجه آخر.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

شق الصدر

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾

[الشرح:١]

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

شقّ الصدر

لم يكن النّبيّ ﷺ مخلوقا من مادة تختلف عن البشر، ولكن مهمّته الضّخمة تحتاج إلى تهيئة قلبية من جهتين:

الأولى: تهيئته ليكون قابلاً لاستقبال الوحي الرباني، فكلام الله تعالى والحكمة التي فيه تزاحمها أمراض القلوب مزاحمة عظيمة.

الثانية: أن يكون هذا القلب قادراً على السعة النفسية واحتواء الأتباع مهما بلغت ضراوة عنادهم وعداوتهم.

فكيف يكون نبيا من يجد الحقد والحسد والشح إلى قلبه سبيلاً ؟

روى مسلم عن أنس: أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طَسْت من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمَه ـ أي جمعه وضم بعضه إلى بعض ـ ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ـ يعنى ظئره ـ فقالوا: إن محمدًا قد قتل، فاستقبلوه وهو مُنْتَقِعُ اللون ـ أي متغير اللون ـ قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره[1].

وانظر كيف ربط بين أمراض القلب وكونها حظ الشيطان من ابن آدم.

وهذا القلب هو الّذي قال في غزوة أحد: اللهم اغفر لقومي فإنهم يعلمون..

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (ح١٦٢)

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وهو الذي رفض أن يطبق الملك على كفار مكة الأخشبين..

وهو الذي عفا عنهم يوم الفتح وقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء..

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

النبي الأمي

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾

[يس: ٦٩]

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

النّبيّ الأمّي

من المفارقات العجيبة أنّ النّبيّ ﷺ عاش في حاضرة وهي مكة، وكان فيها عدد ممن يجيد القراءة والكتابة، وكان في بيت الشرف والحسب، ومع كل ما تمتع به من قواه العقلية الراقية وقريحته النفاذة إلاّ إنّه عاش أمياً لم يقرأ ولم يكتب.

عجيب كل هذه الرعاية الأسرية وكل هذا الاهتمام ومع هذا لا يتعلم القراءة والكتابة؟

إنّها التهيئة الربانية منذ الأزل وإبعاد أيّة شبهة يمكن أن يتعلّق بها الشياطين لصدّ النّاس عن الوحي.

كذلك فإنّه لم يكن شاعرا مع رقة طبيعته وشفافية نفسه وقوته اللغوية الّتي لا تُبارى، وكان من دونَه مَن نظم الشعر قليله وكثيره لكنهّ ﷺ لم يكن خبيراً به أصلاً فضلاً عن نظمه، حتى إنّه كان يخطئ فيكسر بعض الأبيات الّتي يرددها لبعض الشعراء.

ذكر ابن هشام أن عباساً أتى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ أنت القائل:

فأصبح نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة

فقال أبو بكر: بين عيينة والأقرع

فقال رسول الله ﷺ: « **هما واحد** ».

فقال أبو بكر أشهد أنك كما قال الله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩].

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وروى ابن سعد عن الحسن البصري – رضي الله تعالى عنه – أن رسول الله ﷺ كان يتمثل بهذا:

كفى الإسلام والشيب للمرء ناهيا

فقال أبو بكر – رضي الله تعالى عنه –: « يا رسول الله إنما قال الشاعر: كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا »، ورسول الله ﷺ يقول: « **كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً** » فقال أبو بكر – رضي الله تعالى عنه – أشهد أنك رسول الله ما علمك الله الشعر وما ينبغي لك.

وهذا أيضا لو تلمحنا التهم التي وجهت إليه دليل على العناية الربانية المبكرة..

ومثل ذلك أنّه ﷺ رغم سلامته من أوضار مكة لم يكن بحاثة متتبعا للكتب كورقة ولا كزيد بن عمرو بل كان أمياً حقا من كل جهة تأكيداً للعناية حتى لا يُتهم بأخذ الوحي عن كتب سابقة وهذا ما قيل فعلاً لكنه سقط أمام حقيقة واقعِه وحياته الّتي عرفها بها أهل مكّة.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

أخلاقه ومروءته
قبل البعثة

« كلاّ أبشر، فواللّه لا يخزيك اللّه أبداً واللّه إنّك لتصل الرّحم وتصدق الحديث وتحمل الكلّ وتكسب المعدوم وتقري الضّيف وتعين على نوائب الحقّ »

خديجة رضي الله عنها

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

الخلق العظيم

تحلى النبيّ ﷺ بأرقى الأخلاق التي لم تزدها النّبوّة إلاّ شدّة.

فلا توجد خصلة يقدسها العرب ولا غير العرب إلاّ كانت متمثلة قائمة في شخصه الكريم ﷺ.

ولا توجد نقيصة أو مذمة ولو عند بعض الخلق إلاّ كان ﷺ بريئا مُبرئاً منها.

وهذه الصفات جِبِلّة جبَلَهُ الله عليها، وقد تقدّم كيف حفظه الله من معاصي الجاهلية الشرك وما دونه.

وهذا هو معنى الخلق العظيم الذي وصفه الله به في كتابه.

ووَصْفُ خُلُقِه بالعَظَمة له –في رأيي– مغزى غير الحسن والجمال، فالعادة أنّ الخلق يوصف بالحسن كقوله ﷺ: «أكمل المؤمنين أحسنهم خلقاً»[1]، أو الجمال.

أمّا أن يوصف بالعظمة ففيه تفخيم إضافي مردّه إلى منّة الله تعالى وجبلّته، بمعنى أنّه ﷺ اجتمعت فيه من الأخلاق ما يستحيل أن يكون اكتساباً ويستحيل أن يوجد في بشر غير نبيّ، ولهذا وصفه بالعظمة التابعة لعظمتين: عظمة الخالق الذي وهبه هذه الأخلاق وأدبه بها وزيّنه.. وعظمة النّبيّ ﷺ الّذي كان أهلاً لهذه الأخلاق بمنة الله عليه، ولهذا استحق ﷺ التعظيم والتوقير والتعزير.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٠ و٤٧٢ و٥٢٧)، وأبوداود (ح٤٦٨٢)، والترمذي (ح١١٦٢) وصححه الشيخ الألباني – رحِمَه الله – في الصحيحة (ح٢٨٤).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وهذه الأخلاق هي التي ألجمت المعاندين له وأسقطت كل دعاواهم ابتداء من الجنون إلى الكذب والكهانة وغير ذلك، فأربعون سنة من الكمال البشري في الأخلاق يستحيل أن يسقط أمام أي إغراء دنيوي مهما كان.

فالذي لم يكذب ولم يخن ويدّعي ويشعر ويتكهن ويجن في مراحل الصبا ونقص العقل البشري وفي حال الفقر والعوز لن يفعل ذلك بعد كمال العقل والغنى.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

زواجه من خديجة

« ما غِرت على امرأة ما غرت على خديجة، لكثرة ما رأيت رسول الله ﷺ يذكرها، ولقد أمره ربّه عزّوجلّ أن يبشّرها ببيت في الجنّة من قصب لا صخب فيه ولا نصب»

عائشة رضي الله عنها

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

إنّي رُزقتُ حبّها

مرةً أخرى يظهر أثر العناية الربانية.. هذه المرة في زواج النّبيّ ﷺ وتكوين البيت النّبوي.

كان بإمكانه ﷺ أن يتزوّج أجمل وأصغر الأبكار من نساء قريش، وعند الزهري في سيرته أن رسول الله ﷺ دخل على خديجة ليتحدث عندها فلما قام من عندها جاءت امرأة فقالت: خاطباً يا محمد ؟ فقال: كلا، فقالت: ولم ؟ فو الله ما في قريش امرأة وإن كانت خديجة إلا تراك كُفئاً لها.

كان رسول الله ﷺ بحاجة إلى المال، وبحاجة قبل ذلك إلى امرأة تقف إلى جانبه يأمن بها جبهته النفسية الداخلية، امرأة ذات عقل يغلب عاطفتها، وكذلك كانت خديجة، وكانت إلى ذلك صاحبة خبر عن الدين، إذ كانت قريبة لورقة بن نوفل، وهذا يعني أنّ زوجها حين ينزل عليه الوحي ويخبرها لن تصدم، بل لديها الاستعداد الثقافي لتقبل الأمر بل مساندته.

قصة زواجه من خديجة جميلة رائقة

ففي الخامسة والعشرين من عمره الشريف خرج رسول الله ﷺ تاجرًا إلى الشام في مال خديجة رضي الله عنها قال ابن إسحاق: كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قومًا تجارًا، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجرًا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

التجار، مع غلام لها يقال له: ميسرة، فقبله رسول الله ﷺ منها، وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام.

ولما رجع إلى مكة، ورأت خديجة في مالها من الأمانة والبركة ما لم تر قبل هذا، وأخبرها غلامها ميسرة بما رأى فيه ﷺ من خلال عذبة، وشمائل كريمة، وفكر راجح، ومنطق صادق، ونهج أمين، وجدت ضالتها المنشودة ـ وكان السادات والرؤساء يحرصون على زواجها فتأبى عليهم ذلك ـ فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منبه، وهذه ذهبت إليه ﷺ تفاتحه أن يتزوج خديجة، فرضي بذلك، وكلم أعمامه، فذهبوا إلى عم خديجة وخطبوها إليه، وعلى إثر ذلك تم الزواج، وحضر العقد بنو هاشم ورؤساء مضر، وذلك بعد رجوعه من الشام بشهرين، وأصدقها عشرين بَكْرة، وكانت سنها إذ ذاك أربعين سنة، وكانت يومئذ أفضل نساء قومها نسبًا وثروة وعقلاً، وهي أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت.

وإذا عرفنا كيف كان موقف خديجة حين أخبرها النّبيّ ﷺ بما حدث له في غار حراء عرفنا اللطف الرباني بالنّبيّ ﷺ إذ اختار له خديجة، حكت عائشة أنّه ﷺ قال لخديجة لما رجع من الغار: «**لقد خشيت على نفسي**» فقالت له: « **كلا، أبشر ؛ فو الله لا يحزنك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق**»[1].

فهذه السيدة العاقلة الفقيهة ثبّتت زوجها وقبلت قوله مباشرة ولم تحاول أن تناقشه فيه أو تتشكّك وتتردّد في قبوله، بل أقسمت أنّ الله لا يخيب ولا يخزي رجلا اتصف بكريم الخصال.. وهذا يدل على أنّ خديجة كان لها نوع تعلق بالله بعيداً عن خرافات الجاهلية..

إذ لو كانت من ذلك الصنف لبادرت بتفسير الحادث على أنّه مس من الجان أو طائف من الشيطان.

ثم انطلقت به مباشرة إلى ورقة.. وهذا أيضا يدل على أنّه كانت لها معرفة.

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي (ح٣)، ومسلم في الإيمان (ح٢٥٢).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وقد كان لها رضي الله عنها من المنزلة عنده ﷺ مالا يُقارب، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله – ﷺ – لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة، فيحسن عليها الثناء، فذكرها يوماً من الأيام، فأدركتني الغيرة فقلت: هل كانت إلاّ عجوزاً، فقد أبدلك الله عزّ وجلّ خيراً منها، فغضب حتى اهتزّ مقدّم شعره من الغضب، ثم قال: «**لا والله ما أخلف الله لي خيراً منها، وقد آمَنَت بي إذْ كفر بي الناس، وصدّقتني وكذبني الناس، وواستني من مالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عزّ وجلّ الأولاد منها، إذ حرمني أولاد النساء**» قالت عائشة رضي الله عنها: فقلت: بيني وبين نفسي لا أذكرها بسيئة أبداً»[(١)].

وعن عائشة رضي اللهّ عنها قالت: «ما غرت على امرأةٍ للنّبيّ ﷺ ما غرت على خديجة هلكت قبل أن يتزوّجني لما كنت أسمعه يذكرها وأمره اللهّ أن يبشّرها ببيتٍ من قصبٍ وإن كان ليذبح الشّاة فيهدي في خلائلها منها ما يسعهنّ»[(٢)].

وعنها كذلك قالت: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة فارتاح لذلك فقال: **اللهم هالة بنت خويلد**»[(٣)].

❁❁❁

(١) أخرجه بهذا السياق أحمد في المسند (٦/ ١١٧-١١٨)، والطبراني في الكبير (٢٣/ ح٢٢) من طريق مجالد ابن سعيد، والحديث أصله في صحيح البخاري (ح٣٨٢١) معلقاً ومسلم (ح٢٤٣٧) موصولاً من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة بدون قوله: «لا والله ما أخلف الله لي خيراً منها..» الخ، ويرى بعض العلماء ومنهم الشيخ الألباني أنّ النّبيّ – ﷺ – لم ينكر على عائشة قولها إنّ الله أبدله خيراً منها، وأنّ هذه الزيادة لم تثبت من طريق صحيح، وقد روى الإمام أحمد (٦/ ١٥٠و١٥٤) والحاكم (٢/ ٢٨٦) بسند على شرط مسلم أنّه – ﷺ – تمعّر وجهه وغضب من قولها ذلك، فهذا يحتمل إنكاره عليها، ويحتمل غضبه من تنقصها لها، وقد تكلم شيخ الإسلام على ذلك بفرض صحة الزيادة وبيّن أنّ كون خديجة كانت خيراً له – ﷺ – من كلّ نسائه لا يقتضي أنّها أفضل من عائشة، انظر السلسلة الضعيفة للألباني – رحِمَه الله – (ح٦٢٢٤) ومنهاج السنة لشيخ الإسلام (٤/ ٣٠١)، وفتح الباري لابن حجر (٧/ ١٤٠-١٤١).

(٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (ح٣٨١٦-٣٨١٨)، ومسلم في فضائل الصحابة (ح٢٤٣٤و٢٤٣٥).

(٣) أخرجه البخاري (ح ٣٨٢١)، ومسلم (ح ٢٤٣٧).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

إرهاصات الاصطفاء

« إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلّم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن»

رسول الله ﷺ

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

السّلام عليك أيّها النّبيّ

يبدو من بعض الوقائع أنّ النّبيّ ﷺ كان يحسّ بأنّه شخص غير عادي، كان يشعر بأنّ القدر يخبّئ له شيئاً.. الكون كلّه فيما أحسب كان يعرف أنّ النّبيّ المنتظر ﷺ حيّ يُرزق وأنّه يمشي في مناكب الأرض، الوحيد الذي لم يعلم هم الإنسُ والجن.

سلام الكائنات عليه: عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلّم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن**»[(١)].

الرؤيا الصالحة: عن عائشة رضي الله عنها أنّها قالت: «أوّل ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرّؤيا الصّادقة في النّوم، فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءته مثل فلق الصّبح»[(٢)].

فقد بدأ الوحي بمقدمات طويلة تهيئة لنفس النّبيّ ﷺ **لاستقبال أوّل اتصال للسماء بالأرض بعد عقود طويلة من الجفاء.**

فكان دونا عن الناس لا يرى رؤيا إلاّ تحققت وصدقت مثل فلق الصبح في بهائها ووضوحها.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (ح٢) ومسلم (ح ١٦٠).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وقد صحّ عنه ﷺ أنّ الرؤيا الصالحة جزء من ست وأربعين جزءاً من النبوة[1] فهذا يعني أنّ النّبيّ ﷺ قد دخل فعلاً في النبوة قبل أن ينزل عليه جبريل بالوحي.

وقد سبق أنّ النّبيّ ﷺ كان يُصرف عن لهو أهل الجاهلية ومعاصيهم.. ولا شكّ أنّ شخصاً مثل النّبيّ ﷺ في ذكائه وصفاء نفسه وفطنته وفراسته لم يكن لتمر عليه هذه الأحداث دون تأمّل وتفكّر فيها.. صحيح أنّه لم يعلم حقيقة الأمر حتّى فجأه الوحي، إلاّ أنّه بلا شك كان قد تهيّأ نفسياً لأمر عظيم يُراد له أو يُراد به.

(١) أخرجه البخاري (ح ٦٩٨٨) ومسلم (ح ٢٢٦٣).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

في غار حراء

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾

[الشورى: ٥٢]

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

خلوة مع السّماء

التأهيل النفسي لاستقبال الوحي

من حُسن صنيع الله به أنّ النبيّ ﷺ كان قد حُبّب إليه الخلاء، فكان من عادة النّبيّ ﷺ الذهاب إلى غار حراء وهو الآن يبعد عن مكة عدة أميال، وفي مكان موحش مقفر، يجلس فيه وحده ليالي عدّة، يتأمّل ويتحنّث قال أبو سليمان الخطّابيّ رحمه اللهّ: «حُبّبت العزلة إليه ﷺ لأنّ معها فراغ القلب، وهي معينةٌ على التّفكّر، وبها ينقطع عن مألوفات البشر، ويتخشّع قلبه».

غار حراء

ويبدو أنّه ﷺ كان يحاول مدّ حبل الوصل إلى السماء والإمساك بالحبل الذي انقطع من ملة أبيه إبراهيم من تلك البقايا الّتي بقيت منها والتي لا تشكل ديناً بالمعنى الحقيقي لا من حيث المعرفة بالله تعالى ولا من حيث الكيفية التي يتعلق العبد بها بمولاه ولا كيفية التخاطب معه.

فزيد بن عمرو بن نفيل الذي طوف وشرّق وغرّب بحثاً عن الدين الصحيح لم يكن يعرف غير أشياء عرفها بفطرته فامتنع عن أكل الميتة وشرب الخمر وعبادة الأصنام ووأد البنات وعلى ذلك كان ﷺ فيما يبدو.

بل كان لا يعرف إلاّ النظر إلى السماء ولا يعرف أين يتوجّه.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

والمكوث في مكان مقفر مظلم وحيداً لاشكّ أنّه رياضة روحية في غاية السموّ تعيد للعبد الصفاء والنقاء فهي نوع من التهيئة هذا من جهة.

ومن جهة أخرى تدل على الإلحاح والإصرار على الإمساك بطرف الحبل، والإصرار على استعطاف السّماء لتعاود علاقتها بالأرض.

كان ذلك منه بمثابة استسقاءٍ متواصلٍ للرّحمة أن تحل بالأرض، بعد السخط والمقت اللذين لاشكّ أنّ شخصية مثل النّبيّ ﷺ قد أدركها وأحسّ بها: قال ﷺ: « إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب »[1].

وكان اختياره ﷺ لهذه العزلة طرفاً من تدبير الله له ليعدّه لما ينتظره من الأمر العظيم، ففي هذه العزلة كان يخلو إلى نفسه، ويخلص من زحمة الحياة وشواغلها الصغيرة؛ ويفرغ لموحيات الكون، ودلائل الإبداع؛ وتسبح روحه مع روح الوجود؛ وتتعانق مع هذا الجمال وهذا الكمال؛ وتتعامل مع الحقيقة الكبرى وتمرن على التعامل معها في إدراك وفهم.

ولا بدّ لأيّ روح يراد لها أن تؤثر في واقع الحياة البشرية فتحولها وجهة أخرى.. لا بد لهذه الروح من خلوة وعزلة بعض الوقت، وانقطاع عن شواغل الأرض، وضجة الحياة، وهموم الناس الصغيرة التي تشغل الحياة.

لا بد من فترة للتأمل والتدبر والتعامل مع الكون الكبير وحقائقه الطليقة، فالاستغراق في واقع الحياة يجعل النفس تألفه وتستنيم له، فلا تحاول تغييره، أما الانخلاع منه فترة، والانعزال عنه، والحياة في طلاقة كاملة من أسر الواقع الصغير، ومن الشواغل التافهة فهو الذي يؤهل الروح الكبير لرؤية ما هو أكبر، ويدربه على الشعور بتكامل ذاته بدون حاجة إلى عرف الناس، والاستمداد من مصدر آخر غير هذا العرف الشائع!

وهكذا دبر الله لمحمد ﷺ وهو يعده لحمل الأمانة الكبرى، وتغيير وجه الأرض، وتعديل خط التاريخ.

---

(١) سبق ص (٥).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

دبر له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات. ينطلق في هذه العزلة شهراً من الزمان، مع روح الوجود الطليقة، ويتدبر ما وراء الوجود من غيب مكنون، حتى يحين موعد التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله.

قلتُ: وقد جاء في السيرة أنّه ﷺ كان قبل أن يوحى إليه يسمع أصواتاً ويرى أموراً، قال القاضي عياض: «وكذلك ما ورد في حديث السيرة ومبدأ الوحي من قوله ﷺ لخديجة « لقد خشيتُ على نفسي » ليس معناه الشك فيما آتاه الله بعد رؤية الملك ولكن لعلّه خشي أن لا تحتمل قوته مقاومة الملك وأعباء الوحي فينخلع قلبه أو تزهق نفسه، هذا على ما ورد في الصحيح أنه قاله بعد لقائه المَلَك، أو يكون ذلك قبل لقائه وإعلام الله تعالى له بالنبوة لأول ما عرضت عليه من العجائب وسلم عليه الحجر والشجر وبدأته المنامات والتباشير كما روى في بعض طرق هذا الحديث أن ذلك كان أولاً في المنام ثم أُري في اليقظة مثل ذلك تأنيساً له عليه السلام لئلا يفجأه الأمر مشاهدة ومشافهة فلا يحتمل لأول حالة بنية البشرية.

وفى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها: « **أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة، قالت ثم حبب إليه الخلاء، وقالت إلى أن جاءه الحق وهو في غار حراء**».

وعن ابن عباس: مكث النبي ﷺ بمكة خمس عشرة سنة يسمع الصوت ويرى الضوء، سبع سنين ولا يرى شيئاً، وثمان سنين يوحى إليه».

وقد روى ابن إسحاق عن بعضهم أن النبي ﷺ قال وذكر جواره بغار حراء، قال: «**فجاءني وأنا نائم فقال: اقرأ، فقلت: ما أقرأ ؟**» وذكر نحو حديث عائشة في غطّه له وإقرائه له (اقرأ باسم ربك) السورة قال: «**فانصرف عنّي وهببت من نومي كأنما صورت في قلبي ولم يكن أبغض إليّ من شاعر أو مجنون، قلت لا تحدث عنى قريش بهذا أبداً لأعمدنّ إلى حالق من الجبل فلأطرحنّ نفسي سنة فلأقتلنها: فبينا أنا عامد لذلك إذ سمعت مناديا ينادى من السماء يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل فرفعت رأسي فإذا جبريل على صورة رجل**» وذكر الحديث.

فقد بين في هذا أن قوله لما قال وقصده لما قصد إنما كان قبل لقاء جبريل عليهما السلام وقبل إعلام الله تعالى له بالنبوة وإظهاره واصطفائه له بالرسالة.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

ومثله حديث عمرو بن شرحبيل أنه ﷺ قال لخديجة: « **إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء وقد خشيت والله أن يكون هذا لأمر** » ومن رواية حماد بن سلمة أن النبي ﷺ قال لخديجة: « **إني لأسمع صوتا وأرى ضوءا وأخشى أن يكون بي جنون** » وعلى هذا يتأول لو صح قوله في بعض هذه الأحاديث إن الأبعد شاعر أو مجنون وألفاظا يفهم منها معاني الشك في تصحيح ما رآه وأنه كان كله في ابتداء أمره وقبل لقاء الملك له وإعلام الله له أنه رسوله فكيف وبعض هذه الألفاظ لا تصح طرقها »[1].

قلت: وهذا أمر لا يحتاج إلى إثبات، إذ يستحيل أن يختار الله شخصا لنبوّته ثم يفجأه بالتكليف قبل أن يتهيّأ له من حاله ما يقرّب له الأمر ويوطّن نفسه على تقبّل الوحي فإنّ نزول الوحي ورؤية جبريل أمر ليس بالهيّن فكان جديراً في حكمة الله الحكيم أن يكون لهذا الأمر بوادر ومقدمات.

❁❁❁

(١) الشفا (٢/ ١٠٣).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

المرحلة الثالثة:

من البعثة

إلى الهجرة

القول الثقيل:
المواجهة: الصبر

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣
أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾

[المزَّمل: ١-٥]

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

زائر الغار

انقطعت صلة الأرض بالسماء منذ قرون عدّة عديدة وجفّت الأرض، وتوقّف تاريخ النبوة والدعوة، وفي غار حراء دارت عجلة التاريخ من جديد عند أوّل اتصال للأرض بالسّماء، واهتزّت الأرض حين نزلت عليها أوّل قطرة متمثلة في أوّل كلمة: «**اقرأ**».

كانت تلك الليلة ليلة فاصلة في تاريخ البشريّة يوم نزول القرآن، وكان حدثاً مميزاً يستحق الإشادة والاحتفال اللائق به.. وهذا ما حدث فعلاً بعد ذلك حين شرع في الإسلام صوم رمضان وتعظيم العشر الأواخر وليلة القدر بالذات التي قال عنها القرآن إنّها خير من ألف شهر، وقال ﷺ: «**من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه**»[1].

وساق القرآن هذه الذكرى فقال: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[الدخان: ٦].

فالليلة ليلة مباركة باركها الرب في السماء وفي الأرض، وفيها يُفرق كل أمر حكيم ولهذا كانت وقتاً مناسباً لنزول الكتاب الفرقان كما سمّاه الله.

---

(١) أخرجه البخاري (ح ١٩٠١).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وفي تسميته بهذا إشارة مبكرة لواحد من أهمّ المآلات التي سيسير إليها الحراك الدعوي، ألا وهو المفارقة: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[الفرقان: ١] وكل الكتب السماوية كانت تتصف بهذا: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[البقرة: ٥٣].

ورغم ذلك المران العاطفي الروحي الذي مارسه النّبيّ ﷺ منذ سنوات قبل البعثة وهو يتحنّث في غار حراء إلاّ أنّ الصّدمة كانت قويّة للغاية..

ظهور جبريل عليه السلام.. ثمّ الغطّ ثلاث مرات والأمر بالقراءة ثم إسماعه أوّل الكلام الرباني: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[العلق: ٥].

كلّ هذا كان صدمة كبيرة للنّبيّ ﷺ أدخلت في نفسه الخوف والدهشة وصورت ذلك عائشة رضي الله عنها: «فرجع بها رسول اللّه ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلدٍ رضي اللّه عنها فقال: « زمّلوني زمّلوني »، فزمّلوه حتّى ذهب عنه الرّوع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسي»[1].

ثم لم يلبث النّبيّ ﷺ أن هدأ روعه وبدأ يتطلّع لهذه المهمة العظيمة التي عرف منذ أوّل وهلة أنّها ليست باليسيرة ولا السهلة بل هي مهمة سيكون لها تبعاتها.. وذلك منذ أن قال له ورقة: « هذا الناموس الذي أنزل على موسى يا ليتني أكون فيها جذعا أكون حيا حين يخرجوك قومك »، قال رسول الله ﷺ: « أو مخرجيّ هم ؟ » قال ورقة: «نعم لم يأت أحد قط بما جئت به إلا عودي، وأوذي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي»[2].

❁❁❁

(١) سبق (ص٦٥).

(٢) أخرجه البخاري (ح٦٩٨٢).

أوّل المؤمنين

كانت خديجة أوّل شخص يعلم بما حدث للنّبيّ ﷺ في غار حراء، وواضح من النصوص أنّها لم تتردّد لحظة ولم تتلكأ في التصديق بأنّ ما حدث للنبيّ ﷺ هو شيء كانت تنتظره وتترقّبه.

ولهذا لم تقف حائرة تسأل، ولم تحاول تشكيك النّبيّ ﷺ فيما رآه بأنّه ربما يكون وهماً أو خيالاً أو مسّ من الجان.

بل بادرت بمقولتها الشهيرة: « **كَلَّا أَبْشِرْ فَوَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ** ».

وبهذا سجّلت اسمها كأوّل مؤمن مصدق بالرّسالة.

ثمّ أسلم بعد ذلك رجلان ففي صحيح مسلم وغيره عن عمرو بن عبسة أنّه جاء إلى النّبيّ ﷺ وهو ما زال في مكة وقال ضمن ما قال له: « فمن معك على هذا ؟ قال: «**حُرٌّ وعبد**»، قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به»[١].

وفي صحيح البخاري عن عمار بن ياسر قال: رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلاّ خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر»[٢].

ومن أوائل المسلمين عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وبقية العشرة، وأمّا عمر فتأخر إسلامه قليلا عنهم.

---

(١) أخرجه مسلم (ح ٨٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (ح ٣٦٦٠).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وكان سعد بن أبي وقاص يقول: « **لقد رأيتني ثلث الإسلام** »[١].

أجمل القصص في السيرة هي تلك التي تحكي كيف أسلم بعض الصحابة، ولعل من أجمل تلك القصص قصة إسلام الفاروق عمر بن الخطاب و أسد الإسلام حمزة بن عبدالمطلب.

إسلام عمر

قال عمر بن الخطاب يوما لجلسائه: «أتحبون أن أعلمكم أول إسلامي ؟ قالوا: نعم، قال: كنت من أشد الناس على رسول الله – ﷺ – ؛ قال: فبينا أنا في يوم شديد الحر في الهاجرة، في بعض طرق مكة، إذ رآني رجل من قريش، فقال: أين تذهب يا ابن الخطّاب ؟ قال: فقلت: أريد هذا الرجل، فقال لي: عجبا لله يا ابن الخطّاب قد دخل عليك هذا الأمر في منزلك وأنت تقول هكذا ؟ قال: فقلت له: وما ذاك ؟ قال: أختك، فرجعت مغضباً، حتى قرعت عليها الباب قال: وكان رسول الله – ﷺ – إذا أسلم بعض من أسلم ممن لا شيء له ضم الرجل والرجلين والرجال ممن ينفق عليه قال: وقد كان ضم رجلين من أصحابه إلى زوج أختي قال: فلما قرعت الباب، قيل: من هذا ؟ قلت لهم: أنا عمر. قال: وقد كانوا جلوساً يقرءون كتاباً في أيديهم، فلما سمعوا صوتي قاموا، حتى اختفوا في مكان قال: وتركوا الكتاب على حاله قال: فلما فتحت لي أختي الباب قال: قلت: أي عدوة نفسها: أصبوت ؟ قال: وأرفع شيئاً في يدي، فأضرب به على رأسها، فسال الدم قال: فبكت، وقالت لي: يا ابن الخطّاب، ما كنت صانعاً فاصنعه، فإني قد أسلمت، قال: فدخلت، فجلست على السرير، فإذا بصحيفة وسط البيت قال: فقلت لها: ما هذه الصحيفة هاهنا ؟ فقالت لي: يا ابن الخطّاب دعها عنك، فإنك لا تغتسل من الجنابة، ولا تطهر، وهذا لا يمسه إلا المطهرون قال: فما زلت بها، حتى أعطتنيها قال: فنظرت فيها، فإذا فيها بسم الله الرحمن الرحيم فذعرت، وألقيت الصحيفة من يدي قال: ثم رجعت إلى نفسي فقرأت في الصحيفة: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[الحديد: ١] قال: فكلما مررت باسم من أسماء الله تعالى ذعرت، وألقيت الصحيفة من يدي قال: ثم رجعت إلى نفسي فأقرأ فيها حتى أبلغ: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴾[الحديد: ٧]، قال: فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمّدا رسول الله، فخرج القوم مبادرين وكبروا استبشاراً بذلك، وقالوا:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٢٦).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

أبشر يا ابن الخطّاب، فإنّ رسول الله – ﷺ – دعا يوم الاثنين، فقال: « اللهم أعز دينك بأحب هذين الرجلين إليك إما عمر وإما أبي جهل بن هشام » وإنا نرجو أن تكون دعوة رسول الله – ﷺ –، قال: فقلت لهم: دلوني على رسول الله – ﷺ –، أين هو ؟ فلما عرفوا الصدق دلوني عليه في المنزل الّذي هو فيه قال: فجئت حتى قرعت الباب قال فقيل: من هذا ؟ فقلت أنا عمر ابن الخطّاب قال: وقد كانوا علموا شدتي على رسول الله – ﷺ – ولم يعلموا بإسلامي، فما اجترأ أحد منهم أن يفتح لي الباب، حتى قال لهم رسول الله – ﷺ –: « افتحوا له فإن يرد الله به خيراً يهده » قال: ففتح لي الباب قال: فأدخلني رجلان بعضدي، حتى دنوت من رسول الله – ﷺ –، فقال لهم رسول الله – ﷺ –: « **أرسلاه** » فأرسلاني قال: فجلست بين يديه قال: فأخذ بمجامع قميصي، ثم قال لي: « **أسلم يا ابن الخطّاب، اللهم اهده** » قال: فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله قال: فكبر المسلمون تكبيرة سمعت في طرق مكة قال: وقد كانوا مستخفين قبل ذلك».

إسلام حمزة

كان رسول الله ﷺ جالساً عند الصفا، فمر به أبو جهل – لعنه الله – فشتمه وآذاه، وقال فيه ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله ﷺ، ومولاة لعبد الله بن جدعان القرشي التيمي في مسكن لها تسمع ذلك، ثم انصرف أبو جهل عنه فعمد إلى نادي قريش عند الكعبة فجلس معهم، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحاً قوسه راجعاً من قنصه، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لا يمر على ناد من أندية قريش إلا وقف وسلم. فلما مر بالمولاة – وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته – قالت له: يا أبا عمارة، لو رأيت اليوم ما لقي ابن أخيك من أبي الحكم بن هشام، وجده فآذاه وسبه، وبلغ به ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد. فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله تعالى به من كرامته، فخرج يسعى لم يقف على أحد مُغِذّاً لأبي جهل أن يوقع به فعلاً.

فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة عظيمة فقال: أتشتمه وأنا على دينه، أقول ما يقول؟ فاردد علي ذلك إن استطعت، فقام رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني والله سببت ابن أخيه سباً قبيحاً.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عزّ وامتنع، وأن حمزة سيمنعه، فكفُّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه ﷺ .

وفي قصة إسلام حمزة درس تربوي من خلال السبب الذي أسلم لأجله حمزة، إذ لا يدقّق الشرع كثيرا في السّبب الدافع للولوج في حالة الإسلام أو الإيمان، فقد يكون السّبب هو البحث عن شيء مفقود، وقد يكون الدافع الفضول وحب التغيير، وقد يكون السبب حالة نفسية إنسانية كالتعصب والغضب والحزن والفرح وغير ذلك.

لكن بعد أن يلج العبد أرض الهدى عليه أن يمحص في تلك الأسباب الجالبة له إلى دنيا السعادة والهدى، فيتخلص مما يخالف الشرع منها ويستبقي الموافق، وما كان فيه من شائبة خلّصه بالإخلاص.

إنّ كثيراً من تلك الأسباب أشبه ما تكون بصهريج الدفع الذي يتعلق به الصاروخ المنطلق للفضاء معاكسا لقوة الجاذبية، فهو قوة قاهرة تفوق قوى الجذب الّتي تمنع العبد من التغيير، لكن ما إن يخرج الصاروخ من الغلاف الجوي أو يكاد حتّى يتخلّص من ذلك الصهريج الّذي أصبح عبئا عليه ويبدأ بالاعتماد على قوته وطاقته الذاتية.

لكن كثيرا من الواجين أرض الهدى ينسون ذلك فيصطحبون معهم ذلك السّبب ويبقى حاضرا معهم دون التنبه إلى ما يشكله ذلك السبب وتلك النية الدافعة من عبء على الطاقة الإيمانية، بل قد يكون سببا في فسادها ومن ثمّ يحدث الانهيار والسقوط.

أسلم بعض الصحابة عصبية كحمزة رضي الله عنه.

وأسلم بعضهم لما وجد في الإسلام العزة التي افتقدها، ولهذا كان العبيد والمستضعفين هم أكثر وأوّل أتباع الرسل.

وأسلم بعضهم بحثا عن المال والغنى حتى قال بعضهم: يا قوم أسلموا فإن محمدا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

لكن ما إن تخالط بشاشة الإيمان القلوب الصادقة حتى يختفي ويضمحل ذلك السبب الدافع ويصبح القلب معتمدا بعد الله على ما يستمده من الطاقات الإيمانية الكامنة في كلّ منشط تعبدي ذهنيا كان أم حركيا، ظاهرا كان أم باطنا.

أمّا من استصحب أصل السبب واعتمد على قوته فإنّه إن سلم من الكفر فلا يسلم من النفاق، وإن سلم من النفاق فمكانه غالباً على شفا جرف هار، يقبع في المياه الضحلة وعلى حواف البستان.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

التمحيص

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾

[البقرة: ٢١٤]

ضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

التمحيص

التعذيب هو سنّة التّمحيص الّتي لا يمكن أن تمرّ دعوة حق إلاّ من بوابتها، والدعوة الّتي لا يُبتلى أصحابها في الله دعوةٌ فيها دخن، وما من نبيّ إلاّ جوبه وعودي وعُذّب هو وأصحابه، عن خبّاب بن الأرتّ قال: شكونا إلى رسول اللهﷺ وهو متوسّدٌ بردةً له في ظلّ الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال: « قد كان من قبلكم يؤخذ الرّجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصدّه ذلك عن دينه. واللهّ ليتمّنّ هذا الأمر حتّى يسير الرّاكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلاّ اللهّ والذّئب على غنمه، ولكنّكم تستعجلون»[١].

وقد كان أوّل من أسلم معهﷺ الضعفاء والنساء، ولما لقي أبو سفيان هرقل وسأله عن النّبيّﷺ كان فيما سأله: « فأشراف النّاس يتّبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقال أبو سفيان: بل ضعفاؤهم» ثمّ إنّ هرقل ذكر له السبب: «وسألتك: أشراف النّاس اتّبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أنّ ضعفاءهم اتّبعوه، وهم أتباع الرّسل»[٢].

ولهذا تسلّط كفار قريش على أتباعه فساموهم سوء العذاب، من أشهرهم عمار بن ياسر وأبوه وأمّه، وبلال بن رباح، وخباب بن الأرتّ.

---

(١) أخرجه البخاري (ح٦٩٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (ح٧).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وأمّا أصحابه فمن كان له عشيرةٌ تحميه امتنع بعشيرته وسائرهم تصدّوا له بالأذى والعذاب منهم عمّار بن ياسرٍ وأمّه سميّة وأهل بيته عذّبوا في اللّه وكان رسول اللّه ﷺ إذا مرّ بهم وهم يعذّبون يقول: « صبرًا يا آل ياسرٍ فإنّ موعدكم الجنّة »[1].

ومنهم بلال بن رباحٍ فإنّه عذّب في اللّه أشدّ العذاب فهان على قومه وهانت عليه نفسه في اللّه وكان كلّما اشتدّ عليه العذاب يقول: « أحدٌ أحدٌ» حتّى مرّ به أبو بكرٍ الصّدّيق رضي اللّه عنه يومًا، وهم يصنعون ذلك به وكانت دار أبي بكرٍ في بني جمحٍ فقال لأميّة بن خلفٍ ألا تتّقي اللّه في هذا المسكين؟ حتّى متى؟ قال: « أنت الّذي أفسدته فأنقذه ممّا ترى» ؛ فقال أبو بكرٍ، أفعلُ، عندي غلامٌ أسود أجلد منه وأقوى، على دينك، أعطيكه به، قال: « قد قبلت » فقال: « هو لك »، فأعطاه أبو بكرٍ الصّدّيق رضي اللّه عنه غلامه ذلك وأخذه فأعتقه[2].

وإذا كان الضعفاء نالهم التعذيب المباشر فإنّ الأقوياء ومنهم النّبيّ ﷺ نالهم الأذى الذي لا يقل في أثره عن التعذيب البدني، فالاستهزاء والسب والشتم والضرب والمكر والمضايقة في العبادة كل ذلك كان أمرا مستديما ينال من النّبيّ ﷺ وأصحابه.

ومن أشهر الوقائع: ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: ما رأيت رسول الله ﷺ دعا على قريش غير يوم واحد، فإنه كان يصلي ورهط من قريش جلوس وسلا جزور نحرت بالأمس قريباً فقالوا – وفي رواية فقال أبو جهل – من يأخذ سلا هذا الجزور فيضعه على كتفي محمد إذا سجد، فانبعث أشقاهم عقبة بن أبي معيط فجاء به فقذفه على ظهره ﷺ، فضحكوا وجعل بعضهم يميل إلى بعض والنبي ﷺ ما يرفع رأسه، وجاءت فاطمة رضي الله عنها فطرحته عن ظهره ودعت على من صنع ذلك.

---

(١) الإصابة لابن حجر في ترجمة ياسر.

(٢)وقيل غير ذلك، انظر صحيح البخاري (ح٣٧٥٥) و المصنف لعبدالرزاق (ح٢٠٤١٢) وتاريخ ابن عساكر (١٠/ ٤٤٤).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته رفع رأسه فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم دعا عليهم وكان إذا دعا دعا ثلاثاً وإذا سأل سأل ثلاثاً ثم قال: «**اللهم عليك بالملإ من قريش، اللهم عليك بأبي جهل وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عقبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط**» وذكر السابع فلم أحفظه.

فوالذي بعثه بالحق لقد رأيت الذين سمى صرعى ببدر ثم سحبوا إلى القليب قليب بدر غير أمية بن خلف فإنه كان رجلاً بادناً فتقطع قبل أن يبلغ به إليه (١).

وفي الصحيح عن عروة بن الزّبير قال سألت عبد اللهّ بن عمرٍو عن أشدّ ما صنع المشركون برسول اللهّ ﷺ قال رأيت عقبة بن أبي معيطٍ جاء إلى النّبيّ ﷺ وهو يصلّي فوضع رداءه في عنقه فخنقه به خنقًا شديدًا فجاء أبو بكرٍ حتّى دفعه عنه فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ (٢).

وقد كان بعض المسلمين يحميهم قومهم أمّا بقية المستضعفين وهم الأغلب فلم يكن لهم ناصر إلاّ الله تعالى، وقد زاد ذلك شدّة حتى بلغ الأمر ببعضهم إلى التجاوب مع ما يطلبه الكفار.

ولم يكُ ذلك إلاّ حكمةً من الله تعالى وتمحيصاً للمؤمنين الذين سيكون على عاتقهم حمل الدين وتبليغه للعالمين فهم النواة للمجتمع الإسلامي وهم القاعدة التي ترتكز عليها الدعوة ولا يجوز أن تكون هذه القاعدة غير مجربة لحال من الأحوال التي قد تمر على أيّ دعوة سواء من الشدّة أو الرّخاء.

ولهذا صَمَدَ مَن صمَد، وصبَر مَن صبر، وكان هؤلاء هم خامة الإسلام الذين حكى الله مثلهم حين قال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

---

(١) أخرجه البخاري (ح٢٤٠) ومسلم (ح١٧٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (ح٣٦٧٨).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

ومن الصور الجميلة قصة عمر رضي الله عنه في إسلامه قال: «كان الرجل إذا أسلم تعلق به أولئك الناس فيضربونه قال: فجئت إلى خالي فقرعت عليه الباب، وهو في منزله قال: فقال: من هذا ؟ قال: فقلت: عمر فخرج إلي قال: فقلت له: أعلمت أني قد أسلمت ؟ قال: أو فعلت ؟ فقلت: نعم، قد كان ذلك فقال لي: لا تفعل، ودخل البيت وأجاف الباب دوني ؛ قال: فذهبت إلى رجل من كبراء قريش، فناديته، فخرج إلي قال: فقلت له: أما علمت أني قد أسلمت ؟ قال: فقال: وفعلت ؟ فقلت: نعم قال: فقلت في نفسي ما هذا بشيء، أرى المسلمين يضربون وأنا لا أضرب، ولا يُقال لي شيء قال فقال لي رجل أتحب أن يعلم إسلامك ؟ قال: قلت: نعم فقال لي: إذا جلس الناس في الحجر، فأت فلاناً، فقل له فيما بينك وبينه: أشعرت أني قد أسلمت، فإنه قل ما يكتم السر قال: فجئت إليه وقد اجتمع الناس في الحجر، فقلت له: فيما بيني وبينه أشعرت أني قد أسلمت ؟ قال: فقال لي: وفعلت ؟ فقلت له: نعم قال: فنادى بأعلى صوته: إن عمر بن الخطّاب قد صبأ قال: فبادر إليّ أولئك الناس، فما زالوا يضربونني وأضربهم قال: فقال خالي ما هذا ؟ قالوا إنّ عمر قد صبأ، فقام على الحجر فنادى بصوته وأشار بكمه: ألا إنّي قد أجرت ابن أختي فلا يمسّه أحد قال: فنكصوا عني قال: وكنت لا أشاء أرى أحدا من المسلمين يضرب إلا رأيته قال: فقلت: ما هذا بشيء، أرى الناس يضربون ولا أضرب، ولا يصيبني شيء قال: فلما جلس الناس في الحجر جئت إلى خالي فقلت له أتسمع ؟ قال: أسمع فقلت له: جوارك عليك رد، قال: لا تفعل، قال: فقلت له: جوارك عليك رد، قال: فما شئت، قال: فما زلت أضرب وأضرب، حتى أظهر الله تعالى الإسلام».

عندما تورم وجه الصديق في الله

كان أصحاب رسول الله ﷺ قد اجتمعوا متخفين في دار الأرقم وكانوا تسعة وثلاثين رجلاً، ألح أبو بكر على رسول الله ﷺ في الظهور، فقال: يا أبا بكر، إنا قليل، فلم يزل يلح عليه حتى ظهر رسول الله ﷺ في نواحي المسجد، وقام أبو بكر في الناس خطيباً ورسول الله ﷺ جالس، وكان أول خطيب دعا إلى الله تعالى وإلى رسوله، فثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين يضربونهم في نواحي المسجد ضرباً شديداً ووُطيء أبو بكر وضرب ضرباً شديداً، ودنا منه عتبة بن ربيعة وأدخل إصبعه في عينه، وجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما بوجهه، وأثر ذلك على وجه أبي بكر رضي الله عنه حتى صار لا يُعرف.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وجاءت بنو تيم تتعادى، فأجلوا المشركين عن أبي بكر، وحمل أبو بكر في ثوب حتى أدخلوه بيته ولا يشكون في موته، فرجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا: والله لئن قتل أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة، ورجعوا إلى أبي بكر، وجعل أبوه أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجابهم آخر النهار فقال: ما فعل برسول الله ﷺ؟ فقالوا لأُمّ الخير: انظري تطعمينه شيئاً أو تسقينه إياه. فلما خلت به وألحت عليه جعل يقول: ما فعل برسول الله ﷺ؟ قالت: والله ما لي علم بصاحبك. قال: فاذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت إلى أم جميل فقالت: إن أبا بكر يسأل عن محمد ﷺ، قالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمداً، وإن تحبى أن أمضى معك إلى ابنك. فقالت: نعم. فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً، فرنت أم جميل وأعلنت بالصياح، وقالت: إن قوماً نالوا منك هذا لأهل فسق، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك.

قال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: هذه أمك تسمع، قالت: هو صالح سالم. قال: فأنى هو؟ قالت: في دار الأرقم. قال: فإن لله على ألا أذوق طعاماً ولا شراباً أو آتى رسول الله ﷺ. فأمهلنا حتى هدأت الرجل، وسكن الناس، خرجنا به يتكىء حتى أدخلناه على النبي ﷺ. فأكب عليه فقبله وأكب عليه المسلمون، ورق رسول الله ﷺ عليه رقة شديدة. فقال أبو بكر رضي الله عنه: بأبي أنت وأمي، ليس بي إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه امرأة برة بولدها، وأنت مبارك فادعها إلى الله تعالى، وادع لها عسى أن يستنقذها الله بك من النار، فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله عز وجل فأسلمت .

هذه صورة عجيبة، ومن أعجب ما فيها حسن استغلال أبي بكر للموقف إذ لم يفوت فرصة رقة أمّه وعطفها وحنقها على من آذاه، كما لم يفوت فرصة موقفه إذ لا شكّ أنّه في موقف يحبه الله ويحبه رسوله ﷺ قد أوذي في الله أذى شديدا ورقّ له قلب المصطفى ﷺ فطلب منه ﷺ أن يدعوها ويدعو لها فأسلمت رضي الله عنها.

وسنرى كيف سيفعل ذلك بأبيه في موقف لا حق رضي الله عنه وأرضاه.

ونحن حين نسوق هذه المرويات فيما لقيه النّبيّ ﷺ وأصحابه لا نريد فقط شحن النفس تجاه الكفار، ولا نريد مجرد زيادة التعاطف والمحبة للنبيّ ﷺ وأصحابه، وإنّما هدفنا كذلك أن يعرف الجيل المؤمن أنّ هذا الدين وصل إليه

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

فوق طريق شقّته برك من الدماء الزكية والأشلاء الطاهرة.. دين بُذل له الكثير والكثير حتى وصلنا، وحقّه علينا أن نحمله بقوة كما حُمل إلينا بقوّة.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

حصار الشعب

« إن بني هاشم وبني عبدالمطلب شيء واحد، إنهم
لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام »

النّبيّ ﷺ

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

حصار الشعب

زادت حيرة المشركين إذ نفدت بهم الحيل، ووجدوا بني هاشم وبني المطلب مصممين على حفظ نبيّ الله ﷺ والقيام دونه، كائنًا ما كان، فاجتمعوا في خيف بني كنانة من وادى المُحَصَّبِ فتحالفوا على بني هاشم وبني المطلب ألا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، ولا يجالسوهم، ولا يخالطوهم، ولا يدخلوا بيوتهم، ولا يكلموهم، حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق (ألا يقبلوا من بني هاشم صلحًا أبدًا، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل).

تم هذا الميثاق وعلقت الصحيفة في جوف الكعبة، فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب، مؤمنهم وكافرهم ـ إلا أبا لهب ـ وحبسوا في شعب أبي طالب، وذلك فيما يقال: ليلة هلال المحرم سنة سبع من البعثة. وقد قيل غير ذلك.

واشتد الحصار، وقطعت عنهم الميرة والمادة، فلم يكن المشركون يتركون طعامًا يدخل مكة ولا بيعًا إلا بادروه فاشتروه، حتى بلغهم الجهد، والتجأوا إلى أكل الأوراق والجلود، وحتى كان يُسمع من وراء الشعب أصوات نسائهم وصبيانهم يتضاغون من الجوع، وكان لا يصل إليهم شيء إلا سرًا، وكانوا لا يخرجون من الشعب لاشتراء الحوائج إلا في الأشهر الحرم، وكانوا يشترون من العير التي ترد مكة من خارجها، ولكن أهل مكة كانوا يزيدون عليهم في السلعة قيمتها حتى لا يستطيعون شراءها.

وكان رسول الله ﷺ والمسلمون يخرجون في أيام الموسم، فيلقون الناس، ويدعونهم إلى الإسلام، وقد أسلفنا ما كان يأتي به أبو لهب.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

نقض صحيفة الميثاق

مَرّ عامان أو ثلاثة أعوام والأمر على ذلك، وفي المحرم سنة عشر من النبوة نقضت الصحيفة وفك الحصار؛ وذلك أن قريشًا كانوا بين راض بهذا الميثاق وكاره له، فسعى في نقض الصحيفة من كان كارهًا لها.

وكان القائم بذلك هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي – وكان يصل بني هاشم في الشعب مستخفيًا بالليل بالطعام – فإنه ذهب إلى زهير بن أبي أمية المخزومى – وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب – وقال: يا زهير، أرضيت أن تأكل الطعام، وتشرب الشراب، وأخوالك بحيث تعلم ؟ فقال: ويحك، فما أصنع وأنا رجل واحد ؟ أما والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها، قال: قد وجدت رجلاً، قال: فمن هو ؟ قال: أنا. قال له زهير: ابغنا رجلاً ثالثًا.

فذهب إلى المطعم بن عدي، فذكره أرحام بني هاشم وبني المطلب ابني عبد مناف، ولامه على موافقته لقريش على هذا الظلم، فقال المطعم: ويحك، ماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد، قال: قد وجدت ثانيًا، قال: من هو ؟ قال: أنا. قال: ابغنا ثالثًا. قال: قد فعلت. قال: من هو ؟ قال: زهير بن أبي أمية، قال: ابغنا رابعًا.

فذهب إلى أبي البخترى بن هشام، فقال له نحوًا مما قال للمطعم، فقال: وهل من أحد يعين على هذا ؟ قال: نعم. قال: من هو ؟ قال زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدى، وأنا معك، قال: ابغنا خامسًا.

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد ؟ قال: نعم، ثم سمى له القوم، فاجتمعوا عند الحَجُون، وتعاقدوا على القيام بنقض الصحيفة، وقال زهير: أنا أبدأكم فأكون أول من يتكلم.

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير عليه حلة، فطاف بالبيت سبعًا، ثم أقبل على الناس، فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى، لا يباع ولا يبتاع منهم ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

قال أبو جهل ـ وكان في ناحية المسجد: كذبت، والله لا تشق.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

فقال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، مارضينا كتابتها حيث كتبت.

قال أبو البختري: صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها، ولا نقرّ به.

قال المطعم بن عديّ: صدقتما، وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها، وقال هشام بن عمرو نحوًا من ذلك.

فقال أبو جهل: هذا أمر قُضي بليل، وتُشُوِور فيه بغير هذا المكان.

وأبو طالب جالس في ناحية المسجد، إنما جاءهم لأن الله كان قد أطلع رسوله ﷺ على أمر الصحيفة، وأنه أرسل عليها الأرضة، فأكلت جميع ما فيها من جور وقطيعة وظلم إلا ذكر الله عز وجل، فأخبر بذلك عمه، فخرج إلى قريش فأخبرهم أن ابن أخيه قد قال كذا وكذا، فإن كان كاذبًا خلينا بينكم وبينه، وإن كان صادقًا رجعتم عن قطيعتنا وظلمنا، قالوا: قد أنصفت.

وبعد أن دار الكلام بين القوم وبين أبي جهل، قام المطعم إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا (باسمك اللهم)، وما كان فيها من اسم الله فإنها لم تأكله.

ثم نقض الصحيفة وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من الشعب.

عِبرة

وفي هذه القصّة عبرة عظيمة وهي أنّ الداعية لا يتأثّر وحده بمجابهة الأعداء، بل عليه أن يعلم أنّ أثر مواجهته سيطال كلّ من يمتّ إليه بصلة حتّى من لم يستجب له من قومه وأهله.

وفيها أيضاً أهمية الاستفادة من عناصر القوة المحايدة التي تتوافر بيد الداعية.

ففي مثال النّبيّ ﷺ كانت القرابة والعشيرة.

وفي واقعنا المعاصر هناك أدوات، منها النّظم الديموقراطية والليبرالية الحقيقية، التي وإن كنا نعتقد أنّها تخالف الإسلام من حيث المبدأ إلاّ أنّ فيها عنصر قوة يمكن أن يفيد منه الداعية لاتقاء كيد الأعداء، والاستفادة من هامش

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

الحرية المكفول فيها للناس فهذا يسهل له أمر دعوته من جهة ويسهّل الاستجابة له وممارسة الدين للأفراد من جهة أخرى.

وإذا كان النّبيّ ﷺ قد أبقى على رابطة الأسرة والعشيرة واستفاد منها فكذلك على من يعيش في بلاد ديموقراطية تكفل له حق الدعوة وحرية الممارسة أن يحترم قوانين تلك الدول وأن يشارك فيها بفعالية في أيّ نشاط لا يتعارض مع دينه.

ومن عبر حادثة الحصار أن رأى الجميع كيف اشترك الجميع في تحمل أعباء الدعوة وكيد العدوّ، فالنّبيّ ﷺ وأهله وعشيرته نالت في الحصار كما نال الآخرون، وليس كما نرى في الشاهد من يحرض على العنف ويزجّ بالأتباع في مواجهات انتحارية بينما يظلّ هو يوجّه من بعيد في ظل رغد من العيش.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

الأمن أولا

« واللّه ليتمّنّ هذا الأمر حتّى يسير الرّاكب من صنعاء إلى حضرموت
لا يخاف إلاّ اللّه أو الذّئب على غنمه ولكنّكم تستعجلون»

النبيّ ﷺ

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

الأمن أولاً

في الصحيح عن خبّاب بن الأرتّ قال شكونا إلى رسول اللهّ ﷺ وهو متوسّدٌ بردةً له في ظلّ الكعبة قلنا له: « ألا تستنصر لنا ألا تدعو اللهّ لنا » قال: «كان الرّجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشقّ باثنتين وما يصدّه ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظمٍ أو عصبٍ وما يصدّه ذلك عن دينه واللهّ ليتمّنّ هذا الأمر حتّى يسير الرّاكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلاّ اللهّ أو الذّئب على غنمه ولكنّكم تستعجلون»[1].

وفي رأيي أنّ النّبيّ ﷺ بجوابه هذا لا يرفض الدعاء لهم وإنّما يرفض نبرة اليأس والقنوط، ولهذا ذكرهم بأنّ هذا الذي أنتم فيه اختبار وامتحان قاس لكم لقيه من كان قبلكم، وإلاّ فدين الله تعالى منصور بكم أو بغيركم.

هذا الحديث العجيب تحدث فيه الجميع وغرف كلّ متكلم ومتخصص منه في إنائه؛ إذ فيه إشارات عجيبة، وتربية جادة، وإصرار على النجاح، وبشارة من الله تعالى بنصر نبيه ومن معه، لكن أهمّ ما شدّني فيه هو الجزء الذي أوردته أعلاه، لا من حيث صدق نبوءته ﷺ، ولا من حيث ثقته بالله، وإنّما من حيث إشارته القوية الّتي ربط فيها تمام الدين بنعمة الأمن.

(١) أخرجه البخاري (ح ٦٩٤٣).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

لم يجعل غاية تمام الدين أن يصلي الناس في المساجد، ولا أن يكون الحكم والسلطان في أيدٍ إسلامية، ولا غير ذلك مما يسعى كثير من الدعاة أفراداً وجماعات إلى بلوغه وتحقيقه بأي ثمن، بل جعل ارتباط تمام الدين بوجود الأمن، الذي يبلغ فيه الأمر أن يسير المسافر مسافات شاسعة لا يخشى قاطع طريق، ولا لصاً، ولا حواجز أمنية، ولا غير ذلك من الظواهر التي تؤشر على فقدان الأمن.

ربما يربط البعض المسألة بأن التزام شرائع الدين سبب في الأمن، وأنا أقول: إنّ هذا المعنى وإن كان صحيحاً بلا مرية، لكن لا بأس أن نأخذ العبرة مقلوبة، وهي أنّ أي عمل دعوي أو جهادي يؤدي إلى اختلال الأمن ونشر الخوف فإنّه عمل مدخول كلياً أو جزئياً؛ إذ هو يتناقض مع غاية عظمى إن لم تكن الأعظم من الدين والدعوة إليه.

الأمن نعمة يجب أن يحرص عليها الدعاة، حتى وإن كان المستفيد منها جميع الناس بمن فيهم الكفار، بل ولو افترضنا أنه سيستفيد منها جماعات التنصير أو غيرهم، أعني أنّ على الدعاة إلى الله بشتى أنواعهم أن يحرصوا على أي نظام يحقق الأمن بجوانبه المتعدّدة، وأن يتعاونوا على تحقيقه والمحافظة عليه، ولو مع من يتناقضون معهم ديناً أو فكراً أو فقهاً، ما دام هذا النظام يكفل للدعوة الإسلامية حريّتها؛ إذ لدينا يقين لا يتزعزع أنّ عناصر القوة في الإسلام هي حججه وبراهينه العقلية التي خاطب بها العقل البشري، وهذه الحجج والبراهين تسوق الناس إلى الدين سوقاً، وتأطرهم عليه أطراً إلاّ الشواذ منهم، وهذه الدعوة العقلية الشرعية تحتاج إلى جوّ من الطمأنينة والأمن لتعمل عملها، وأكبر مستفيد من حالة الأمن هي الدعوة الإسلامية؛ ففي حالة تكافؤ الفرص لا يوجد دعوة تحقق من المكاسب الشعبية والنخبوية مثلها، ولا يدانيها في ذلك أحد.

بل حتى مع فرض وجود حالة من الظلم السياسي أو غيره فإن الدعوة تسير سيرها وتقطف ثمارها، ولهذا نهت الشريعة عن المعارضات السياسية التي تؤدي إلى حمل السلاح أو زعزعة الأمن، وأمرت بالصبر على الظلم السياسي لا حفاظاً على كراسي الظلمة وتعاوناً مع الطغاة -كما يعبر البعض- وإنّما لما يؤدي إليه ذلك من إحداث حالة الفوضى والإخلال بالأمن، وهي حالة ترتكس الدعوة فيها إلى أدنى مستوياتها، فضلاً عما فيها من الفتنة والهرج.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

النظام السياسي الذي يحكم بغير شرع الله؛ سواء كان مسلماً أم غير مسلم إذا كان يحقق الأمن، ويساوي في الفرص بين المذاهب والأديان والتيارات في ممارسة الدين والدعوة إليه لا يجوز اختراق أمنه أو زعزعته حتى تحت مسمى الجهاد وفتح البلاد؛ فالدعوة الإسلامية قد تحقق من المكاسب في ظل مثل هذا النظام مثل ما يحققه السيف أو أكثر دون إراقة دم وضياع وقت وأموال غالية.

ولهذا لا عجب أن بلاداً كثيرة لم يضطر المسلمون إلى فتحها عسكرياً؛ إذ قبلت فيها الدعوة الإسلامية، حتى انتشر الإسلام فيها سلماً بلا قتال.

وإذا تأملت من حولك وجدت عدداً من البلاد الإسلامية تدور فيها حروب ويُزعزع فيها الأمن من قبل جماعات ترى أنّها تذود عن حمى الشريعة، تحت ذرائع متعددة، أكثرها وضوحاً محاربة أنظمة عميلة زرعتها القوى الاستعمارية، وآخرها ما كان في الصومال، حيث ما زالت حركات تقول إنها جهادية تصر على القتال وإطالة أمد المعاناة تحت مسمى الجهاد للعملاء.

ولو تأملنا الحقيقة لتبيّن أنّ ما يحدث أبعد ما يكون عن الجهاد.. إنه قتال وحسب، قتال من أجل القتال، قتال ليس له أمد ولا غاية ينتهي إليه، ولا يحمل برامج ولا رؤية ولا وعياً بحقيقة ما يدور حوله، حتى أصبح أقرب ما يكون إلى المحرقة التي تلتهم المزيد والمزيد من الطاقات والثروات والجهود والبشر.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

عام الحزن

« ما نالت مِنّي قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب»

النّبيّ ﷺ

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

عام الحزن

إذا كان مازال عالقاً ببالك ما لقيه أبو طالب وعشيرته وباقي أسرة النّبيّ ﷺ في الشعب من حصار استمر ثلاث سنوات ستعرف حقاً لماذا سمينا هذا العام بعام الحزن.

كان النّبيّ ﷺ طيلة الفترة الماضية مشمولاً بالعطف والحماية والرعاية من قبل شخصيتين مهمتين: إحداهما على دينه وهي خديجة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، وقد أمّنت له رعاية أسرية كريمة وكفته أمر المال.

والأخرى لم تكن على دينه وهو عمّه أبو طالب، الذي أمّن حماية في وسط يغلي الحقدُ في قلوب أفراده غيظا منه ﷺ وقد وصف الله ذلك فقال: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١].

وفاة أبي طالب

ألحّ المرض بأبي طالب، فلم يلبث أن وافته المنية، وكانت وفاته في رجب سنة عشر من النبوة، بعد الخروج من الشعب بستة أشهر. وقيل: توفي في رمضان قبل وفاة خديجة رضي الله عنها بثلاثة أيام.

وفي الصحيح عن المسيب: أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل، فقال: « **أي عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله** » فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، ترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزالا يكلماه حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: « **لأستغفرن لك ما لم**

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

أُنَهَ عنه »، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾[التوبة: ١١٣]، ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾[القصص: ٥٦].

ولا حاجة إلى بيان ما كان عليه أبو طالب من الحياطة والمنع، فقد كان الحصن الذي احتمت به الدعوة الإسلامية من هجمات الكبراء والسفهاء، ولكنه بقي على ملة الأشياخ من أجداده، فلم يفلح كل الفلاح.

ففي الصحيح عن العباس بن عبد المطلب، قال للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويغضب لك ؟ قال: « هو في ضَحْضَاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار »[1].

عبرة الهداية

كثيراً ما يتمنّى الواحد منّا أن لو كان موجوداً في عهده ﷺ، ظناً منه أنّ ذلك يعني لا محالة أنّه سيكون من صحابة رسول الله ﷺ، ويغفل قائل هذا أنّ الهداية ليست مربوطة بلقائه ﷺ، بل ها نحن نرى أقرب النّاس إليه يموت على الكفر رغم أنّه تبيّنت له معالم الحق.

بل إنّ ألدّ أعداء الدعوة كان عمّه الآخر أبو لهب، فالهداية هبة من الرحمن يهبها من يشاء من عباده، وكم من متأخّر حاز من الدرجات مالم يحزه متقدّم، وكم رجل عاش بين ظهراني صحابة رسول الله ﷺ يراه كل يوم ويصلي خلفه ويشمّ أنفاسه الطاهرة ويسمع كلامه الطيب ومع هذا يموت منافقاً، وكم من رجل عاش بعيداً عنه ﷺ زمنا أو مكاناً وبين ظهراني الكافرين ومع هذا يموت مؤمناً.

ومن عرف حال أبي طالب اعتبر به وسأل ربّه الهدى وتمام النّعمة بدخول الجنة والنجاة من النار بفضله المحض ومنّته الخالصة.

قال ابن القيم: «نجائب النجاة مهيأة للمراد وأقدام المطرود موثوقة بالقيود هبّت عواصف الأقدار في بيداء الأكوان فتقلّب الوجود ونَجَم الخيرُ، فلما ركدت الريح إذا أبو طالب غريق في لجة الهلاك، وسلمان على ساحل

(١) أخرجه البخاري (ح٣٨٨٣) ومسلم (ح٢٠٩).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

السلامة، والوليد بن المغيرة يقدم قومه في التيه، وصهيب قد قدم بقافلة الروم، والنجاشي في أرض الحبشة يقول: لبيك اللهم لبيك، وبلال ينادي: الصلاة خير من النوم، وأبو جهل في رقدة المخالفة»[١].

خديجة رضي الله عنها إلى رحمة الله

وبعد وفاة أبي طالب بنحو شهرين أو بثلاثة أيام ـ على اختلاف القولين ـ توفيت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها وكانت وفاتها في شهر رمضان في السنة العاشرة من النبوة، ولها خمس وستون سنة على أشهر الأقوال، ورسول الله ﷺ إذ ذاك في الخمسين من عمره.

إن خديجة كانت من نعم الله الجليلة على رسول الله ﷺ، بقيت معه ربع قرن تحن عليه ساعة قلقه، وتؤازره في أحرج أوقاته، وتعينه على إبلاغ رسالته، وتشاركه في مغارم الجهاد المر، وتواسيه بنفسها ومالها، يقول رسول الله ﷺ: « آمنت بى حين كفر بى الناس، وصدقتنى حين كذبني الناس، وأشركتنى في مالها حين حرمنى الناس، ورزقنى الله ولدها وحرم ولد غيرها »[٢].

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: أتى جبريل النبي ﷺ، فقال: « يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها، وبشرها ببيت في الجنة من قَصَبٍ لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبَ »[٣].

❁❁❁

(١) الفوائد (ص٧٣-٧٤).

(٢) سبق (ص٦٦).

(٣) أخرجه البخاري (ح ٣٨٢٠) ومسلم (ح ٢٤٣٢).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

الهجرة إلى الحبشة

« إن بالحبشة ملكاً لا يُظلم عنده أحد، فلو خرجتم
إليه حتى يجعل الله لكم فرجا »

النّبيّ ﷺ

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

الهجرة

بعد وفاة أبي طالب وخديجة بدأ الضغط يزيد من قبل الكفار على المؤمنين، فالأذى المتواصل جعل المؤمنين في حالة من الضيق حتى بدؤوا يطلبون من النّبيّ ﷺ تدخُّلاً ونصرة من السماء، كما سبق في حديث خباب.

ولّما رأى النّبيّ ﷺ ما وصل إليه حالهم أذن لهم بالهجرة إلى الحبشة بعد أن علم أنّ أَصْحَمَة النجاشي ملك الحبشة ملك عادل، لا يظلم عنده أحد.

خريطة توضح طريق الهجرة إلى الحبشة

وفي رجب سنة خمس من النبوة هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة. كان مكونًا من اثنى عشر رجلاً وأربع نسوة، رئيسهم عثمان بن عفان، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ.

كان رحيل هؤلاء تسللاً في ظلمة الليل ـ حتى لا تفطن لهم قريش ـ خرجوا إلى البحر ويمموا ميناء شعيبة، وقيضت لهم الأقدار سفينتين تجاريتين أبحرتا بهم إلى الحبشة، وفطنت لهم قريش، فخرجت في آثارهم، لكن لما بلغت إلى الشاطئ كانوا قد انطلقوا آمنين، وأقام المسلمون في الحبشة في أحسن جوار.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وفي السنة الخامسة بلغ المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة أن قريشًا أسلمت، فرجعوا إلى مكة في شوال من نفس السنة، فلما كانوا دون مكة ساعة من نهار وعرفوا جلية الأمر رجع منهم من رجع إلى الحبشة، ولم يدخل في مكة من سائرهم أحدٌ إلاّ مستخفيًا، أو في جوار رجل من قريش.

ثم اشتد عليهم وعلى المسلمين البلاء والعذاب من قريش، وسطت بهم عشائرهم، فقد كان صعب على قريش ما بلغها عن النجاشي من حسن الجوار، ولم ير رسول الله ﷺ بدا من أن يشير على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة مرة أخرى.

واستعدّ المسلمون للهجرة مرة أخرى، وعلى نطاق أوسع، ولكن كانت هذه الهجرة الثانية أشق من سابقتها، فقد تيقظت لها قريش وقررت إحباطها، بيد أن المسلمين كانوا أسرع، ويسر الله لهم السفر، فانحازوا إلى نجاشي الحبشة قبل أن يدركوا.

وفي هذه المرة هاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلاً إن كان فيهم عمار، فإنه يشك فيه، وثماني عشرة أوتسع عشرة امرأة.

كانت هجرة المسلمين إلى الحبشة قراراً ليس بالهين، فهو إعلان صريح بالتخلي عن الأرض والوطن والمال وحتى الأهل والعشيرة.

فهو في الحقيقة أوّل عقد بيع عقده المسلمون مع الله تعالى، وهو امتحان صعب قاس نجح فيه المسلمون وبجدارة، وكان في هذا كذلك رسالة قوية للمشركين أنّه لن يصدّنا عن هذا الدين والتمسك به شيء، ولهذا حاول المشركون أنّ يلاحقوهم حتّى في الحبشة.

مكيدة قريش بمهاجري الحبشة

عَزّ على المشركين أن يجد المهاجرون مأمنا لأنفسهم ودينهم، فاختاروا رجلين جلدين لبيبين، وهما: عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة ـ قبل أن يسلما ـ وأرسلوا معهما الهدايا المستطرفة للنجاشي ولبطارقته، وبعد أن ساق الرجلان تلك الهدايا إلى البطارقة، وزوداهم بالحجج التي يطرد بها أولئك المسلمون، وبعد أن اتفقت البطارقة أن يشيروا على النجاشي بإقصائهم، حضرا إلى النجاشي، وقدما له الهدايا ثم كلماه فقالا له:

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

أيها الملك، إنه قد ضَوَى إلى بلدك غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم؛ لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه.

وقالت البطارقة: صدقا أيها الملك، فأسلمهم إليهما، فليرداهم إلى قومهم وبلادهم.

ولكن رأي النجاشي أنه لا بد من تمحيص القضية، وسماع أطرافها جميعًا، فأرسل إلى المسلمين، ودعاهم، فحضروا، وكانوا قد أجمعوا على الصدق كائنًا ما كان، فقال لهم النجاشي: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني ولا دين أحد من هذه الملل ؟

قال جعفر بن أبي طالب – وكان هو المتكلم عن المسلمين –: أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل منا القوى الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام – فعدد عليه أمور الإسلام – فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاءنا به من دين الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك.

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه عليّ، فقرأ عليه صدرًا من: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أَخْضَلُوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة،

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يكادون – يخاطب عمرو بن العاص وصاحبه – فخرجا، فلما خرجا قال عمرو بن العاص لعبد الله بن أبي ربيعة: والله لآتينه غدًا عنهم بما أستأصل به خضراءهم، فقال له عبد الله بن أبي ربيعة: لا تفعل، فإن لهم أرحامًا وإن كانوا قد خالفونا، ولكن أصر عمرو على رأيه.

فلما كان الغد قال للنجاشي: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيمًا، فأرسل إليهم النجاشي يسألهم عن قولهم في المسيح ففزعوا، ولكن أجمعوا على الصدق، كائنًا ما كان، فلما دخلوا عليه وسألهم، قال له جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البَتُول.

فأخذ النجاشي عودًا من الأرض ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت بطارقته، فقال: وإن نَخَرْتُم والله.

ثم قال للمسلمين: اذهبوا فأنتم شُيُومٌ بأرضي – والشيوم: الآمنون بلسان الحبشة – من سَبَّكم غَرِم، من سبكم غرم، من سبكم غرم، ما أحب أن لي دَبْرًا من ذهب وإني آذيت رجلاً منكم، والدبر: الجبل بلسان الحبشة.

ثم قال لحاشيته: ردّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رَدَّ علي مُلْكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه.

قالت أم سلمة التي تروى هذه القصة: فخرجا من عنده مقبوحين مردودًا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

الوطن البديل

« قد رأيت دار هجرتكم أريت سبخة ذات
نخل بين لابتين»

النّبيّ ﷺ

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

إنّها طابة

في ظلّ التضييق والحصار والتعذيب تأكّد للنّبيّ ﷺ بعد محاولات مستمرة وحثيثة أنّ مكّة ليست مُهَيّئةً لاحتضان الدعوة ككيان سياسي، وأنّ أشرافها وزعماءها بعيدون عن الإيمان والاهتداء.

فبدأ التفكير في وطن بديل يحتضن الدعوة ويؤمن لها الوعاء السياسي الذي تستحقه وينبغي لها.

قال ربيعة بن عباد: « **رأيت رسول الله ﷺ سوق ذي المجاز يتبع الناس في منازلهم يدعوهم إلى الله عز وجل** »[١].

وروى أحمد وأصحاب السنن وصححه الحاكم من حديث جابر: « كان رسول الله يعرض نفسه على الناس بالموسم فيقول: **هل من رجل يحملني إلى قومه؟ فإن قريشا منعوني أن أبلغ كلام ربي** »[٢].

وذكر ابن إسحاق وغيرُه أنّ النبي ﷺ كان بعد موت أبي طالب قد خرج إلى ثقيف بالطائف يدعوهم إلى نصره، فلما امتنعوا منه رجع إلى مكة فكان يعرض نفسه على قبائل العرب في مواسم الحج، وذكر بأسانيد متفرقة أنه أتى كندة، وبني كعب، وبني حذيفة، وبني عامر بن صعصعة وغيرهم فلم يجبه أحد منهم إلى ما سأل.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٤١).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٩٠).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وقال موسى بن عقبة عن الزهري: فكان في تلك السنين – أي التي قبل الهجرة – يعرض نفسه على القبائل، ويكلم كل شريف قوم، لا يسألهم إلا أن يؤوه ويمنعوه، ويقول: «**لا أُكرِه أحداً منكم على شيء، بل أريد أن تمنعوا من يؤذيني حتى أبلغ رسالة ربي**»، فلا يقبله أحد بل يقولون: قوم الرجل أعلم به.

وأحب أن أتأمّل في قوله: « **لا أُكرِه أحداً منكم على شيء، بل أريد أن تمنعوا من يؤذيني حتى أبلغ رسالة ربي** »، فالنّبيّ ﷺ في أوّل الأمر كان يبحث عن نظام سياسي يكفل له الحماية، والحرية.

وهو أشبه ما يكون بالنظم الديموقراطية اليوم، ولا شكّ أنّه لو توفر له هذا الأمر فلن يُسمح له بأن يكون حاكماً، ولهذا قال إنه لا يريد أن يكره أحدا منهم على شيء من دينه وإنّما كان يبحث عن نظام يحميه ويؤمن له حريته في بث دعوته.

وفي هذا درس دعوي آخر: وهو أنّ الإسلام وإن كان نظاماً متكاملاً هدفه النهائي بسط أحكام الإسلام وفرضها إلاّ أنّه يقبل المرحليّة والتدرج في تحصيل مكاسبه.

ففي ظلّ بيئة تنعدم فيها حرية المعتقد ويُحارب التغيير بكل ضراوة يكون البحث عن بيئة فيها حرية وأمن – أو ما يُسمى الآن ديموقراطية – يكون هذا تفكيراً واقعياً وتعاملاً واقعياً لا يهمل المستقبل بل يستشرفه.

فالهروب من القمع والديكتاتورية نحو الديموقراطية ليس مخالفاً للشريعة ما دام هذا نوعاً من المرحلية يمارسها الدعاة والمصلحون.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

تهيئة الوطن البديل

كان ﷺ إزاء ما كان يلقى من أهل مكة من التكذيب والصد عن سبيل الله أنه كان يخرج إلى القبائل في ظلام الليل، حتى لا يحول بينه وبينهم أحد من أهل مكة المشركين.

وفي موسم الحج من سنة ١١ من النبوة خرج ليلة ومعه أبو بكر وعلى، فمَرّ على منازل ذُهْل وشيبان بن ثعلبة، وكلمهم في الإسلام. وقد دارت بين أبي بكر وبين رجل من ذهل أسئلة وردود طريفة، وأجاب بنو شيبان بأرجى الأجوبة، غير أنهم توقفوا في قبول الإسلام.

ثم مر رسول الله ﷺ بعقبة منى، فسمع أصوات رجال يتكلمون فعمدهم حتى لحقهم، وكانوا ستة نفر من شباب يثرب كلهم من الخزرج، وهم: أسعد بن زُرَارة وعوف بن الحارث بن رفاعة ابن عَفْراء ورافع بن مالك بن العَجْلان وقُطْبَة بن عامر بن حديدة وعُقْبَة بن عامر بن نابي وجابر بن عبد الله بن رِئاب.

وكان من سعادة أهل يثرب أنهم كانوا يسمعون من حلفائهم من يهود المدينة، إذا كان بينهم شيء، أن نبيًا من الأنبياء مبعوث في هذا الزمان سيخرج، فتتبعه، ونقتلكم معه قتل عاد وإرم.

فلما لحقهم رسول الله ﷺ قال لهم: من أنتم ؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: من موالي اليهود ؟ -أي حلفائهم- قالوا: نعم. قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه، فشرح لهم حقيقة الإسلام ودعوته، ودعاهم إلى الله عز وجل، وتلا عليهم القرآن. فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله يا قوم، إنه لَلنّبيّ الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فأسرعوا إلى إجابة دعوته، وأسلموا.

وكانوا من عقلاء يثرب، أنهكتهم الحرب الأهلية التي مضت قريبًا، والتي لا يزال لهيبها مستعرًا، فأمّلوا أن تكون دعوته سببًا لوضع الحرب، فقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

ولما رجع هؤلاء إلى المدينة حملوا إليها رسالة الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيه ذكر رسول الله ﷺ.

وكان من جراء ذلك أن جاء في الموسم التالي ـ موسم الحج سنة ١٢ من النبوة، يوليو سنة ٦٢١ م ـ اثنا عشر رجلاً، فيهم خمسة من الستة الذين كانوا قد التقوا برسول الله ﷺ في العام السابق ـ والسادس الذي لم يحضر هو جابر بن عبد الله بن رِئاب ـ وسبعة سواهم، وهم: معاذ بن الحارث، ابن عفراء وذَكْوَان بن عبد القيس من بني زُرَيْق وعبادة بن الصامت من بني غَنْم و يزيد بن ثعلبة من حلفاء بني غنم والعباس بن عُبَادة بن نَضْلَة من بني سالم وأبو الهَيْثَم بن التَّيِّهَان من بني عبد الأشهل وعُوَيْم بن ساعدة من بني عمرو بن عَوْف.

التقى هؤلاء برسول الله ﷺ عند العقبة بمنى فبايعوه بيعة النساء، أي وفق بيعتهن التي نزلت بعد الحديبية.

روى البخاري عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «**تعالوا بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفي منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به في الدنيا، فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله، فأمره إلى الله؛ إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه**»[1] قال: فبايعناه على ذلك.

وبعد أن تمت البيعة وانتهى الموسم بعث النبي ﷺ مع هؤلاء المبايعين أول سفير في يثرب؛ ليعلم المسلمين فيها شرائع الإسلام، ويفقههم في الدين، وليقوم بنشر الإسلام بين الذين لم يزالوا على الشرك، واختار لهذه السفارة شابًا من شباب الإسلام من السابقين الأولين، وهو مُصْعَب بن عُمَيْر العبدرى رضي الله عنه.

نزل مصعب بن عمير على أسعد بن زُرَارة، وأخذا يبثان الإسلام في أهل يثرب بجد وحماس، وكان مصعب يُعْرَف بالمقرئ.

ومن أروع ما يروى من نجاحه في الدعوة أن أسعد بن زرارة خرج به يومًا يريد دار بني عبد الأشهل ودار بني ظَفَر، فدخلا في حائط من حوائط بني ظفر، وجلسا على بئر يقال لها: بئر مَرَق، واجتمع إليهما رجال من المسلمين ـ

(١) أخرجه البخاري (ح ٣٨٩٢).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وسعد بن معاذ وأُسَيْد بن حُضَيْر سيدا قومهما من بني عبد الأشهل يومئذ على الشرك ـ فلما سمعا بذلك قال سعد لأسيد: اذهب إلى هذين اللذين قد أتيا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما، وانههما عن أن يأتيا دارَينا، فإن أسعد بن زرارة ابن خالتي، ولولا ذلك لكفيتك هذا.

فأخذ أُسيد حربته وأقبل إليهما، فلما رآه أسعد قال لمصعب: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه. وجاء أسيد فوقف عليهما متشتمًا، وقال: ما جاء بكما إلينا ؟ تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرا قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره، فقال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس، فكلمه مصعب بالإسلام، وتلا عليه القرآن. قال: فو الله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، في إشراقه وتهلله، ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله ؟ كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين ؟

قالا له: تغتسل، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين. فقام واغتسل، وطهر ثوبه وتشهد وصلى ركعتين، ثم قال: إن ورائي رجلاً إن تبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرشده إليكما الآن ـ سعد بن معاذ ـ ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد في قومه، وهم جلوس في ناديهم. فقال سعد: أحلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم.

فلما وقف أسيد على النادي قال له سعد: ما فعلت ؟ فقال: كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت.

وقد حدثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه ـ وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ـ لِيُخْفِرُوك. فقام سعد مغضبًا للّذي ذكر له، فأخذ حربته، وخرج إليهما، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيدًا إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتمًا، ثم قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة، لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمْتَ هذا مني، تغشانا في دارنا بما نكره ؟

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وقد كان أسعد قال لمصعب: جاءك والله سيد من ورائه قومه، إن يتبعك لم يتخلف عنك منهم أحد، فقال مصعب لسعد بن معاذ: أو تقعد فتسمع ؟ فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، قال: قد أنصفت، ثم ركز حربته فجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قال: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، في إشراقه وتهلّله، ثم قال: كيف تصنعون إذا أسلمتم ؟ قالا: تغتسل، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى ركعتين. ففعل ذلك.

ثم أخذ حربته فأقبل إلى نادى قومه، فلما رأوه قالوا: نحلف بالله لقد رجع بغير الوجه الذي ذهب به.

فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا، وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله. فما أمسى فيهم رجل ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة، إلا رجل واحد ـ وهو الأُصَيْرِم ـ تأخر إسلامه إلى يوم أحد، فأسلم ذلك اليوم وقاتل وقتل، ولم يسجد لله سجدة، فقال النبي ﷺ: « عمل قليلاً وأجر كثيرًا ».

وأقام مصعب في بيت أسعد بن زرارة يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد وخَطْمَة ووائل. كان فيهم قيس بن الأسلت الشاعر ـ وكانوا يطيعونه ـ فوقف بهم عن الإسلام حتى كان عام الخندق سنة خمس من الهجرة.

وقبل حلول موسم الحج التالى ـ أي حج السنة الثالثة عشرة ـ عاد مصعب بن عمير إلى مكة يحمل إلى رسول الله ﷺ بشائر الفوز، ويقص عليه خبر قبائل يثرب، وما فيها من مواهب الخير، وما لها من قوة ومنعة.

بيعة العقبة الثانية

في موسم الحج في السنة الثالثة عشرة من النبوة ـ يونيو سنة ٦٢٢ م ـ حضر لأداء مناسك الحج بضع وسبعون نفسًا من المسلمين من أهل يثرب، جاءوا ضمن حجاج قومهم من المشركين، وقد تساءل هؤلاء المسلمون فيما بينهم ـ وهم لم يزالوا في يثرب أو كانوا في الطريق: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف ؟

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

فلما قدموا مكة جرت بينهم وبين النبي ﷺ اتصالات سرية أدت إلى اتفاق الفريقين على أن يجتمعوا في أوسط أيام التشريق في الشعب الذي عند العقبة حيث الجمرة الأولى من منى، وأن يتم الاجتماع في سرية تامة في ظلام الليل.

ولنترك أحد قادة الأنصار يصف لنا هذا الاجتماع التاريخي الذي حول مجرى الأيام في صراع الوثنية والإسلام. يقول كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه:

خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حَرَام أبو جابر، سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا ـ وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا ـ فكلمناه وقلنا له: يا أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبا للنار غدًا. ثم دعوناه إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة، قال: فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيبًا.

قال كعب: فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ، نتسلل تسلل القَطَا، مستخفين، حتى اجتمعنا في الشِّعْب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، وامرأتان من نسائنا؛ نُسَيْبَة بنت كعب ـ أم عُمارة ـ من بني مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو ـ أم منيع ـ من بني سلمة.

فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا، ومعه عمه: العباس بن عبد المطلب ـ وهو يومئذ على دين قومه ـ إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له، وكان أول متكلم.

بداية المحادثة وتشريح العباس لخطورة المسئولية

وبعد أن تكامل المجلس بدأت المحادثات لإبرام التحالف الديني والعسكري، وكان أول المتكلمين هو العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، تكلم ليشرح لهم ـ بكل صراحة ـ خطورة المسئولية التي ستلقى على كواهلهم نتيجة هذا التحالف. قال: يا معشر الخزرج ـ وكان العرب يسمون الأنصار خزرجًا، خزرجها وأوسها كليهما ـ إن محمدًا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبي إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مُسْلِمُوه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده.

قال كعب: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

وألقى رسول الله ﷺ بعد ذلك بيانه، ثم تمت البيعة.

وقفة

كانت البيعة الأولى بمثابة العقد المبدئي، وهذه البيعة هي العقد النهائي، وهي البيعة الكبرى، ولهذا جاء فيها تحديد الوضع النهائي للعلاقة بين النّبيّ ﷺ وبين الأنصار وهي علاقة مبنية على السمع والطاعة المطلقة.

وعلى البذل المطلق في العسر واليسر.

وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وعلى أن النصرة إذا قدم إليهم وأن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم.

والثمن مقابل كلّ ذلك هو الجنّة ولا غير.

وتأثير هذه البنود كان واضحا جليا في تصرف النّبيّ ﷺ مع الأنصار، فكان حريصا على أن يحميهم من الدنيا ومن ثوابها وأن يخلص لهم ثواب الآخرة، وحدث في ذلك حادث، فعن عبد اللهّ بن زيد بن عاصمٍ قال: «لمّا أفاء اللهّ على رسوله ﷺ يوم حنينٍ قسم في النّاس في المؤلّفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئًا فكأنّهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب النّاس فخطبهم فقال:«**يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم اللهّ بي وكنتم متفرّقين فألّفكم اللهّ بي وعالةً فأغناكم اللهّ بي**» كلّما قال شيئًا قالوا :اللهّ ورسوله أمنّ، قال:«**ما يمنعكم أن تجيبوا رسول اللهّ ﷺ**»قال: كلّما قال شيئًا قالوا اللهّ ورسوله أمنّ قال:« **لو شئتم قلتم جئتنا كذا وكذا، أترضون أن يذهب النّاس بالشّاة والبعير وتذهبون بالنّبيّ ﷺ إلى رحالكم، لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار ولو سلك النّاس واديًا وشعبًا لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعارٌ والنّاس دثارٌ إنّكم ستلقون بعدي أثرةً فاصبروا حتّى تلقوني على الحوض**».

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

فقد بين لهم أنّ هذا التعامل سيستمرّ وأنّهم سيجدون أثرة أي سيُمنع عنهم المال ويستأثر به قوم آخرون فأمرهم بالصبر حتى يلقَوْه على الحوض.

و عن أنس رضي الله عنه قال: جمع رسول الله ﷺ ناسا من الأنصار فقال: «**إن قريشاً حديث عهدهم بجاهلية ومصيبة وإني أردت أن أجبرهم وأتألّفهم أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله ﷺ إلى بيوتكم ؟**» قالوا: بَلى».

وطن دائم

وفي أثناء البيعة قال أبو الهيثم بن التَّيِّهَان: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنا قاطعوها ـ يعنى اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله إن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

قال: فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: « **بل الدَّمُ الدَّمُ، والهَدْمُ الهَدْمُ، أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم** ».

وهذا تأكيد على أنّ المدينة كانت وطنا دائماً للدعوة وخاصة الثلة المؤمن السابقة للإسلام، حتّى إنّه ﷺ حرم عليهم الرجوع إلى مكة حتى بعد استقرار الأمر لهم، فعن السائب بن يزيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **للمهاجر إقامة ثلاثة بعد الصدر بمكة** » كأنه يقول لا يزيد عليها، قال النووي: « عنى الحديث أن الذين هاجروا من مكة قبل الفتح إلى رسول الله ﷺ حرم عليهم استيطان مكة والإقامة بها ثم أبيح لهم إذا وصلوها بحج أو عمرة أو غيرهما أن يقيموا بعد فراغهم ثلاثة أيام ولا يزيدوا على الثلاثة ».

وكلّ هذا تأكيد على قطع العلاقة بمكة كوطن بالنسبة للقاعدة التي احتوت الإسلام كدين وحملته فحرص النّبيّ ﷺ على أن تنتقل كلّها وتعيش في مكان واحد، وكذلك ظلوا طيلة حياة النّبيّ ﷺ لا يخرج منهم أحد عن ذلك إلاّ أن يرسله النّبيّ ﷺ.

إنّه أشبه بالحكومة الدائمة التي تنتقل كلّها وتبقى على اتصال وتواصل إذ تطبق برنامجا واحداً، كما أنّ ذلك يزيل عن أنفس المهاجرين ما يمكن أن يتسلّل إلى قلوبهم من الوحشة بسبب مفارقة الأهل والوطن، وقد بدا ذلك جليا

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

في بدو الأمر، فعن عائشة رضي اللّه عنها قالت لمّا قدم رسول اللّه ﷺ المدينة وعك أبو بكرٍ وبلالٌ فكان أبو بكرٍ إذا أخذته الحمّى يقول:

كلّ امرئٍ مصبّحٌ في أهله... والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلالٌ إذا أقلع عنه الحمّى يرفع عقيرته يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلةً... بوادٍ وحولي إذخرٌ وجليل

وهل أردن يومًا مياه مجنّةٍ... وهل يبدون لي شامةٌ وطفيل

قال اللّهمّ العن شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأميّة بن خلفٍ كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء فلما رأى رسول الله ﷺ شكوى أصحابه قال: « **اللّهمّ حبّب إلينا المدينة كحبّنا مكّة أو أشدّ اللّهمّ بارك لنا في صاعنا وفي مدّنا وصحّحها لنا وانقل حمّاها إلى الجحفة** ».

التأكيد من خطورة البيعة

وبعد أن تمت المحادثة حول شروط البيعة، وأجمعوا على الشروع في عقدها قام رجلان من الرعيل الأول ممن أسلموا في مواسم ستي ١١ و ١٢ من النبوة، قام أحدهما تلو الآخر؛ ليؤكدا للقوم خطورة المسئولية، حتى لا يبايعوه إلا على جلية من الأمر، وليعرفا مدى استعداد القوم للتضحية، ويتأكدا من ذلك.

قال ابن إسحاق: لما اجتمعوا للبيعة قال العباس بن عبادة بن نَضْلَة: هل تدورن علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس. فإن كنتم ترون أنكم إذا نَهَكَتْ أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلا أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة. وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نَهْكَة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة.

قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك ؟ قال: « الجنة ». قالوا: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وفي رواية جابر قال: فقمنا نبايعه، فأخذ بيده أسعد بن زرارة ـ وهو أصغر السبعين ـ فقال: رويدا يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم تصبرون على ذلك فخذوه، وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو أعذر لكم عند الله.

عقد البيعة

وبعد إقرار بنود البيعة، وبعد هذا التأكيد والتأكد بدأ عقد البيعة بالمصافحة، قال جابر ـ بعد أن حكى قول أسعد بن زرارة ـ قال: فقالوا: يا أسعد، أمِطْ عنا يدك. فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقيلها.

وحينئذ عرف أسعد مدى استعداد القوم للتضحية في هذا السبيل وتأكد منه ـ وكان هو الداعية الكبير مع مصعب بن عمير ـ فكان هو السابق إلى هذه البيعة. قال ابن إسحاق: فبنو النجار يزعمون أن أبا أمامة أسعد بن زرارة كان أول من ضرب على يده. وبعد ذلك بدأت البيعة العامة، قال جابر: فقمنا إليه رجلاً رجلاً فأخذ علينا البيعة، يعطينا بذلك الجنة.

وأما بيعة المرأتين اللتين شهدتا الوقعة فكانت قولاً. ما صافح رسول الله ﷺ امرأة أجنبية قط.

وهذه البيعة هي نواة الدولة الإسلامية، ففيها تمت مبايعة الإمام وهو النّبيّ ﷺ، وفيها تمّ تعيين أوّل وزراء بلا وزارات، فبعد أن تمت البيعة طلب رسول الله ﷺ أن يختاروا اثنى عشر زعيمًا يكونون نقباء على قومهم، يكفلون المسئولية عنهم في تنفيذ بنود هذه البيعة، فقال للقوم: أخرجوا إليّ منكم اثنى عشر نقيبًا ليكونوا على قومهم بما فيهم.

فتم اختيارهم في الحال، وكانوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ولما تم اختيار هؤلاء النقباء أخذ عليهم النبي ﷺ ميثاقًا آخر بصفتهم رؤساء مسئولين.

قال لهم: « **أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي** » ـ يعنى المسلمين ـ قالوا: نعم.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

بيان الوطن البديل

بعد أنّ تأكّد للنّبيّ ﷺ أنّ المدينة قد أصبحت مهيّئة لاحتضان الدّعوة ورعايتها سياسياً وعسكرياً واقتصادياً أعلن عنها داراً للهجرة ومقصداً للاستيطان الدائم، روى البخاري عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ للمسلمين: « **أُرِيتُ دار هجرتكم، ذات نخل بين لابَتَيْن**» وهما الحرّتان، فهاجر من هاجر قبل المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة، وتجهز أبو بكر قبل المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: « **على رِسْلِك، فأني أرجو أن يؤذن لي**». فقال له أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت ؟ قال: «**نعم**»، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السَّمَر ـ وهو الخَبَطُ ـ أربعة أشهر.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

أحاديث الهجرة

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾

[النحل: ٤١]

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

خروج بلا عودة

كما قال عبدالمطلب لأبرهة: « للبيت رب يحميه »، كذلك قال ﷺ بلسان حاله لا بمقاله حين هاجر من مكة وترك لكفار قريش أقدس بقعة، بل هي مهوى أفئدة المسلمين وقبلتهم، ولسان حاله في كل هذا: « **للبيت رب يحميه** »، فالدرس هنا أنّ الدعوة لا يجوز أن تكون رهناً لبقعة ما تحت أي ذريعة، بل يجب على الداعية أن يتحرر من قيود المكان إذا ضاقت عليه الأرض، هذا إذا كان في الأرض التي سيهاجر إليها ما ليس في الأولى لا أن يذهب باحثاً عن رغد العيش ويترك الأتباع والضعفاء في ضَنكِه وشدّته كما يفعل البعض هذه الأيام.

والحديث عن هجرة النّبيّ ﷺ وما فيها من عبر لا ينتهي، بل نفس الهجرة في ذاتها عبرة، وفيها مرويات كثيرة بعضها يصح وبعضها لا بأس به، ولنستمع لعائشة تقص علينا حديث الهجرة، فعن عروة، قال: قالت عائشة: « لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يأتِ علينا يوم إلاّ ورسول الله ﷺ يأتينا طرفي النهار غدوة وعشية.. فبينا نحن جلوس في بيتنا في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ مقبلاً متقنعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها، قال أبو بكر رضي الله عنه: « فداءَ له أبي وأمي إن جاء به في هذه الساعة لأمر »، قالت عائشة: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن، فأذن له، فدخل، فقال رسول الله ﷺ حين دخل لأبي بكر: « **أخرِج من عندك** » فقال أبو بكر: إنّما هم أهلُك بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: « **إنّه قد أُذن لي في الخروج** » فقال أبو بكر رضي الله عنه: الصُّحبة بأبي أنت قال رسول الله ﷺ: « **نعم** » فقال أبو بكر: « فخُذ بأبي أنت يا رسول الله، إحدى راحلتي هاتين »، فقال رسول الله ﷺ: «**بالثمن**» قالت: فجهّزناهما أحثّ الجهاز، وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

قطعة من نطاقها فأوكت به الجراب، فلذلك كانت تُسمّى ذات النطاقين، ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل يقال له: «ثور» فمكثا فيه ثلاثَ ليالٍ يبيت عندهما عبد الله ابن أبي بكر، وهو غلام شاب، لقِن ثَقِف، فيدخلهم من عندهم السّحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمراً يُكادان به إلاّ وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منيحة من غنم، فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبتان في رسلهما، حتى ينعق بهما عامر بن فهيرة بغلس، يفعل ذلك كلّ ليلة من تلك الليالي واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه رجلاً من بني الديل، ثم من بني عبد بن عدي هادياً خِرّيتاً، والخريت: الماهر في الهداية، قد غمس يده في حلف العاص بن وائل وهو على دين كفار قريش، فأمناه ودفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاثَ ليالٍ، فأتاهما براحلتيهما صبيحة الليالي الثّلاث، فارتحل، فانطلق معهم عامر ابن فهيرة مع أبي بكر والدليل، وأخذ بهم طريق (أذاخر) وهي طريق الساحل»[1].

وقد أظهر أبو بكر في الهجرة أخوّة ومحبّة وفدائية وتضحية لا مثيل لها، ويكفي أنّه كان صاحبا لرجل يطلبه أهل الكفر في كلّ مكان فالموت يلاحقه أنّى توجّه، ولهذا استحقّ أن يذكره الله تعالى في كلام يُتلى إلى يوم القيامة تخليداً لموقفه الفريد، قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾[التوبة: ٤٠].

عن ابن سيرين قال: كان رجلٌ على عهد عمر كأنّهم فضّلوا عمر على أبي بكر فقال عمر: «والله لَلَيْلَةٌ من أبي بكر خير من آل عمر، ولَيَوْمٌ من أبي بكر خير من آل عمر، لقد انطلق رسول الله ﷺ ليلة انطلق إلى الغار ومعه أبو بكر، فجعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه حتّى فطن به رسول الله ﷺ فقال: «**يا أبا بكر ما شأنك تمشي ساعة بين يدي وساعة خلفي؟**» قال: يا رسول الله، أذكر الطّلب فأمشي خلفك، ثمّ أذكر الرّصد فأمشي بين يديك، فقال: «**يا أبا بكر إذاً لو كان شيء أحببت أن يكون بك دوني؟**» قال: نعم، والّذي بعثك بالحقّ ما

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (ح٣٩٠٥).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

كانت لتكون من ملمة إلاّ أحببت أن تكون بآل أبي بكر دونك، قال: فلمّا انتهى إلى الغار قال: مكانك يارسول الله حتّى أستبرئ الغار لئلاّ يكون فيه سبع، قال: فدخل فاستبرأه ثمّ صعد حتّى إذا كان في أعلاه ذكر أنّه لم يستبرئ لآخره، فقال: يارسول الله مكانك حتّى أستبرئ لآخره فدخل فاستبرأها ثمّ قال: ادخل يارسول الله، فقال عمر: والّذي نفسي بيده لتلك الليلة خير من آل عمر »[١].

قصة سراقة

عن أبي إسحاق عن البراء قال: اشترى أبو بكر من عازب رحلاً بثلاثة عشر درهما فقال أبو بكر لعازب مُر البراء فليحمل إليّ رحلي، فقال له عازب: ألا تحدثنا: كيف صنعت أنت ورسول الله ﷺ حين خرجتما والمشركون يطلبونكما ؟ فقال: أدلجنا من مكة فأحيينا ليلتنا ويومنا حتى أظهرنا وقام قائم ظهيرة فرميت بصري هل أرى من ظل فآوي إليه فإذا أنا بصخرة فانتهيت إليها فإذا فيها ظل لها، قال: فنظرت بقية ظلها سويته ثم فرشت لرسول الله ﷺ فيه فروة ثمّ قلت له: اضطجع يا رسول الله فاضطجع ثم ذهبت أنفض ما حولي هل أرى أحدا من الطلب ؟ فإذا أنا براعٍ يسوق غنمه إلى الصخرة يريد منها الّذي أريد – يعني الظل – فسألته قلت: لمن أنت يا غلام ؟ قال: لرجل من قريش سماه فعرفته، قلت هل في غنمك من لبن ؟ قال: نعم فقلت: هل أنت حالب لي ؟ قال: نعم، فأمرته فاعتقل شاة من غنمه ثم أمرته أن ينفض ضرعها من الغبار ثم أمرته أن ينفض كفيه فحلب لي كثبة من لبن وقد بردت معي لرسول الله ﷺ إداوة على فمها خرقة فصببت على اللبن حتى برد أسفله ثم أتيت رسول الله ﷺ فوافيته قد استيقظ فقلت: اشرب يا رسول الله فشرب حتى رضيت، ثم قلت: قد أتى الرحيل يا رسول الله، قال فارتحلنا والقوم يطلبوننا فلم يدركنا أحد منهم غير سراقة بن مالك بن جعشم على فرس له فقلت: هذا الطلب يا رسول الله فقال: «**لا تحزن إنّ الله معنا**» فدنا منا فكان بيننا وبينه قدر رمحين أو ثلاثة قلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله وبكيت، قال: «**ما يبكيك؟**» فقلت: أما والله ما على نفسي أبكي ولكن أبكي عليك، قال: فدعا عليه رسول الله ﷺ فقال: « **اللهم اكفنيه بما شئت** » فساخ به فرسه في الأرض إلى بطنها ووثب عنها وقال: «يا محمد قد علمت أن هذا عملك، ادع الله أن

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٤٧٦) من طريق آخر عن السري، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وقال: « صحيح مرسل » لأن ابن سيرين لم يدرك عمر.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

ينجيني مما أنا فيه فوالله لأعمين على من ورائي من الطلب وهذه كنانتي فخذ منها سهما فإنك ستمر على إبلي وغنمي في موضع كذا وكذا فخذ منها حاجتك» فقال رسول الله ﷺ: « لا حاجة لي في إبلك» ودعا له رسول الله ﷺ فانطلق راجعاً إلى أصحابه ومضى رسول الله ﷺ وأنا معه حتى قدمنا المدينة ليلاً فناداه القوم أيهم ينزل عليه فقال رسول الله ﷺ: «إنّي أنزل الليلة على بني النجار أخوال عبد المطلب أكرمهم» وخرج النّاس حتى دخلنا المدينة في الطريق على البيوت والغلمان والخدم جاء محمّد، جاء رسول الله ﷺ، الله أكبر جاء محمد رسول الله ﷺ، فلمّا أصبح انطلق حتى نزل حيث أمر »[1].

ومن أحاديث الهجرة حديث أم معبد

عن حزام بن هشام بن حبيش صاحب رسول الله ﷺ، قتيل البطحاء يوم الفتح، حزام المحدث، عن حبيش بن خالد وهو أخو عاتكة بنت خالد التي كنيتها أم معبد: أن رسول الله خرج حين أخرج من مكة: خرج منها مهاجراً إلى المدينة هو وأبو بكر رضي الله عنه، ومولى أبي بكر عامر بن فهيرة، ودليلهما الليثي عبد الله بن أريقط، مروا على خيمتي أم معبد الخزاعية، فسألوها لحماً وتمراً ليشتروه منها فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك، وكان القوم مُرمِلين مُشتين، فنظر رسول الله ﷺ شاة في كسر الخيمة، فقال: « ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم قال: « هل بها من لبن ؟ قالت: هي أجهد من ذلك قال: أتأذنين لي أن أحلبها ؟ قالت: بأبي أنت وأمي نعم إن رأيت بها لبناً فاحلبها، فدعا بها رسول الله ﷺ، فمسح بيده ضرعها، وسمّى الله عز وجل ودعا لها في شاتها، فتفاجت عليه، ودرت، واجترت، ودعا بإناء يربض الرهط، فحلب فيه ثجاً حتى علاه البهاء، ثم سقاها حتى رويت، وسقى أصحابه، حتى رووا، ثم شرب آخرهم ﷺ، ثم أراضوا، ثم حلب فيه ثانياً بعد بدء، حتى ملأ الإناء ثم غادره عندها، وبايعها وارتحلوا عنها، فقل ما لبثت أن جاء زوجها أبو معبد، يسوق أعنزاً عجافاً يتشاركن هزلى مخهن قليل، فلما رأى أبو معبد، اللبن عجب، وقال: من أين لك هذا اللبن يا أم معبد، والشاء عازب حيال ولا حلوب في البيت ؟ قالت: لا والله، إلا أنه مر بنا رجل مبارك، من حاله كذا وكذا قال: صفيه لي يا أم معبد قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة أبلج الوجه، حسن الخلق، لم تعبه نحلة، ولم يزره صقلة، وسيماً قسيماً، في عينيه دعج، وفي أشفاره غطف،

---

(١) أخرجه البخاري (ح٣٦١٥و٣٦٥٢)، ومسلم كتاب الزهد (ح٢٠٠٩).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وفي صوته صحل، وفي عنقه سطع، وفي لحيته كثاثة، أزج أقرن، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سما وعلاه البهاء، أجمل الناس من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، حلو المنطق، فصل، لا نزر ولا هذر، كأن منطقه خرزات نظم ينحدرن، ربعة، لا بايس من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنظر الثلاثة منظرًا وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفونه، إن قال أنصتوا لقوله، وإن أمر تبادروا إلى أمره، محفود محشود، لا عابس ولا معتد قال أبو معبد: هو والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكة، ولقد هممت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً فأصبح صوت بمكة عالياً، يسمعون ولا يدرون من صاحبه، وهو يقول:

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين حلا خيمتي أم معبد
هما نزلاها بالهدى، فاهتدت به فقد فاز من أمسى رفيق محمّد
هما نزلا بالبر، وارتحلا به فيا سعد من أمسى رفيق محمّد
فيا لقصي، ما زوى الله عنكم به من فعال لا تجازى وسؤدد
ليهن بني كعب مقام فتاتهم ومقعدها للمؤمنين بمرصد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد
دعاها بشاة حائل فتحلبت عليها صريحاً ضرة الشاة مزبد
فغادرها رهناً لديها كحالب يرددها في مصدر ثم مورد

قال: فلما سمع حسان بن ثابت الأنصاري بهتف الهاتف، شبّب يجاوب الهاتف وهو يقول:

لقد خاب قوم زال عنهم نبيهم وقدس من يسري إليهم ويغتدي
ترحل عن قوم، فضلت عقولهم وحل على قوم بنور مجدّد
هداهم به بعد الضلالة ربهم وأرشدهم، من يتبع الحق يرشد
وهل يستوي ضلال قوم تسفهوا عمايتهم هاد به كلّ مهتد
وقد نزلت منه على أهل يثرب ركاب هدى حلت عليهم بأسعد
نبي يرى ما لا يرى الناس حوله ويتلو كتاب الله في كلّ مسجد

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وإن قال في يوم مقالة غائب فتصديقها في اليوم أو في ضحى الغد

ليهن أبا بكر سعادة جده بصحبته، من يسعد الله يسعد

ليهن بني كعب مقام فتاتهم ومقعدها للمؤمنين بمرصد[1]

ومن عجيب أمره ﷺ أنّه حتّى وهو في هذا الموقف الحرج لم يغفل عن وظيفته ومهمته الرسالية، ففي الطريق لقي النبي ﷺ بُرَيْدَة بن الحُصَيْب الأسلمي ومعه نحو ثمانين بيتًا، فأسلم وأسلموا، وصلى رسول الله ﷺ العشاء الآخرة فصلوا خلفه، وأقام بريدة بأرض قومه حتى قدم على رسول الله ﷺ بعد أُحُد.

وبخروج النّبيّ ﷺ من مكة ومقدمه إلى المدينة يُسدل الستار على المرحلة الثالثة من مراحل سيرته الشريفة وقد بلغت أوجها وقمّتها لتبدأ المرحلة الأصعب والأشرس والأهم في تاريخ الأمّة مرحلة تأسيس الدولة.

❁❁❁

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٩-١٠و١١)، والطبراني في الكبير (ح٣٦٠٥)، وأبو نعيم في الدلائل (ص٢٨٢-٢٨٤) وغيرهم من طرق لا تخلو من مقال لكنه يقبل التحسين لتعدد طرقه كما قال ابن كثير في البداية والنهاية، والشيخ الألباني في تعليقه على المشكاة.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

المرحلة الرابعة:

من الهجرة إلى الوفاة

« لا إسلام إلا بجماعة ولا جماعة إلا بإمارة ولا إمارة إلا بطاعة »

خير يوم مر على يثرب

« والله ما رأيت يوماً أضوأ ولا أنور ولا أحسن من يوم دخل علينا محمّد ﷺ »

أنس بن مالك

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

طلع البدر علينا

لو لم يكن فرضُ الحكم الإسلامي على الجميع هو حقيقة الرسالة لم يكن لسعي النّبيّ ﷺ لتكوين الدولة أي مستند، وكان يمكن أن يظل مجرد صاحب فكر ودين مثله مثل ورقة وزيد بن عمرو اللذين لم يحفل أحد بهما ولم يعادهما أحد.

لكن فكرة وأساس الخضوع لحكم الإسلام كان واضحا منذ البداية في دعوة النّبيّ ﷺ، ولهذا وجد كلّ هذه المواجهة العنيفة من قبل المشركين وأهل الملل الأخرى.

ولهذا سعى النّبيّ ﷺ لكسب جهة سياسية تحميه لتبليغ الدعوة وهذا يعني أنّ التبليغ لم يكن مجرد دعوة بيانية وأقوالاً مرسلة بل كل العمل الّذي عمله النّبيّ ﷺ من أوّل يوم كُلّف بالأمر كان هدفه النهائي هو تأسيس الدولة الإسلامية التي تحمل الدين وتقوم على أمره.

وهذا يعني أنّ الإسلام في أساسه يتعارض مع كلّ الأنظمة السياسية والمذاهب الفكرية الّتي تحمل لواء الدعوة للحريّة المطلقة وعدم تدخّل الدين في الحدّ من حريّة الإنسان وخياراته.

ولهذا فإنّ وصول النّبيّ ﷺ إلى المدينة وتنفيذ مخطط الهجرة كان اللبنة الأولى في الكيان السياسي المُستهدف، والخطوة الأولى في مشوار الألف ميل الذي يهمّ ﷺ بوضع قاطرة الإسلام عليه وكان بحق خير يوم مرّ على المدينة.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

عن أنس قال: «كان أبو بكر رضي الله عنه رديف رسول الله ﷺ حين هاجر، وكان أبو بكر يعرف الطريق ورسول الله ﷺ لا يعرفها، قال: فيمرّ بالقوم فيقولون: يا أبا بكر من هذا الفتى أمامك ؟ قال: فيقول: هذا يهديني السّبيل، فلما دنوا من المدينة نزلوا بالحرة، وأرسلا إلى الأنصار فجاءوه، فقالوا: قوماً آمنين مُطاعين، قال أنس: فوالله ما رأيت يوماً أضوأ ولا أنور ولا أحسن من يوم دخل علينا محمّد ﷺ »

في رواية: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كلّ شيء »[1].

في يوم الاثنين ٨ ربيع الأول سنة ١٤ من النبوة ـ وهي السنة الأولى من الهجرة ـ الموافق ٢٣ سبتمبر سنة ٦٢٢ م نزل رسول الله ﷺ بقباء.

قال عروة بن الزبير: سمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحَرَّة، فينتظرونه حتى يردهم حَرُّ الظهيرة، فانقلبوا يومًا بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أَوْفى رجل من يهود على أُطُم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مُبَيَّضِين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب، هذا جدكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح. وتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة.

قال ابن القيم: وسُمِعت الوَجْبَةُ والتكبير في بني عمرو بن عوف، وكبر المسلمون فرحًا بقدومه، وخرجوا للقائه، فتلقوه وحَيَّوْه بتحية النبوة، فأحدقوا به مطيفين حوله، والسكينة تغشاه، والوحى ينزل عليه.

قال عروة بن الزبير: فتلقوا رسول الله ﷺ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول. فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتًا، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيى ـ وفي نسخة: يجيء ـ أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٢٢١ و٢٤٠ و٢٦٨)، والترمذي (٣٦١٨)، وابن ماجه (١٦٣١) وغيرهم، من طرق متعددة عن ثابت، وإسناده صحيح.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وكانت المدينة كلها قد زحفت للاستقبال، وكان يومًا مشهودًا لم تشهد المدينة مثله في تاريخها.

ثم سار النبي ﷺ بعد الجمعة حتى دخل المدينة ـ ومن ذلك اليوم سميت بلدة يثرب بمدينة الرسول ﷺ، ويعبر عنها بالمدينة مختصرًا ـ وكان يومًا مشهودًا أغر، فقد ارتجت البيوت والسكك بأصوات الحمد والتسبيح، وتغنت بنات الأنصار بغاية الفرح والسرور:

طلع البدر علينا ❊❊من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ❊❊ ما دعا لله داع

أيها المبعوث فينا ❊❊ جئت بالأمر المطاع

حتى الناقة مأمورة

كلّ شيء حول النّبيّ ﷺ كان يقوم بمهمّة في الدّعوة وبناء الدولة، حتّى النّاقة كان لها شرف التكليف بتوضيح الموضع الّذي ينزل فيه النّبيّ ﷺ، إذ لمّا وصل النّبيّ ﷺ ودخل المدينة لم يكن في الأنصار أهل بيت إلاّ وهو يتمنّى أن ينزل الرسول ﷺ عليه، فكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلا أخذوا خطام راحلته: هلمّ إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة، فكان يقول لهم: « خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة »، فلم تزل سائرة به حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوي اليوم فبركت، ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلاً، ثم التفتت ورجعت فبركت في موضعها الأول، فنزل عنها، وذلك في بني النجار ـ أخواله ﷺ ـ وكان من توفيق الله لها، فإنه أحب أن ينزل على أخواله، يكرمهم بذلك، فجعل الناس يكلمون رسول الله ﷺ في النزول عليهم، وبادر أبو أيوب الأنصاري إلى رحله، فأدخله بيته، فجعل رسول الله ﷺ يقول: « المرء مع رحْلِه »، وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلته، فكانت عنده .

❁❁❁

لا وقت للراحة

﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾

[التوبة:١٠٨]

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

من أوّل يوم

من أوّل يوم وصل النّبيّ ﷺ إلى المدينة باشر مهمّته الّتي يعيش ليله ونهاره يتنفّسها كما يتنفّس الهواء.

نزل رسول الله ﷺ بقباء على كلثوم بن الهدم، وأقام بها أربعة أيام: الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس.

وأسّس مسجد قباء وصلى فيه، وهو أول مسجد أُسِّس على التقوى بعد النبوة، فلما كان اليوم الخامس ـ يوم الجمعة ـ ركب بأمر الله له، وأبو بكر ردفه، وأرسل إلى بني النجار ـ أخواله ـ فجاءوا متقلدين سيوفهم، فسار نحو المدينة وهم حوله، وأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فجمع بهم في المسجد الذي في بطن الوادي، وكانوا مائة رجل.

موقع قباء من المسجد النبوي

ومن أوّل يوم وصل فيه النّبيّ ﷺ عمل على تأسيس وتوضيح معالم المجتمع المدني.

وأول خطوة خطاها رسول الله ﷺ بعد ذلك هو بناء المسجد النبوي، واختار له المكان الذي بركت فيه ناقته ﷺ، فاشتراه من غلامين يتيمين كانا يملكانه، وأسهم في بنائه بنفسه، فكان ينقل اللبِن والحجارة ويقول:

اللهم لا عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخرة ** فاغْفِرْ للأنصار والمُهَاجِرَة

وكان يقول:

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

هذا الحِمَالُ لا حِمَال خَيْبَر ** هذا أَبَرُّ رَبَّنَا وأَطْهَر

وكان ذلك مما يزيد نشاط الصحابة في العمل، حتى إن أحدهم ليقول:

لئن قَعَدْنا والنبي يَعْمَل ** لذاك مِنَّا العَمَلُ المُضَلَّل

وكانت في ذلك المكان قبور للمشركين، وكان فيه خرب ونخل وشجرة من غَرْقَد، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت، وبالخَرِب فسويت، وبالنخل والشجرة فقطعت، وصفت في قبلة المسجد، وكانت القبلة إلى بيت المقدس، وجعلت عضادتاه من حجارة، وأقيمت حيطانه من اللبن والطين، وجعل سقفه من جريد النخل، وعُمُده الجذوع، وفرشت أرضه بالرمال والحصباء، وجعلت له ثلاثة أبواب، وطوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع، والجانبان مثل ذلك أو دونه، وكان أساسه قريبًا من ثلاثة أذرع.

وبني بجانبه بيوتًا بالحجر واللبن، وسقفها بالجريد والجذوع، وهي حجرات أزواجه ﷺ، وبعد تكامل الحجرات انتقل إليها من بيت أبي أيوب.

المسجد النبوي حديثاً

لم يكن المسجد موضعًا لأداء الصلوات فحسب، بل كان جامعة يتلقى فيها المسلمون تعاليم الإسلام وتوجيهاته، ومنتدى تلتقي وتتآلف فيه العناصر القبلية المختلفة التي طالما نافرت بينها النزعات الجاهلية وحروبها، وقاعدة لإدارة جميع الشئون وبث الانطلاقات، وبرلمان لعقد المجالس الاستشارية والتنفيذية.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وكان مع هذا كله دارًا يسكن فيها عدد كبير من فقراء المهاجرين اللاجئين الذين لم يكن لهم هناك دار ولا مال ولا أهل ولا بنون.

المؤاخاة

هاجر الصحابة رضي الله عنهم تاركين خلفهم المال والضياع، وجاء أغلبهم بنفسه وليس معه من حطام الدنيا شيء، بعضهم كان فقيراً في موطنه فلم تغير الهجرة من حاله، وبعضهم كان في موطنه غنيا لكنّه آثر الله ورسوله على كلّ شيء.

ولهذا فقد عمد النّبيّ ﷺ إلى ربط المهاجرين بالأنصار بعقد مؤاخاة، قال ابن القيم: ثم آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلاً، نصفهم من المهاجرين، ونصفهم من الأنصار، آخى بينهم على المواساة، ويتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام إلى حين وقعة بدر، فلما أنزل الله عز وجل: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[الأنفال: ٧٥].رد التوارث إلى الرحم دون عقد الأخوة.

وقد قيل: إنه آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية... والثبت الأول، والمهاجرون كانوا مستغنين بأخوة الإسلام وأخوة الدار وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة فيما بينهم، بخلاف المهاجرين مع الأنصار. اهـ.

وقد بلغ الأمر من الأنصار غايته فصدقوا في البذل لإخوانهم حتّى حكى الله عنهم ذلك في القرآن فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر: ٩].

وقد امتزجت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة وإسداء الخير في هذه الأخوة، وملأت المجتمع الجديد بأروع الأمثال.

روى البخاري: أنهم لما قدموا المدينة أخي رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن وسعد بن الربيع، فقال لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالاً، فاقسم مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسمِّها لي، أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها، قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، وأين سوقكم ؟ فدلوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

فضل من أَقِطٍ وسَمْنٍ، ثم تابع الغدو، ثم جاء يومًا وبه أثر صُفْرَة، فقال النبي ﷺ: « مَهْيَمْ ؟ » قال: تزوجت. قال: « كم سقت إليها ؟ » قال: نواة من ذهب.

وروى عن أبي هريرة قال: قالت الأنصار للنبي ﷺ: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل. قال: « لا »، فقالوا: فتكفونا المؤنة ونشرككم في الثمرة. قالوا: سمعنا وأطعنا.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

التحالفات

«هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم: إنهم أمة واحدة من دون الناس»

محمّد ﷺ

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

أمّة واحدة

وكما قام رسول الله ﷺ بعقد هذه المؤاخاة بين المؤمنين، قام بعقد معاهدة أزاح بها ما كان بينهم من حزازات في الجاهلية، وما كانوا عليه من نزعات قبلية جائرة، واستطاع بفضلها إيجاد وحدة إسلامية شاملة. وفيما يلي بنودها ملخصًا:

هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم:

١ـ إنهم أمة واحدة من دون الناس.

٢ـ المهاجرون من قريش على رِبْعَتِهم يتعاقلون بينهم، وهم يَفْدُون عَانِيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وكل قبيلة من الأنصار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٣ـ وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحًا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.

٤ـ وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دَسِيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين.

٥ـ وإن أيديهم عليه جميعًا، ولو كان ولد أحدهم.

٦ـ ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر.

٧ـ ولا ينصر كافرًا على مؤمن.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

٨ ـ وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم.

٩ـ وإن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.

١٠ ـ وإنّ سلْمَ المؤمنين واحدة؛ لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم.

١١ ـ وإن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

١٢ ـ وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن.

١٣ ـ وإنه من اعتبط مؤمنًا قتلاً عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول.

١٤ ـ وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

١٥ ـ وإنه لا يحل لمؤمن أن ينصر محدثًا ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صَرْف ولا عَدْل.

١٦ ـ وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله ـ عز وجل ـ وإلى محمد ﷺ.

وكما اهتمّ النّبيّ ﷺ بعقد الأخوة بين المسلمين، فقد أبرم كذلك عقود تحالف مع غير المسلمين.

فقد جاء النّبيّ ﷺ المدينة وسكانها غالبهم قد دخلوا في الإسلام، ومن بقي منهم على الشرك فإنّه مسالم أو أظهر الإسلام وأبطن الشرك.

والبقية منهم هم اليهود وكانوا عددا من القبائل وهم بنو قينقاع وبنو النضير، وبنو قريظة، وهؤلاء لم يدخلوا في الإسلام وبقوا على دينهم إلاّ قليلا منهم.

وبمجرد أن استقر الرسول ﷺ بالمدينة، وأقام فيها المجتمع الإسلامي الوليد، قام الرسول ﷺ بعقد ميثاق وعهد ووثيقة مكتوبة تنظم العلاقات بين مختلف القوى والطوائف والتجمعات والأفراد داخل هذا المجتمع، وكان من الطبيعي – بفضل سماحة الاسلام وبفضل حرص الاسلام على حماية حقوق الأقليات الدينية والعرقية أن يسمح

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

الرسول ﷺ لليهود في المدينة بالدخول في هذا العقد، الذى يمثل أرقى ما عرفت البشرية من عقود لحماية حقوق الأقليات الأمر الذي يعكس قيم الإسلام العليا[١].

بعد أن أرسى رسول الله ﷺ قواعد مجتمع جديد وأمة إسلامية جديدة، بإقامة الوحدة العقدية والسياسية والنظامية بين المسلمين، بدأ بتنظيم علاقاته بغير المسلمين، وكان قصده بذلك توفير الأمن والسلام والسعادة الخير للبشرية جمعاء، مع تنظيم المنطقة في وفاق واحد، فسن في ذلك قوانين السماح والتجاوز التي لم تعهد في ذلك العالم الملئ بالتعصب والأغراض الفردية والعرقية.

وأقرب من كان يجاور المدينة من غير المسلمين هم اليهود – كما أسلفنا – وهم وإن كانوا يبطنون العداوة للمسلمين، لكن لم يكونوا أظهروا أية مقاومة أو خصومة بعد، فعقد معهم رسول الله ﷺ معاهدة قرر لهم فيها النصح والخير، وترك لهم فيها مطلق الحرية في الدين والمال، ولم يتجه إلى سياسة الإبعاد أو المصادرة والخصام.

وفيما يلى أهم بنود هذه المعاهدة:

١ – إن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم، وكذلك لغير بنى عوف من اليهود.

٢ –وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.

٣– وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

٤ – وإن بينهم النصح والنصحية، والبر دون الإثم.

٥ – وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه.

٦ – وإن النصر للمظلوم.

٧– وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٨–وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

---

(١) التكتيك النبوي في مواجهة اليهود / د. محمد مورو.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

٩ – وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ.

١٠ – وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها.

١١ – وإن بينهم النصر على من دَهَم يثرب.. على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.

١٢ – وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم.

وبإبرام هذه المعاهدة صارت المدينة وضواحيها دولة وفاقية، عاصمتها المدينة، ورئيسها ـ إن صح هذا التعبير ـ رسول الله ﷺ، والكلمة النافذة والسلطان الغالب فيها للمسلمين.

ولتوسيع منطقة الأمن والسلام عاهد النبي ﷺ قبائل أخرى في المستقبل بمثل هذه المعاهدة، حسب ما اقتضته الظروف.

تعليق لابدّ منه

مرت الدولة الإسلامية بأطوار عدّة حتّى تشكّلت في صورتها النهائية.

وكلّ مرحلة من هذه المراحل كان لها خصائصها التشريعية التي تتناسب مع معطيات التشريع من جهة ومعطيات الواقع من جهة أخرى.

أكبر المغالطات الّتي يقع فيها المعارضون للدولة الإسلامية انتزاع حالات مرت بها الأمّة في طور من أطوارها والنظر إليه على أنّه هو الحالة الأساس وهو الوضع الدائم.

إنّ التشريع السياسي في الإسلام مثله مثل غيره من التشريعات مر بمراحل بعضها منسوخ وبعضها مجرد تصرف مرحلي ووضع مؤقت لا يُحكم به على الدوام وإنّما يظل ثروة لأهل الإسلام بأنّ لهم في وقت ما وحالة ما أن يوظّفوه.

ولهذا فإنّه ليس من الحكمة ولا من الإنصاف ما نقرأه للبعض من محاولة التملّص من الأحكام الشرعية خاصة نلك التي تتعلق بالمرأة أو التي تتعلق بالسياسة التشريعية ومثلها الجهاد والعلاقة بالكفار وغيرهم عبر البحث عن حالة مرت بها الأمّة أو وقائع تصرف فيها النّبيّ ﷺ وفق وضع راهن آني لاتّخاذ ذلك حجة في تغيير الشريعة.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

مثال:

من ذلك احتفاء بعض الأقلام بالوثيقة الّتي كتبها النّبيّ ﷺ بينه وبين اليهود، فهذه الوثيقة فرضتها معطيات تاريخية وواقعية والشرع تعامل معها وفق هذا الأساس، وكان التشريع وقتها ما زال في طور البناء فما زالت الأحكام يعتريها النسخ ولم تستقر الاستقرار الذي بات واتضح مع نهاية عصر الخلفاء الراشدين.

فقول النّبيّ ﷺ: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين**» فيه تنبيه قوي لهذا المعنى وإلاّ لكان اكتفى بطاعته، وسنته هو، ولكن الإشارة لهم دليل على أنّ هناك جوانب من التشريع لم تكتمل عُهد بها لمن بعده من الخلفاء.

نعود للوثيقة

فقد جاء فيها بعض البنود الّتي رفع بها البعض عقيرته مدعيا أنّها الأصل في تعامله ﷺ مع الآخرين من أتباع الأديان الأخرى.

يقول أحدهم: «بهذا الوضوح في حيثيات التعامل مع الآخر المخالف صادق النبي عليه الصلاة والسلام على الوثيقة، التي أكدت على اندماج اليهود والمسلمين ضمن بوتقة واحدة، ومجتمع مدني واحد، ومواطنة متساوية، لا اعتبار فيها للدين أو الطائفة، ولا إقرار فيها بفوقية مدنية لأحد على أحد، على اعتبار أن الجميع شركاء في تحقيق النماء والحفاظ على المكتسبات بمختلف أنواعها المعنوية والمادية، التي تتمثل في خاصية الأمن والأمان، والنعمة والاستقرار».

أقول: وهذا خطأ ناتج عن جهل بالسنّة أو تجاهل لها، وإلاّ فالسنة نصت على خلافات بين المسلم وغيره ومن أبرزها مثلا عدم قتل المسلم بالكافر، وعدم صحة نكاح الكتابي بالمسلمة، وحرص الخلفاء على عدم تولية المناصب الحساسة لغير المسلم وتاريخهم يشهد بذلك.

فكيف يُقال إنّ الوثيقة: «أكدت على اندماج اليهود والمسلمين ضمن بوتقة واحدة، ومجتمع مدني واحد، ومواطنة متساوية، لا اعتبار فيها للدين أو الطائفة، ولا إقرار فيها بفوقية مدنية لأحد على أحد، على اعتبار أن الجميع شركاء في تحقيق النماء والحفاظ على المكتسبات»؟!

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

يقول: «على أن ظروف هذا المنهج قد أخذ في التغير تدريجيا مع بدء تغير بعض المنطلقات المحمدية خلال تطور وتيرة التاريخ السياسي للأمة الإسلامية، التي انتقلت فيها الأمة من نظام دولة الخلافة الراشدة بمنهجها النبوي المكرس لاحترام الآخر أيا يكون، ودون النظر إلى ملته وديانته، إلى نظام الدولة الفردية خلال فترة العهدين الأموي والعباسي، التي عمدت إلى تكريس سلطاتها عبر تسويغ العديد من المفاهيم الدينية الموالية لها، حتى لو كان ذلك منافيا لما كان سائدا في ما سبق من عهود راشدة، وهو ما أفرز لنا بروز الكثير من الظواهر الدينية الغريبة بعد ذلك، التي تتعارض جملة وتفصيلا مع مقاصد الشريعة الكلية، كالتوجه لمحاربة أقوام أخرى مسالمة بحجة نشر الإسلام، وإجبارهم على الدخول فيه، من خلال وضعهم أمام اختيارات ثلاث لا تناغم بينها وهي: إما الإسلام أو دفع الجزية أو الحرب، وكأننا بداية نقايضهم على الإسلام بالمال، فإن لم يستجيبوا فلا خيار من الحرب».

أقول: إنّ غزو الأقوام الأخرى بحجة نشر الإسلام كان منهج النّبيّ ﷺ وقد بدأ هذا في عهده ﷺ ولم يبتدعه الأمويون والعباسيون كما يشير الجهول.

وقد قال ﷺ: «**بُعثت بالسيف بين يدي الساعة وجعل رزقي تحت ظل رمحي**».

وقد أرسل النّبيّ ﷺ العديد من السرايا والجيوش لقتال الآخرين ودعوتهم قبل ذلك إلى الإسلام.

والتخيير بين الإسلام والجزية والقتال ليس معنى ذلك أن يرجع المسلمون بالمال فقط فهذا جهل من صاحبه، بل الجزية هي مقابل تركهم على دينهم مقابل حمايتهم والدفاع عنهم وهذا يعني دخول هؤلاء تحت حكم الإسلام وتخليتهم بين المسلمين وبين الدعوة لدينهم.

على أنّ الفرحين بهذه الوثيقة نسوا أنّه هو ﷺ الذي أمر بإخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب.. ونهى أن يعيش المسلم بينهم، ففي صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ إِذْ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: **انْطَلِقُوا إِلَى يَهُودَ**. فَخَرَجْنَا مَعَهُ حَتَّى جِئْنَا بَيْتَ الْمِدْرَاسِ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فَنَادَاهُمْ: **يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا**. فَقَالُوا: قَدْ بَلَّغْتَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ. فَقَالَ: **ذَلِكَ أُرِيدُ**. ثُمَّ قَالَهَا الثَّانِيَةَ، فَقَالُوا: قَدْ بَلَّغْتَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

ثُمَّ قَالَ الثَّالِثَةَ فَقَالَ: «اعْلَمُوا أَنَّ الأَرْضَ للهِ وَرَسُولِهِ وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُجْلِيَكُمْ، فَمَنْ وَجَدَ مِنْكُمْ بِمَالِهِ شَيْئًا فَلْيَبِعْهُ، وَإِلاَ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا الأَرْضُ للهِ وَرَسُولِهِ».

وفيه عن ابن عباس في وصية النّبيّ ﷺ قبل موته: «أَمَرَهُمْ بِثَلاَثٍ قَالَ: أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ».

وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمر قال: لما افتتحت خيبر سألت يهود رسول الله ﷺ أن يقرهم فيها على أن يعملو على نصف ما خرج منها من الثمر والزرع فقال رسول الله ﷺ « أقرهم فيها على ذلك ما شئنا »، قال النووي: « قال العلماء هو عائد لى مدة العهد والمراد إنما نمكنكم من المقام في خيبر ما شئنا ثم نخرجكم إذا شئنا لأنه ﷺ كان عازما على إخراج الكفار من جزيرة العرب كما أمر به في آخر عمره ».

وعن عمر بن الخطاب: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلما ».

وفي مسند الإمام أحمد عن أبي عبيدة قال: آخر ما تكلم به النبي ﷺ: «اخرجوا يهود أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب».

فهذه النصوص الصحيحة الصريحة تشهد على أنّ تصرف النّبيّ ﷺ مع اليهود ببعض ما في بنود تلك الوثيقة ليس كلّه يشكّل وضعاً نهائيا لتعامل الدولة المسلمة مع غير المسلمين خاصة مسألة المواطنة وتساوي الحقوق وعدم التفريق بين المسلم وغيره.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

الغزو

« بُعثت بالسّيف حتّى يعبد اللّه لا شريك له وجعل رزقي تحت ظلّ رمحي وجعل الذّلّة والصّغار على من خالف أمري »

محمّد ﷺ

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

بُعثت بالسيف

من المعلوم أنّ القتال كان منهياً عنه في المرحلة الّتي سبقت الهجرة.

وبعد الهجرة نزل قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩] كأوّل نصّ يقرّ للمظلوم بحقّه في أن ينتصر لنفسه، والإذن في هذه المرحلة يعني أنّه كان قبل ذلك منهيا عنه.

فالأمر إذن في هذه المرحلة مأذون فيه وليس واجباً، ولا شكّ أنّ نزول هذا التشريع في هذا الوقت كان متزامناً مع التطوّر السياسي والواقعي الذي شهدته الدعوة وذلك بتشكّل نواة الدولة وحصولها على أرض ذات سيادة محمية بتحالف قوي ومصالح مشتركة.

ولم يكن الشرع قد أوجب عليهم القتال ليتيح فرصة لهذه الدولة الفتية أن ترسّخ وجودها في أرض شاسعة يحيط بها الأعداء من كلّ جانب ويتربّص بها الدوائر.

وكأنّ الشّارع الحكيم ترك القتال في هذه المرحلة رهناً بسنّة التّدافع الكونيّة، لهذا قال تعالى بعد آية الإذن مباشرة: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وتشريع الغزو في هذه المرحلة كان كذلك فتحاً لباب من أبواب تمويل الدولة، وليس ذلك منه ظلما ولا اعتداء بل كان ذلك ردا بالمثل على من سلب المؤمنين أموالهم وديارهم.

ثمّ بعد ذلك فرض عليهم قتال من قاتلهم فقال: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾[البقرة: ١٩٠].

ثمّ بعد ذلك أصبح فرضا عاما: فقال: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[التوبة: ٣٦].

وللغزو والجهاد في الإسلام غاية نبيلة وليس لمجرد القتل ولا لسلب الأموال كما يوهم بعض من لا خلاق لهم، بل هدفه تحقيق الهدف من بعث النّبيّ ﷺ، فالنّبيّ ﷺ لم يُرسل إليه جبريل ليكون عبقريا مفكرا صاحب فكر وخلق، بل أُنزل عليه الوحي ليكون مبلّغاً عن الله وليكون الدين مهيمناً على البشرية كلّها، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾[المائدة: ٤٨].

وأنزل عليه الوحي حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وهذا الأمر كان واضحا منذ بدء الدعوة حتّى للمشركين، وإلاّ لما عادوه ورفضوا دعوته بكل سبيل.

إنّ الاعتراف بالجهاد والغزو ومشروعيته ابتداء وليس دفعا فقط يوازي تماما الاعتراف برسالته، لأنّ من اعترف برسالة النّبيّ ﷺ وأقرّ له بالنبوّة والرسالة وأنّه مكلّف من الله بهداية البشرية وإخضاعها لحكم الله لا يمكن أن يكون مع هذا رافضا لفكرة القوة في فرض الدين الجديد وجعله مهيمناً على كلّ ما سواه.

والهيمنة بمفهومها الشامل لا تتعارض مع فكرة بقاء وإقرار أهل الكتاب وربما غيرهم على عبادتهم في بلاد يحكمها الإسلام لكن تظّل الهيمنة للإسلام.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

بدر الكبرى

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا
وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا
يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ
أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ
وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ
عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ
إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾

[الأنفال: ٤٧-٤٨]

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

يوم الفرقان

وسمّاها الله كذلك يوم الفرقان، إذ فيها فرق الله بين الحق والباطل وبين الكفر والإيمان.

قصة الغزوة باختصار

كان النّبيّ ﷺ وصحابته يعانون الأمرين من استيلاء المشركين على كلّ أموالهم التي خرجوا وتركوها في مكّة، وقد أذن الله تعالى له بمعاقبة الكفار بمثل ما فعلوا، ﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ [الحج: ٦٠].

ولهذا كان ممّا عمله النّبيّ ﷺ في المدينة هو التربص لقوافل التجارة المكية التي كان يخرج بها رؤساؤهم إلى الشام بالذات لأنّها تمر بمحاذاة المدينة، من أجل الاستيلاء عليها، وليس هذا من قبيل قطع الطريق كما يزعم من لا خلاق له من أعداء الرسول، إذ لم يفعله النّبيّ ﷺ مع أيّ من قوافل العرب إلاّ مع من استولوا على أموال المسلمين من قبيل المعاملة بالمثل فقط.

وفي رمضان من العام الثاني للهجرة بلغ رسول الله ﷺ أنّ قافلة لقريش عليها أبو سفيان قادمة من الشام وكانوا نحو أربعين رجلا وفيها أموال عظيمة لقريش.

فدعا رسول الله ﷺ الناس للخروج إليها، ولم يجهّز النّبيّ ﷺ لها جهازاً كافياً لأنه خرج مسرعاً في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، ولم يكن معهم من الخيل إلا فَرَسَان: فرسٌ للزبير بن العوام وفرسٌ للمقداد بن الأسود الكندي وكان معهم سبعون بعيراً يتعاقب الرجلان والثلاثة على البعير الواحد.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

ولّما بلغ أبا سفيان مخرج رسول الله ﷺ وقصده إياه أرسل رجلاً إلى مكة مستنجداً بقريش وداعياً لهم بالنفير إلى قافلتهم ليمنعوها من محمد وأصحابه وبلغ الصريخ أهل مكة فنهضوا مسرعين فلم يتخلف من أشرافهم أحد سوى أبي لهب فإنه عوض عنه رجلاً كان له عليه دين.

وحشدوا فيمن حولهم من قبائل العرب ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بني عدي فلم يخرج معهم منهم أحد.

وخرجوا من ديارهم كما وصفهم الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ [الأنفال: ٤٧].

وأقبلوا كما قال رسول الله ﷺ: « بحدّهم وحديدهم تحادّه وتحادّ رسوله ».

جاءت قريش وقد اغتنمتها فرصة لشحذ همم القبائل ضدّ النّبيّ ﷺ واستغلالها فرصة لإبراز قوّتها في استعراض عسكري أرادوا منه تحقيق هدفين، أوّلهما القضاء على النّبيّ ﷺ ودعوته، والآخر: استعادة هيبة قريش الّتي كانت قد اهتزّت بسبب عجزها أمام دعوة النّبيّ ﷺ.

ولهذا حرص أبو جهل لعنه الله ومن معه من الصناديد على القتال كما سنرى، رغم أنّ أبا سفيان استطاع الهرب بالقافلة وأرسل لمن خرج من قريش بأن يعودوا إذ زال السبب الذي خرجوا لأجله.

ولما بلغ رسول الله ﷺ خروج قريش استشار أصحابه فتكلم المهاجرون فأحسنوا ثم استشارهم ثانيا فتكلم المهاجرون فأحسنوا ثم استشارهم ثالثاً ففهمت الأنصار أنه يعنيهم فبادر سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله ! كأنك تعرض بنا ؟ وكان إنما يعنيهم لأنهم بايعوه على أن يمنعوه من الأحمر والأسود في ديارهم فلما عزم على الخروج استشارهم ليعلم ما عندهم فقال له سعد: لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقا عليها أن لا ينصروك إلا في ديارها وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم: فاظعن حيث شئت وصِل حبل من شئت واقطع حبل من شئت وخذ من أموالنا ما شئت وأعطنا ما شئت وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وقال له المقداد: لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك ومن بين يديك ومن خلف»، فأشرق وجه رسول الله ﷺ وسر بما سمع من أصحابه وقال: «سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين وإني قد رأيت مصارع القوم ».

فسار رسول الله ﷺ إلى بدر وأمّا أبو سفيان فلحق بساحل البحر ولما رأى أنه قد نجا وأحرز العير كتب إلى قريش: « أن ارجعوا فإنكم إنما خرجتم لتحرزوا عيركم »، فأتاهم الخبر وهم بالجحفة فهمّوا بالرجوع فقال أبو جهل: « والله لا نرجع حتى نقدم بدرا فنقيم بها ونطعم من حضرنا من العرب وتخافنا العرب بعد ذلك ».

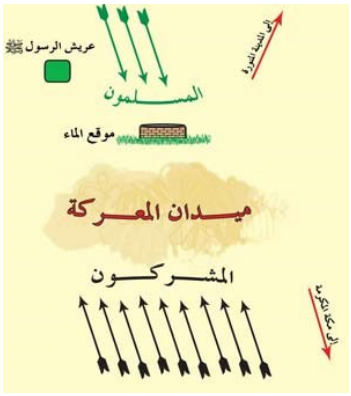

مخطط معركة بدر

فساروا وسار رسول الله ﷺ حتى نزل عشيا أدنى ماء من مياه بدر فقال: « أشيروا علي في المنزل » فقال الحباب بن المنذر: « يا رسول الله ! أنا عالم بها وبقلبها إن رأيت أن نسير إلى قلب قد عرفناها فهي كثيرة الماء عذبة فننزل عليها ونسبق القوم إليها ونغور ما سواها من المياه ».

فأنزل الله عز و جل في تلك الليلة مطرا واحدا فكان على المشركين وابلا شديدا منعهم من التقدم وكان على المسلمين طَلاً طهّرهم به وأذهب عنهم رجس الشيطان ووطّأ به الأرض وصلّب به الرمل وثبّت الأقدام ومهّد به المنزل وربط به على قلوبهم.

فسبق رسول الله ﷺ وأصحابه إلى الماء فنزلوا عليه شطر الليل وصنعوا الحياض ثم غوروا ما عداها من المياه.

ونزل رسول الله ﷺ وأصحابه على الحياض وُبِنَي لرسول الله ﷺ عريش يكون فيها على تل يشرف على المعركة ومشى في موضع المعركة وجعل يشير بيده هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان إن شاء الله فما تعدى أحد منهم موضع إشارته.

مشهد

فلما طلع المشركون وتراءى الجمعان قال رسول الله ﷺ: « اللهم هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها جاءت تحادك وتكذب رسولك » وقام ورفع يديه واستنصر ربه وقال: « اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم إني أنشدك عهدك

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

ووعدك »، فالتزمه الصديق من ورائه وقال: « يا رسول الله ! أبشر فوالذي نفسي بيده لينجزن الله لك ما وعدك »، واستنصر المسلمون الله واستغاثوه وأخلصوا له وتضرعوا إليه.

فاصل

ما يثير العجب في هذا المشهد هو ما أعطاه الله لنبيّه ﷺ من كمال العبودية وصدقها مع الله، فأنت تلاحظ أنّه قبل قليل يشير إلى مصارع القوم، فهذا شق اليقين بالنصر، لكنّ هذا لم يجعله يترك الجانب التعبّدي، فكل هذه المناشدة والدعاء والتضرّع منه ومن أصحابه معه تربية على يبقى الخطّ القدري موازيا للخطّ التشريعي التعبّدي، لا يتقاطعان فيوقف أحدهما الآخر، وهذا ملاحظ حتّى في مواطن أخرى، فلمّا رأته عائشة قام حتّى تفطرت قدماه فتعجبت وقالت: «قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر» فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

وكذلك أصحاب بدر لمّا بشّرهم النّبيّ ﷺ بالجنة وقال: « إن الله اطلع عليهم فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » لم يكن ذلك سببا في تعطّل الجانب التعبدي من حياتهم بل كانوا أفضل النّاس.

ومثل ذلك في العشرة المبشرين بالجنة، وكذلك عثمان وقوله ﷺ له: «ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم».

عُدنا

هنالك أوحى الله إلى ملائكته: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢] وأوحى الله إلى رسوله ﴿أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ قُرِئ بكسر الدال وفتحها فقيل: المعنى إنهم ردف لكم، وقيل: يردف بعضهم بعضا أرسالاً لم يأتوا دفعة واحدة.

ليلة عصيبة

وبات رسول الله ﷺ يصلي إلى جذع شجرة هناك وكانت ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان في السنة الثانية فلما أصبحوا أقبلت قريش في كتائبها واصطف الفريقان.

وعدل رسول الله ﷺ الصفوف ثم رجع إلى العريش هو وأبو بكر خاصة وقام سعد بن معاذ في قوم من الأنصار على باب العريش يحمون رسول الله ﷺ.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

ولما دنا العدو وتواجه القوم قام رسول الله ﷺ في الناس فوعظهم وذكّرهم بما لهم في الصبر والثبات من النصر والظفر العاجل وثواب الله الآجل وأخبرهم أن الله قد أوجب الجنة لمن استشهد في سبيله فقام عمير بن الحمام فقال: يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض ؟ قال: « نعم »، قال: بخ بخ يا رسول الله قال: « ما يحملك على قولك بخ بخ ؟ » قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها قال: « فإنك من أهلها » قال: فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتل حتى قتل فكان أول قتيل.

وبعد جولات من المبارزة حمي الوطيس واستدارت رحى الحرب واشتد القتال وأخذ رسول الله ﷺ في الدعاء والابتهال ومناشدة ربه عز و جل حتى سقط رداؤه عن منكبيه فرده عليه الصديق وقال: « بعض مناشدتك ربك فإنه منجز لك ما وعدك ».

فأغفى رسول الله ﷺ إغفاءة واحدة وأخذ القوم النعاس في حال الحرب ثم رفع رسول الله ﷺ رأسه فقال: « أبشر يا أبا بكر ! هذا جبريل على ثناياه النقع ».

وأخذ رسول الله ﷺ ملء كفه من الحصباء فرمى بها وجوه العدو فلم تترك رجلا منهم إلا ملأت عينيه وشغلوا بالتراب في أعينهم وشغل المسلمون بقتلهم فأنزل الله في شأن هذه الرمية على رسوله ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[الأنفال: ١٧].

وجاء النصر وأنزل الله جنده وأيد رسوله والمؤمنين ومنحهم أكتاف المشركين أسرا وقتلا فقتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين.

وكانت الملائكة يومئذ تبادر المسلمين إلى قتل أعدائهم قال ابن عباس: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس فوقه يقول: أقدم حيزوم إذ نظر إلى المشرك أمامه مستلقيا فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ: «فقال صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة ».

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وقال أبو داود المازني: إني لأتبع رجلا من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي فعرفت أنه قد قتله غيري

وجاء رجل من الأنصار بالعباس بن عبد المطلب أسيرا فقال العباس: إن هذا والله ما أسرني لقد أسرني رجل أجلح من أحسن الناس وجها على فرس أبلق ما أراه في القوم فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله، فقال: «اسكُت، فقد أيدك الله بملك كريم» وأسر من بني عبد المطلب ثلاثة: العباس وعقيل ونوفل بن الحارث.

فاصل

قد يثور هنا سؤال، إذا كان الله تعالى أنزل الملائكة، فالذي نعرفه أنّ قوّة الملائكة لا تحتاج إلى هذا العدد منهم، وأنّ جبريل عليه السلام قادر أن ينهي المعركة لصالح المسلمين في لحظة فما هي حقيقة مشاركة الملائكة في القتال ؟

الحقيقة أنّ هذا يرجع إلى تصوّر الهدف من الرسالة النّبويّة، وأنّها تظل من طرفها الأدنى عملاً بشريّاً يقوم على قانون الأسباب الأرضي، وهو الاعتماد على القدرة البشرية المحضة في تحصيل الأسباب المؤدية إلى نتائجها المعتادة.

فالسيرة النبوية يُراد لها أن تكون أنموذجاً قابلاً للتطبيق، فلو أن التدخّل الملائكي كان بصورة مطلقة لتلاشى الأنموذج واختفى مقصد التأسّي.

الرسالة بشرية في صورتها التطبيقية مارس فيها النّبيّ ﷺ دوره في المعركة كقائد عسكري سياسي، فشاور وفكر وقدر وحصل الأسباب الممكنة، ويبقى القدر الخارج عن القدرة البشرية متروكا للتدبير الرباني الذي يختار ما تقتضيه الحكمة الربانية، فيكون النصر أو الهزيمة، والهزيمة لا تأتي إلاّ بسبب تقصير في استيفاء الأسباب المادية أو الإيمانية.

ومن هنا نجد المشاركة الملائكية كانت تشبه المدد البشري حتى لايختفي في المعركة الدور البشري التعبدي، وإلاّ لما رأينا كل هذه الصور من الاستبسال والقتال واستفراغ الطاقة في الإثخان في العدو والأسر والإصرار على النصر ثقة بموعود الله تعالى من جهة واطمئنانا إلى الفوز المحقق إما بنصر ينصر الله له الإسلام وأهله أو بشهادة يبلغ بها المقاتل درجة عالية في الجنة.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى وإن كان في سياق مختلف حين طلب الكفار أن يكون الرسول ملكاً، فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[الأنعام: ٩].

فالله حين أرسل الرسل أرسلهم من أنفسهم ليكون الأنموذج متحققا والتأسي ممكناً.

والتدخّل الربّاني وإن كان يأتي في أحلك الظروف كتحقيق لوعد الله بالنصر لكن هذا لا يكون إلاّ حين يستفرغ العبد ملأ المساحة الممكنة مما يدخل تحت القدرة البشرية، فحينئذ يأتي التدخّل.

تأمّل قصة فرعون مع موسى، ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾[الشعراء: ٦١-٦٣].

رغم هذا الظرف الحالك الذي استفرغ البشر فيه كلّ طاقته حتى أصبح بين فكي كماشة كما يُقال، يأتي الأمر الإلهي لموسى أن يضرب بعصاه، فلماذا ؟ لا شكّ أنّ ضرب العصا لا يحقق شيئا في العادة لكنّ الرب تعالى يعلمنا أنّ التدخّل الرباني لا يأتي إلا حين يصل المجهود البشري إلى حدوده النهائية التي لا يمكنه تجاوزها فحينئذ يأتي النصر، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

عُدنا

واستفتح أبو جهل في ذلك اليوم فقال: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرفه فأحنه الغداة اللهم أينا كان أحب إليك وأرضى عندك فانصره اليوم فأنزل الله عز و جل: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩].

فوضع المسلمون أيديهم في العدو يقتلون ويأسرون، ولما بردت الحرب وولى القوم منهزمين قال رسول الله ﷺ: « من ينظر لنا ما صنع أبو جهل ؟ » فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد وأخذ بلحيته فقال: أنت أبو جهل ؟ فقال: لمن الدائرة اليوم ؟ فقال: لله ولرسوله وهل أخزاك الله يا عدو الله ؟ فقال: وهل فوق رجل قتله

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

قومه ؟ فقتله عبد الله ثم أتى النبي ﷺ فقال: قتلته: فقال: « الله الذي لا إله إلا هو » فرددها ثلاثا ثم قال: « الله أكبر الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده انطلق أرنيه» فانطلقنا فأريته إياه فقال: « هذا فرعون هذه الأمة ».

يا حسرة على العباد

ولما انقضت الحرب أقبل رسول الله ﷺ حتى وقف على القتلى فقال: « بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدّقني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس ».

ثم أمر بهم فسحبوا إلى قليب من قلب بدر فطرحوا فيه ثم وقف عليهم فقال: « يا عتبة بن ربيعة ويا شيبة بن ربيعة ويا فلان ويا فلان هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا فإني وجدت ما وعدني ربي حقا » فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله ! ما تخاطب من أقوام قد جيفوا ؟ فقال: « والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون الجواب ».

ثم أقام رسول الله ﷺ بالعرصة ثلاثاً وكان إذا ظهر على قوم أقام بعرصتهم ثلاثاً.

ثم ارتحل مؤيداً منصوراً قرير العين بنصر الله له ومعه الأسارى والمغانم فلما كان بالصفراء قسم الغنائم وضرب عنق النضر بن الحارث بن كلدة ثم لما نزل بعرق الظبية ضرب عنق عقبة بن أبي معيط.

ودخل النبي ﷺ المدينة مؤيدا مظفرا منصورا قد خافه كل عدو له المدينة وحولها فأسلم بشر كثير من أهل المدينة وحينئذ دخل عبد الله بن أبي المنافق وأصحابه في الإسلام ظاهراً.

وجملة من حضر بدرا من المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا من المهاجرين ستة وثمانون ومن الأوس أحد وستون ومن الخزرج مائة وسبعون.

واستشهد من المسلمين يومئذ أربعة عشر رجلا: ستة من المهاجرين وستة من الخزرج واثنان من الأوس وفرغ رسول الله ﷺ من شأن بدر والأسارى في شوال.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

فكرة

يبدو من تأمّل سياق الغزوة أنّها تدبير ربّاني، وإلاّ فكلا الطرفان لم يكن على أهبة واستعداد لخوض معركة عسكريّة، فما هي الحكمة من هذا التدبير.

إذا كنا نقول إنّ الله لم يوجب على النّبيّ ﷺ وأصحابه قتالاً مراعاة لحال الدّولة الفتيّة، فما حكمة تدبير مواجهة مبكّرة بين الكفر والإسلام وهي مواجهة غير متكافئة من حيث العدد والعدّة بل وحتّى التهيئة النفسية لم تكن في مستواها المطلوب، وهذا حكاه القرآن، تأمّل هذه الآيات: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[الأنفال: ٧].

وهذه الآيات وما بعدها من أجمل ما يمكن أن تقرأ في وصف غزوة عسكرية لا من حيث الظاهر فقط وإنّما من حيث التحليل النفسي للمشاركين في الغزوة وبيان عوامل الهزيمة التي لحقت بالكفار وعوامل النصر الإسلامي.

فكأنّ الله تعالى عرف بعلمه ورحمته أنّ إيجاب القتال في هذه المرحلة تكليف لا طاقة للعصبة المؤمنة به، ولا قدرة للدولة الناشئة عليه، فلمّا كان الأمر الشرعي غير مستوعب بعد لهذه الفكرة جاء الأمر القدري ليحملها بكلّ ضماناتها، ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[الأنفال: ٧]، فالنصر حاصل حاصل بتقدير الربّ تعالى، والإرادة هنا قدرية كونية، بمعنى أنّ الله تعالى قدّر أحداث هذه الوقعة ليحقق بها نتيجة مطلوبة وهي أن يحق الحق ويقطع دابر الكفر.

كما كانت هذه الوقعة العظيمة إثباتاً يستلّ من نفوس المؤمنين أيّ شكّ في وعد الله، ليطمئنّ قلب كل مؤمن ويقرّ قراره ويسكن إلى قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج: ٣٩].

«إنها لحال تتكشف فيها النفس البشرية أمام الخطر المباشر؛ ويتجلى فيها أثر المواجهة الواقعية – على الرغم من الاعتقاد القلبي – والصورة التي يرسمها القرآن هنا جديرة بأن تجعلنا نتواضع في تقديرنا لمتطلبات الاعتقاد في مواجهة الواقع؛ فلا نغفل طاقة النفس البشرية وذبذباتها عند المواجهة؛ ولا نيئس من أنفسنا ولا من النفس البشرية

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

جملة حين نراها تهتز في مواجهة الخطر – على الرغم من طمأنينة القلب بالعقيدة – فحسب هذه النفس أن تثبت بعد ذلك وتمضي في الطريق، وتواجه الخطر فعلاً، وتنتصر على الهزة الأولى!.. لقد كان هؤلاء هم أهل بدر، الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: « وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر اطلاعة، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم ». وهذا يكفي..

ولقد بقيت العصبة المسلمة تود أن لو كانت غير ذات الشوكة هي التي كتب الله عليهم لقاءها ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]..هذا ما أرادته العصبة المسلمة لأنفسها يومذاك. أما ما أراده الله لهم، وبهم، فكان أمراً آخر: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[الأنفال: ٧].

لقد أراد الله – وله الفضل والمنة – أن تكون ملحمة لا غنيمة؛ وأن تكون موقعة بين الحق والباطل، ليحق الحق ويثبته، ويبطل الباطل ويزهقه. وأراد أن يقطع دابر الكافرين، فيقتل منهم من يقتل، ويؤسر منهم من يؤسر، وتذل كبرياؤهم، وتخضد شوكتهم، وتعلو راية الإسلام وتعلو معها كلمة الله، ويمكن الله للعصبة المسلمة التي تعيش بمنهج الله، وتنطلق به لتقرير ألوهية الله في الأرض، وتحطيم طاغوت الطواغيت، وأراد أن يكون هذا التمكين عن استحقاق لا عن جزاف – تعالى الله عن الجزاف – وبالجهد والجهاد، وبتكاليف الجهاد ومعاناتها في عالم الواقع وفي ميدان القتال.

نعم. أراد الله للعصبة المسلمة أن تصبح أمة؛ وأن تصبح دولة؛ وأن يصبح لها قوة وسلطان.. وأراد لها أن تقيس قوتها الحقيقية إلى قوة أعدائها. فترجح ببعض قوتها على قوة أعدائها! وأن تعلم أن النصر ليس بالعدد وليس بالعدة، وليس بالمال والخيل والزاد... إنما هو بمقدار اتصال القلوب بقوة الله التي لا تقف لها قوة العباد. وأن يكون هذا كله عن تجربة واقعية، لا عن مجرد تصور واعتقاد قلبي. ذلك لتتزود العصبة المسلمة من هذه التجربة الواقعية لمستقبلها كله؛ ولتوقن كل عصبة مسلمة أنها تملك في كل زمان وفي كل مكان أن تغلب خصومها وأعداءها مهما تكن هي من

القلة ويكن عدوها من الكثرة؛ ومهما تكن هي من ضعف العدة المادية ويكن عدوها من الاستعداد والعتاد.. وما كانت هذه الحقيقة لتستقر في القلوب كما استقرت بالمعركة الفاصلة بين قوة الإيمان وقوة الطغيان.

وينظر الناظر اليوم، وبعد اليوم، ليرى الآماد المتطاولة بين ما أرادته العصبة المسلمة لنفسها يومذاك وما أراده الله لها. بين ما حسبته خيراً لها وما قدره الله لها من الخير.. ينظر فيرى الآماد المتطاولة؛ ويعلم كم يخطئ الناس حين يحسبون أنهم قادرون على أن يختاروا لأنفسهم خيراً مما يختاره الله لهم؛ وحين يتضررون مما يريده الله لهم مما قد يعرضهم لبعض الخطر أو يصيبهم بشيء من الأذى. بينما يكمن وراءه الخير الذي لا يخطر لهم ببال، ولا بخيال!

فأين ما أرادته العصبة المسلمة لنفسها مما أراده الله لها؟ لقد كانت تمضي – لو كانت لهم غير ذات الشوكة – قصة غنيمة. قصة قوم أغاروا على قافلة فغنموها! فأما بدر فقد مضت في التاريخ كله قصة عقيدة. قصة نصر حاسم وفرقان بين الحق والباطل. قصة انتصار الحق على أعدائه المدججين بالسلاح المزودين بكل زاد؛ والحق في قلة من العدد، وضعف في الزاد والراحلة. قصة انتصار القلوب حين تتصل بالله، وحين تتخلص من ضعفها الذاتي. بل قصة انتصار حفنة من القلوب من بينها الكارهون للقتال! ولكنها ببقيتها الثابتة المستعلية على الواقع المادي، وبيقينها في حقيقة القوى وصحة موازينها، قد انتصرت على نفسها، وانتصرت على من فيها، وخاضت المعركة والكفة راجحة رجحاناً ظاهراً في جانب الباطل؛ فقلبت بيقينها ميزان الظاهر؛ فإذا الحق راجح غالب.

ألا إن غزوة بدر – بملابساتها هذه – لتمضي مثلاً في التاريخ البشري. ألا وإنها لتقرر دستور النصر والهزيمة؛ وتكشف عن أسباب النصر وأسباب الهزيمة.. الأسباب الحقيقية لا الأسباب الظاهرة المادية.. ألا وإنها لكتاب مفتوح تقرؤه الأجيال في كل زمان وفي كل مكان، لا تتبدل دلالتها ولا تتغير طبيعتها. فهي آية من آيات الله، وسنة من سننه الجارية في خلقه، ما دامت السماوات والأرض».

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

غزوة أحد

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ
تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ
أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا
وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ
عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو
فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

[آل عمران: ١٥٢]

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

أُثبت أُحد

هذه المعركة من أبرز المعارك في التاريخ الإسلامي قاطبة، وقد جاء ذكرها عدة مرات في القرآن الكريم، ورغم أنّ بدر الكبرى أخذت شهرة واسعة من حيث نتائجها الإيجابية، إلاّ أنّ أحداً كانت ذات الصيت المزاحم لها من حيث الدروس الّتي حوتها والعبر الّتي انبثقت منها.

وقعت معركة أحد في شهر شوال من السنة الثالثة من الهجرة، وكانت المواجهة الثانية مع الكفار، وقد كانت سريعة بعد معركة بدر.

وفي ظني أنّ هذه المعركة جاءت في سياق حقيقي اختفى فيه عنصر المفاجأة، فكان اختباراً آخر للقدرة القتالية والعسكرية لدى جيش المسلمين.

ففي معركة بدر التي كانت تقديراً عجيبا من الله تعالى وكانت بغير ميعاد ولا تجهيز كاف مالت الكفة لصالح المسلمين بعوامل بعضها إيماني بحت، فقد كان النصر تدخلا ربانياً لا يمكن أن تكون نتائج تلك المعركة مقياساً حقيقيا لقدرات المسلمين.

بينما جاءت معركة أحد في سياق آخر، ولهذا نلاحظ أنّها وقعة مليئة بالصور والأحداث والدروس حتّى شغلت السياق القرآني في آيات عديدة.

فهي معركة تم الاستعداد لها مبكراً، وعلم النّبيّ ﷺ أنّه سيواجه جيشا فأخذ أهبته.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

فالوقعة اليوم اختبار حقيقي للقدرة الذاتية.

ولهذا لابدّ أن نتوقّف عند صور ومشاهد مهمة ندرك بها حكمة الله تعالى ودروسه الّتي بثّها في هذه المعركة[١].

سبب المعركة

كانت معركة بدر ضربة موجعة لقريش، قُتل فيها أكابرهم، وكُسرت فيها شوكتهم، وتسامعت العرب بما كان بينهم وبين المسلمين الذين كانوا أقلّ منهم عدداً وعُدّة.

وقد بلغ منهم هذا الأمر من الغيظ والحقد مبلغاً عظيماً، فكان لابدّ من قومة جديدة يردّون فيها بعض ما لحقهم من الهزيمة، ويستعيدون بها شيئاً من هيبتهم التي ضاعت ومكانتهم الّتي اهتزّت بسبب وقعة بدر.

وهذا يعني أنّ الانتصار الساحق الذي حققه المسلمون في بدر له مسؤولية لا تقل عن مسؤولية الهزيمة.

فالمهزوم يملك هو خيار التوقف، أمّا المنتصر فإنّ قرار التوقف عن المواجهة ليس بيده، بل هو في يد غريمه الذي يجب أن يعوّض خسارته، والتعويض هنا هو الثأر.

لقد أصبح هدف القضاء على الدعوة منغمسا الآن في هدف أشدّ ضراوة عند العرب، وهو الثأر، فطالما شكّل الثّأر وطلبه حافزا وصوتا يستثير الجميع ويغلب على كلّ صوت حتّى صوت العقل.

ولهذا جاءت معركة أحد في سياق الثأر لقتلى وجرحى بدر، والثأر للسمعة والكرامة التي مُرّغت بالأرض في قلبان بدر.

ومن هنا أصبحنا نعرف أنّ من أهمّ الدروس الّتي يجب تعلمها أنّ الاستعداد العسكري والسياسي والاقتصادي للقتال لا يجوز أن يكون محدوداً قريب الغاية والأمد.

بل يجب أن يكون استعدادا محسوبا فيه بدقة تسلسلات الأحداث المستقبلية، وأن يكون حجم التوقع وحساسيته عالية، بحيث يُحسب للنصر حسابه كما يُحسب للهزيمة.

---

(١) غالب سياق المعركة من الرحيق المختوم.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

فالأمر لم يكن مقتصرا على وقعة عسكرية ينتصر فيها طرف ثم يولي، بل ما دام في الطرف الآخر قدرة نفسية ومادية على القتال فإنّه سيظل يقاتل إلى آخر رمق.

ولهذا جاءت نتيجة بدر سريعة من خلال هذه المواجهة الثانية وهي صعبة شديدة كما سنرى.

ومن حسن تقدير الله أنّها جاءت سريعة، إذ لم يعد هناك وقت كاف ليستفيد المسلمون هذه العبر في مدة حياة النّبيّ ﷺ والّتي أوشكت على النهاية.

ثوار

كان عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وأبو سفيان بن حرب، وعبد الله بن أبي ربيعة أكثر زعماء قريش نشاطاً وتحمساً لخوض المعركة.

وأول ما فعلوه بهذا الصدد أنهم احتجزوا العير التي كان قد نجا بها أبو سفيان، والتي كانت سبباً لمعركة بدر، وقالوا للذين كانت فيها أموالهم: يا معشر قريش، إن محمداً قد وَتَرَكُم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه ؛ لعلنا أن ندرك منه ثأراً، فأجابوا لذلك، فباعوها، وكانت ألف بعير، والمال خمسين ألف دينار، وفي ذلك أنزل الله تعالي: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾[الأنفال: ٣٦].

ثم فتحوا باب التطوع لكل من أحب المساهمة في غزو المسلمين، ولم يمر عام إلاّ وقد استكملت قريش الاستعدادات لغزو المدينة، وكانت القيادة العامة إلى أبي سفيان بن حرب، وقيادة الفرسان إلى خالد بن الوليد يعاونه عكرمة بن أبي جهل. أما اللواء فكان إلى بني عبد الدار.

وصل جيش المشركين إلى المدينة ونزل قريبا من جبل أحد حيث عسكر هناك يوم الجمعة السادس من شهر شوال سنة ثلاث من الهجرة.

وكان قوام الجيش ثلاثة آلاف مقاتل، ورأى قادة قريش أن يستصحبوا معهم النساء حتى يكون ذلك أبلغ في استماتة الرجال دون أن تصاب حرماتهم وأعراضهم، وكان عدد هذه النسوة خمس عشرة امرأة.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وكان معهم ثلاثة آلاف بعير، و مائتا فرس، و سبعمائة درع.

الشورى ورأي الأكثرية

وعندما علم به المسلمون قدّم النّبيّ ﷺ رأيه إلى صحابته ألا يخرجوا من المدينة وأن يتحصنوا بها، فإن أقام المشركون بمعسكرهم أقاموا بِشَرٍّ مُقَام وبغير جدوى، وإن دخلوا المدينة قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة، والنساء من فوق البيوت، ووافقه على هذا الرأي عبد الله بن أبي بن سلول ـ رأس المنافقين ـ وكان قد حضر المجلس بصفته أحد زعماء الخزرج.

لكنّ جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر ومن غيرهم، أشاروا على النبي ﷺ بالخروج، وألحوا عليه في ذلك حتى قال قائلهم: يا رسول الله، كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله، فقد ساقه إلينا وقرب المسير، اخرُج إلى أعدائنا، لا يرون أنا جَبُنَّا عنهم.

وكان في مقدمة هؤلاء المتحمسين حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ ـ الذي كان قد أبلى أحسن بلاء في معركة بدر ـ فقد قال للنبي ﷺ: والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة.

وتنازل رسول الله ﷺ عن رأيه مراعاة لهؤلاء المتحمسين، واستقر الرأي على الخروج من المدينة، واللقاء في الميدان السافر.

فنهض ودخل بيته ولبس لامته وخرج عليهم وقد انثنى عزم أولئك المتحمسين وقالوا: أكرهنا رسول اللهّ ﷺ على الخروج فقالوا: يا رسول اللهّ إن أحببت أن تمكث في المدينة فافعل فقال رسول اللهّ ﷺ: « **ما ينبغي لنبيّ إذا لبس لامته أن يضعها حتّى يحكم اللهّ بينه وبين عدوّه** ».

وأخبرهم النّبيّ ﷺ عن رؤيا رآها، قال: « **إني قد رأيت والله خيراً، رأيت بقراً يذبح، ورأيت في ذُبَاب سيفي ثُلْماً، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة** »، وقد تأوّل البقر بنفر من أصحابه يقتلون، وتأول الثلمة في سيفه برجل يصاب من أهل بيته، وتأول الدرع بالمدينة، وفي هذا دلالة على أنّ المؤمن لا يجوز أن يصدّه عن حزمه رؤيا رآها وإن تأولها بصدق، بل عليه التوكل على الله والإيمان والرضا بالقدر.

درس

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وكان هذا أوّل درس مر بالمسلمين، ألا وهو اختلافهم على النّبيّ ﷺ وإصرارهم على الخروج رغم أنّه ﷺ لم يتنازل لهم قناعة برأيهم، وإنّما كان درساً في تحمّل مسؤوليّة الرأي وأن يذوق صاحبه حلاوته ومرارته، إذ لو أصرّ النّبيّ ﷺ على موقفه فكانت أحداث أحد كما هي لربما فتح الباب لقائل أن يقول ولائم أن يلوم، أما وقد أصرّوا على رأيهم فليكُن.

كما كان في موقف النّبيّ ﷺ درس آخر إذ كأنّه يقول: إنّ المضي وأخذ الحزم فيما استقرّ عليه الرأي، خير من التردّد والمضي بلا قناعة.

« واقعية المنهج الإلهي.. فمن وسائل هذا المنهج لإنشاء آثاره في عالم الواقع مزاولته بالفعل فهو لا يقدم مبادئ نظرية ولا توجيهات مجردة.. ولكنه يطبق ويزاول نظرياته وتوجيهاته. وأظهر مثل على واقعية المنهج في هذه الغزوة هو موقفه إزاء مبدأ الشورى..

لقد كان في استطاعة رسول الله – ﷺ – أن يجنب الجماعة المسلمة تلك التجربة المريرة التي تعرضت لها – وهي بعد ناشئة ومحاطة بالأعداء من كل جانب والعدو رابض في داخل أسوارها ذاتها – نقول كان في استطاعة رسول الله – ﷺ – أن يجنب الجماعة المسلمة تلك التجربة المريرة التي تعرضت لها لو أنه قضى برأيه في خطة المعركة مستنداً إلى رؤياه الصادقة؛ وفيها ما يشير إلى أن المدينة درع حصينة؛ ولم يستشر أصحابه أو لم يأخذ بالرأي الذي انجلت المشورة عن رجحانه في تقدير الجماعة! أو لو أنه رجع عن الرأي عندما سنحت له فرصة الرجوع وقد خرج من بيته فرأى أصحاب هذا الرأي نادمين أن يكونوا قد استكرهوه على غير ما يريد!

ولكنه – وهو يقدر النتائج كلها – أنفذ الشورى، وأنفذ ما استقرت عليه ذلك كي تجابه الجماعة المسلمة نتائج التبعة الجماعية وتتعلم كيف تحتمل تبعة الرأي وتبعة العمل. لأن هذا في تقديره ﷺ وفي تقدير المنهج الإسلامي الذي ينفذه أهم من اتقاء الخسائر الجسيمة ومن تجنيب الجماعة تلك التجربة المريرة. فتجنيب الجماعة التجربة معناه حرمانها الخبرة وحرمانها المعرفة وحرمانها التربية!

ثم يجيء الأمر الإلهي له بالشورى – بعد المعركة كذلك – تثبيتاً للمبدأ في مواجهة نتائجه المريرة.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

فيكون هذا أقوى وأعمق في إقراره من ناحية وفي إيضاح قواعد المنهج من ناحية..

إن الإسلام لا يؤجل مزاولة المبدأ حتى تستعد الأمة لمزاولته!

فهو يعلم أنها لن تستعد أبداً لمزاولته إلا إذا زاولته فعلاً وإن حرمانها من مزاولة مبادئ حياتها الأساسية – كمبدأ الشورى – شر من النتائج المريرة التي تتعرض لها في بدء استعماله وأن الأخطاء في مزاولته – مهما بلغت من الجسامة – لا تبرر إلغاءه بل لا تبرر وقفة فترة من الوقت لأنه إلغاء أو وقف لنموها الذاتي ونمو خبرتها بالحياة والتكاليف. بل هو إلغاء لوجودها كأمة إطلاقاً!

وهذا هو الإيحاء المستفاد من قوله تعالى – بعد كل ما كان من نتائج الشورى في المعركة: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾[آل عمران: ١٥٩].

كما أن المزاولة العملية للمبادئ النظرية تتجلى في تصرف الرسول – ﷺ – عندما رفض أن يعود إلى الشورى بعد العزم على الرأي المعين واعتباره هذا تردداً وأرجحة. وذلك لصيانة مبدأ الشورى ذاته من أن يصبح وسيلة للتأرجح الدائم والشلل الحركي. فقال قولته التربوية المأثورة: « ما كان لنبي أن يضع لأمته حتى يحكم الله له ». ثم جاء التوجيه الإلهي الأخير: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾.. فتطابق في – المنهج – التوجيه والتنفيذ».

درس آخر

خرج النّبيّ ﷺ ومعه ألف من أصحابه، أي أنّ الكفار يفوقون المسلمين بضعفين، وكان ذلك يوم الجمعة، وبات على مقربة من أحد، وقبل طلوع الفجر بقليل سار بالجيش، حتى إذا كان بالشَّوْط صلى الفجر، وكان بمقربة جداً من العدو، فقد كان يراهم ويرونه، وهناك تمرد عبد الله بن أبي المنافق، فانسحب بنحو ثلث العسكر ـ ثلاثمائة مقاتل ـ قائلاً: ما ندري علام نقتل أنفسنا ؟ ومتظاهراً بالاحتجاج بأن الرسول ﷺ ترك رأيه وأطاع غيره، وقال: تخالفني وتسمع من غيري، يعني في الخروج لقتال الكفار.

وكانت حجّة ابن أبيّ تلك مجرّد شمّاعة يعلّق عليها فشله ونيّته في خذلان النّبيّ ﷺ وأصحابه، وكانت تلك نعمة من الله تعالى، فالمنافق في صفوف المسلمين ثقل وعائق فالتخفف منه كان حكمة ربانية، والمؤلم في الأمر أنّ المنسحبين

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

مع ابن أبيّ ثلث الجيش أي قرابة الثلاثمئة وهذا عدد كبير يبين لك مدى خطورة الوضع في المدينة في ذلك العهد إذ يوجد فيها ثلاثمئة منافق أو سمّاع لهم على أقل تقدير.

وهكذا أصبح جيش المسلمين سبعمائةٍ فيهم خمسون فارسًا، ومع ذلك لم يثن ذلك عزيمة النّبيّ ﷺ وسار ليقاتل بمن أطاعه من عصاه.

عوداً إلى المعركة

ونفذ رسول الله ﷺ حتى نزل الشعب من جبل أحد في عدوة الوادي، فعسكر بجيشه مستقبلاً المدينة، وجاعلا ظهره إلى هضاب جبل أحد، وعلى هذا صار جيش العدو فاصلاً بين المسلمين وبين المدينة.

وهناك عبأ رسول الله ﷺ جيشه، وهيأهم صفوفاً للقتال، فاختار منهم فصيلة من الرماة الماهرين، قوامها خمسون مقاتلاً، وأعطي قيادتها لعبد الله بن جبير، وأمرهم بالتمركز على جبل يقع على الضفة الشمالية من وادي قناة ـ وعرف فيما بعد بجبل الرماة.

والهدف من ذلك هو ما أبداه رسول الله ﷺ في كلماته التي ألقاها إلى هؤلاء الرماة، فقد قال لقائدهم: « **انضح الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك، لا نؤتين من قبلك** » وقال للرماة: « **احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نُقتَل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا**»، وفي رواية البخاري أنه قال: « **إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم ووطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم** ».

والحقيقة أنّ تأكيد النّبيّ ﷺ يؤكّد ما حباه الله من نظرة مستقبلية وتخطيط لما بعد النّصر.

فالنّبيّ ﷺ أدرك أنّ النصر الحاسم ليس في كسب جولة المعركة، بل لا يكون ذلك إلاّ بعد أن تنقضي فترة زمنية يتبيّن بها هزيمة العدوّ ويأسهم من الكرّ بعد الفر.

ولهذا صدق حدسه ﷺ كما سنرى فيما يأتي من أحداث.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

مشاهد المعركة

جهود نسوة قريش في التحميس

وقامت نسوة قريش بنصيبهن من المشاركة في المعركة، تقودهن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان، فكن يتجولن في الصفوف، ويضربن بالدفوف؛ يستنهضن الرجال، ويحرضن على القتال، ويثرن حفائظ الأبطال، ويحركن مشاعر أهل الطعان والضراب والنضال.

قلتُ: والإتيان بالنساء رغم أثره النفسي إلاّ أنّه بالنسبة لقريش لم يكن مجرد عامل تحفيزي، بل كان يمثّل عقيدة الحرب لدى الكفار، ألا وهو الفخر والخيلاء والرياء والسمعة، وهذا فارق كبير بينهم وبين الفئة المؤمنة التي كانت تقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، وتقاتل لتنال إحدى الحسنيين: القتل أو الشهادة، فالغنيمة بالنسبة للمقاتل المؤمن مضمونة فهو في أيّ حال تنتهي إليه أحداث المعركة منتصر.

واشتعل الفتيل

اندلعت نيران المعركة، واشتد القتال بين الفريقين في كل نقطة من نقاط الميدان، وكان ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين، فقد تعاقب بنو عبد الدار لحمل اللواء بعد قتل قائدهم طلحة بن أبي طلحة حتى قُتلوا عن بكرة أبيهم.

بينما كان ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين كان القتال المرير يجري في سائر نقاط المعركة، وكانت روح الإيمان قد سادت صفوف المسلمين، فانطلقوا خلال جنود الشرك انطلاق الفيضان تتقطع أمامه السدود، وهم يقولون: « أَمِت، أَمِت » كان ذلك شعاراً لهم يوم أحد.

مقتل أسد الله حمزة

يقول قاتل حمزة وحْشِي بن حرب: كنت غلاماً لجبير بن مُطْعِم، وكان عمه طُعَيمَة بن عدي قد أصيب يوم بدر، فلما سارت قريش إلى أحد قال لي جبير: إنك إن قتلت حمزة عم محمد بعمي فأنت عتيق. قال: فخرجت مع الناس ـ وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة، قلما أخطئ بها شيئاً ـ فلما التقي الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره، حتى رأيته في عرض الناس مثل الجمل الأوْرَق، يهُدُّ الناس هدّا ما يقوم له شيء. فوالله إني لأتهيأ له أريده، فأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو مني، قال: وهززت حربتي حتى إذا رضيت منها

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

دفعتها إليه، فوقعت في ثُنَّتِه ـ أحشائه ـ حتى خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء نحوي فَغُلِبَ، وتركته وإياها حتى مات، ثم أتيته فأخذت حربتي، ثم رجعت إلى العسكر فقعدت فيه، ولم يكن لي بغيره حاجة، وإنما قتلته لأعتق، فلما قدمت مكة عتقت.

و رغم أنّ مقتل حمزة شكّل خسارة فادحة للمسلمين، فقد ظل المسلمون مسيطرين على الموقف كله. وقاتل الصحابة قتالاً فَلَّ عزائم المشركين، وفتَّ في أعضادهم.

وكانت للفصيلة التي عينها الرسول ﷺ على جبل الرماة يد بيضاء في إدارة دفة القتال لصالح الجيش الإسلامي، فقد هجم فرسان مكة بقيادة خالد بن الوليد يسانده أبو عامر الفاسق ثلاث مرات؛ ليحطموا جناح الجيش الإسلامي الأيسر، حتى يتسربوا إلى ظهور المسلمين، فيحدثوا البلبلة والارتباك في صفوفهم وينزلوا عليهم هزيمة ساحقة، ولكن هؤلاء الرماة رشقوهم بالنبل حتى فشلت هجماتهم الثلاث.

عند ذلك خارت عزائم أبطال المشركين، وأخذت صفوفهم تتبدد عن اليمين والشمال والأمام والخلف، وبعد أن بذلت قريش أقصى جهدها لصد هجوم المسلمين أحست بالعجز والخور، وانكسرت همتها ـ حتى لم يجترئ أحد منها أن يدنو من لوائها الذي سقط فيحمله ليدور حوله القتال ـ فأخذت في الانسحاب، ولجأت إلى الفرار، ونسيت ما كانت تتحدث به في نفوسها من أخذ الثأر والوتر والانتقام، وإعادة العز والمجد والوقار.

غلطة الرماة الفظيعة

هنا يأتي درس جديد من دروس المعركة، أو وهو اثر معصية الرّسول ﷺ، والتدخّل بالتأويل في كلامه الواضح البيّن، فرغم أنّ النّبيّ ﷺ أمر الرّماة أن لا يبرحوا أماكنهم حتّى يأذن لهم هو بنفسه إلاّ أنّ جمهرتهم لم ينصاعوا لهذا الأمر الصريح وتدخّلوا بتأويله لصالح ما غلبهم ساعتها من حبّ الدّنيا، قال ابن مسعود رضي الله عنه: « ما كنت أرى أحدًا من أصحاب رسول اللهّ ﷺ يريد الدّنيا حتّى سمعت هذه الآية » يعني قوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنيَا﴾.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

إذ لما رأى هؤلاء الرماة أن المسلمين ينتهبون غنائم العدو قال بعضهم لبعض: الغنيمة، الغنيمة، ظهر أصحابكم، فما تنتظرون ؟

أما قائدهم عبد الله بن جبير، فقد ذكرهم أوامر الرسول ﷺ، وقال: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟

ولكن الأغلبية الساحقة لم تلق لهذا التذكير بالاً، وقالت: والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة. ثم غادر أربعون رجلاً أو أكثر هؤلاء الرماة مواقعهم من الجبل، والتحقوا بسَوَاد الجيش ليشاركوه في جمع الغنائم. وهكذا خلت ظهور المسلمين، ولم يبق فيها إلا ابن جبير وتسعة أو أقل من أصحابه والتزموا مواقفهم مصممين على البقاء حتى يؤذن لهم أو يبادوا.

وانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة الذهبية، فكرَّ بسرعة خاطفة إلى جبل الرماة ليدور من خلفه إلى مؤخرة الجيش الإسلامي، فلم يلبث أن أباد عبد الله بن جبير وأصحابه إلا البعض الذين لحقوا بالمسلمين، ثم انقض على المسلمين من خلفهم، وصاح فرسانه صيحة عرف بها المشركون المنهزمون بالتطور الجديد فانقلبوا على المسلمين، وأسرعت امرأة منهم ـ وهي عمرة بنت علقمة الحارثية ـ فرفعت لواء المشركين المطروح على التراب، فالتف حوله المشركون ولاثوا به، وتنادي بعضهم بعضاً، حتى اجتمعوا على المسلمين، وثبتوا للقتال، وأحيط المسلمون من الأمام والخلف، ووقعوا بين شِقَّي الرحي.

وهنا وقع بجيش المسلمين الخذلان وأصبحوا لقمة سائغة للمشركين ففر منهم من فرّ، وقتل منهم من قتل، ومع هذا فقد سجّل التاريخ أروع قصص الشجاعة والاستبسال.

موقف لا ينساه التاريخ

بينما كانت البقية من جيش المسلمين تتلقى أواصر التطويق، وتطحن بين شِقَّي رَحَي المشركين، كان العراك محتدماً حول رسول الله ﷺ، وقد ذكرنا أن المشركين لما بدءوا عمل التطويق لم يكن مع رسول الله ﷺ إلا تسعة نفر، فلما نادي المسلمين: « **هلمّوا إلي، أنا رسول الله** »، سمع صوته المشركون وعرفوه، فكروا إليه وهاجموه، ومالوا إليه بثقلهم قبل أن يرجع إليه أحد من جيش المسلمين، فجرى بين المشركين وبين هؤلاء النفر التسعة من الصحابة عراك عنيف ظهرت فيه نوادر الحب والتفاني والبسالة والبطولة.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رهقوه قال: « من يردهم عنا وله الجنة ؟ أو هو رفيقي في الجنة؟» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ثم رهقوه أيضاً فقال: « من يردهم عنا وله الجنة، أو هو رفيقي في الجنة ؟» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه ـ أي القرشيين: « ما أنصفنا أصحابنا ».

وكان آخر هؤلاء السبعة هو عمارة بن يزيد بن السَّكَن، قاتل حتى أثبتته الجراحة فسقط.

أحرج ساعة في حياة الرسول ﷺ.

وبعد سقوط ابن السكن بقي الرسول في القرشيين فقط، ففي الصحيحين عن أبي عثمان قال: لم يبق مع النبي ﷺ في بعض تلك الأيام التي يقاتل فيهن غير طلحة ابن عبيد الله وسعد ـ بن أبي وقاص ـ وكانت أحرج ساعة بالنسبة إلى حياة رسول الله ﷺ، وفرصة ذهبية بالنسبة إلى المشركين، ولم يتوان المشركون في انتهاز تلك الفرصة، فقد ركزوا حملتهم على النبي ﷺ، وطمعوا في القضاء عليه، رماه عتبة بن أبي وقاص بالحجارة فوقع لشقه، وأصيبت رباعيته اليمنى السفلى، وكُلِمَتْ شفته السفلي، وتقدم إليه عبد الله بن شهاب الزهري فَشَجَّه في جبهته، وجاء فارس عنيد هو عبد الله بن قَمِئَة، فضرب على عاتقه بالسيف ضربة عنيفة شكا لأجلها أكثر من شهر إلا أنه لم يتمكن من هتك الدرعين، ثم ضرب على وجنته ﷺ ضربة أخرى عنيفة كالأولى حتى دخلت حلقتان من حلق المِغْفَر في وجْنَتِه، وقال: خذها وأنا ابن قمئة. فقال رسول الله ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهة « أقمأك الله ».

وفي الصحيح أنه ﷺ كسرت رَبَاعِيَته، وشُجَّ في رأسه، فجعل يَسْلُتُ الدم عنه ويقول: « كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله »، فأنزل الله عز وجل: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

ولا شك أن المشركين كانوا يهدفون القضاء على حياة رسول الله ﷺ إلا أن القرشيين سعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله قاما ببطولة نادرة، وقاتلا ببسالة منقطعة النظير، حتى لم يتركا ـ وهما اثنان فحسب ـ سبيلاً إلى نجاح المشركين في هدفهم، وكانا من أمهر رماة العرب فتناضلا حتى أجهضا مفرزة المشركين عن رسول الله ﷺ.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

فأما سعد بن أبي وقاص، فقد نثل له رسول الله ﷺ كنانته وقال: «**ارْمِ فداك أبي وأمي**»، ويدل على مدى كفاءته أن النبي ﷺ لم يجمع أبويه لأحد غير سعد.

وأما طلحة بن عبيد الله فقد روي النسائي عن جابر قصة تَجَمَّع المشركين حول رسول الله ﷺ ومعه نفر من الأنصار، قال جابر: فأدرك المشركون رسول الله ﷺ فقال: « **من للقوم ؟** » فقال طلحة: أنا، ثم ذكر جابر تقدم الأنصار، وقتلهم واحداً بعد واحد، بنحو ما ذكرنا من رواية مسلم، فلما قتل الأنصار كلهم تقدم طلحة. قال جابر: ثم قاتل طلحة قتال الأحد عشر حتى ضربت يده فقطعت أصابعه، فقال: حَسِّ، فقال النبي ﷺ: « لو قلت: بسم الله، لرفعتك الملائكة والناس ينظرون »، قال: ثم رد الله المشركين. ووقع عند الحاكم في الإكليل أنه جرح يوم أحد تسعاً وثلاثين أو خمساً وثلاثين، وشلت إصبعه، أي السبابة والتي تليها.

وروي البخاري عن قيس بن أبي حازم قال: رأيت يد طلحة شلاء، وقى بها النبي ﷺ يوم أحد.

صور نادرة الحدوث

مرّ أنس بن النضر ببعض المسلمين وقد ألقوا ما بأيديهم فقال: ما تنتظرون ؟ فقالوا: قتل رسول الله ﷺ، قال: ما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ، ثم قال: اللّهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني المسلمين، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، يعني المشركين، ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ، فقال: أين يا أبا عمر؟ فقال أنس: واها لريح الجنة يا سعد، إني أجده دون أحد، ثم مضي فقاتل القوم حتى قتل، فما عرف حتى عرفته أخته ـ بعد نهاية المعركة ـ ببنانه، وبه بضع وثمانون ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم.

ونادى ثابت بن الدَحْدَاح قومه فقال: يا معشر الأنصار، إن كان محمد قد قتل، فإن الله حي لا يموت، قاتلوا على دينكم، فإن الله مظفركم وناصركم. فنهض إليه نفر من الأنصار، فحمل بهم على كتيبة فرسان خالد فما زال يقاتلهم حتى قتله خالد بالرمح، وقتل أصحابه.

ومر رجل من المهاجرين برجل من الأنصار، وهو يَتَشَحَّطُ في دمه، فقال: يا فلان، أشعرت أن محمداً قد قتل ؟ فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قتل فقد بَلَّغ، فقاتلوا عن دينكم.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وفي ذلك الظرف الدقيق والساعة الحرجة أنزل الله نصره بالغيب، ففي الصحيحين عن سعد، قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد، ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد. وفي رواية: يعني جبريل وميكائيل.

وقعت هذه كلها بسرعة هائلة في لحظات خاطفة، وإلا فالمصطفون الأخيار من صحابته ﷺ ـ الذين كانوا في مقدمة صفوف المسلمين عند القتال ـ لم يكادوا يرون تغير الموقف، أو يسمعوا صوته ﷺ حتى أسرعوا إليه ؛ لئلا يصل إليه شيء يكرهونه، إلا أنهم وصلوا وقد لقي رسول الله ﷺ ما لقي من الجراحات ـ وستة من الأنصار قد قتلوا والسابع قد أثبتته الجراحات، وسعد وطلحة يكافحان أشد الكفاح ـ فلما وصلوا أقاموا حوله سياجاً من أجسادهم وسلاحهم، وبالغوا في وقايته من ضربات العدو، ورد هجماته. وكان أول من رجع إليه هو ثانيه في الغار أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

وخلص المشركون إلى رسول اللهّ ﷺ فجرحوا وجهه وكسروا رباعيته اليمنى وكادت السّفلى وهشّموا البيضة على رأسه ورموه بالحجارة حتّى وقع لشقّه وسقط في حفرةٍ من الحفر الّتي كان أبو عامرٍ الفاسق يكيد بها المسلمين فأخذ عليّ بيده واحتضنه طلحة بن عبيد اللهّ وكان الّذي تولّى أذاه ﷺ عمرو بن قمئة وعتبة بن أبي وقّاصٍ وقيل إنّ عبد اللهّ بن شهابٍ الزّهريّ عمّ محمّد بن مسلم بن شهابٍ الزّهريّ هو الّذي شجّه.

وخلال هذه اللحظات الحرجة اجتمع حول النبي ﷺ عصابة من أبطال المسلمين منهم أبو دُجَانة، ومصعب بن عمير، وعلى بن أبي طالب، وسهل بن حنيف، ومالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري، وأم عمارة نُسَيْبة بنت كعب المازنية، وقتادة ابن النعمان، وعمر بن الخطاب، وحاطب بن أبي بلتعة، وأبو طلحة.

البطولات النادرة

وقام المسلمون ببطولات نادرة وتضحيات رائعة، لم يعرف لها التاريخ نظيراً. كان أبو طلحة يسور نفسه بين يدي رسول الله ﷺ، ويرفع صدره ليقيه سهام العدو.

وقام أبو دجانة أمام رسول الله ﷺ، فَتَرَّسَ عليه بظهره. والنبل يقع عليه وهو لا يتحرك.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وتبع حاطب بن أبي بلتعة عتبة بن أبي وقاص ـ الذي كسر الرَّباعية الشريفة ـ فضربه بالسيف حتى طرح رأسه، ثم أخذ فرسه وسيفه، وكان سعد بن أبي وقاص شديد الحرص على قتل أخيه ـ عتبة هذا ـ إلا أنه لم يظفر به، بل ظفر به حاطب.

وكان رسول الله ﷺ يباشر الرماية بنفسه، فعن قتادة بن النعمان: أن رسول الله رمى عن قوسه حتى اندقت سِيتُها، فأخذها قتادة بن النعمان، فكانت عنده، وأصيبت يومئذ عينه حتى وقعت على وَجْنَتِه، فردها رسول الله ﷺ بيده، فكانت أحسن عينيه وأحَدَّهُما.

وقاتل عبد الرحمن بن عوف حتى أصيب فوه يومئذ فهُتِمَ، وجرح عشرين جراحة أو أكثر، أصابه بعضها في رجله فعرج.

وامتص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجنته ﷺ حتى أنقاه، فقال: « مُجَّه »، فقال: والله لا أمجه، ثم أدبر يقاتل، فقال النبي ﷺ: « من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا »، فقتل شهيداً.

وقاتلت أم عمارة فاعترضت لابن قَمِئَة في أناس من المسلمين، فضربها ابن قمئة على عاتقها ضربة تركت جرحاً أجوف، وضربت هي ابن قمئة عدة ضربات بسيفها، لكن كانت عليه درعان فنجا، وبقيت أم عمارة تقاتل حتى أصابها اثنا عشر جرحاً.

وقاتل مصعب بن عمير بضراوة بالغة، يدافع عن النبي ﷺ هجوم ابن قمئة وأصحابه، وكان اللواء بيده، فضربوه على يده اليمنى حتى قطعت، فأخذ اللواء بيده اليسرى، وصمد في وجوه الكفار حتى قطعت يده اليسرى، ثم برك عليه بصدره وعنقه حتى قتل، وكان الذي قتله هو ابن قمئة، وهو يظنه رسول الله ـ لشبهه به ـ فانصرف ابن قمئة إلى المشركين، وصاح: إن محمداً قد قتل.

إشاعة مقتل النبي ﷺ وأثره على المعركة

شاع خبر مقتل النبي ﷺ في المشركين والمسلمين، وهذا هو الظرف الدقيق الذي خارت فيه عزائم كثير من الصحابة المطوقين، الذين لم يكونوا مع رسول الله ﷺ، وانهارت معنوياتهم، حتى وقع داخل صفوفهم ارتباك شديد،

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وعمتها الفوضي والاضطراب، إلا أن هذه الصيحة خففت بعض التخفيف من مضاعفة هجمات المشركين ؛ لظنهم أنهم نجحوا في غاية مرامهم، فاشتغل الكثير منهم بتمثيل قتلي المسلمين.

الرسول ﷺ يواصل المعركة وينقذ الموقف

ولما قتل مصعب أعطي رسول الله اللواء على بن أبي طالب، فقاتل قتالاً شديداً، وقامت بقية الصحابة الموجودين هناك ببطولاتهم النادرة، يقاتلون ويدافعون.

وحينئذ استطاع رسول الله ﷺ أن يشق الطريق إلى جيشه المطوق، فأقبل إليهم فعرفه كعب بن مالك ـ وكان أول من عرفه ـ فنادي بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا، هذا رسول الله ﷺ، فأشار إليه أن اصمت ـ وذلك لئلا يعرف موضعه المشركون ـ إلا أن هذا الصوت بلغ إلى آذان المسلمين، فلاذ إليه المسلمون حتى تجمع حوله حوالى ثلاثين رجلاً من الصحابة.

وبعد هذا التجمع أخذ رسول الله ﷺ في الانسحاب المنظم إلى شعب الجبل، وهو يشق الطريق بين المشركين المهاجمين، واشتد المشركون في هجومهم ؛ لعرقلة الانسحاب إلا أنهم فشلوا أمام بسالة ليوث الإسلام.

تقدم عثمان بن عبد الله بن المغيرة ـ أحد فرسان المشركين ـ إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: لا نجوت إن نجا. وقام رسول الله ﷺ لمواجهته، إلا أن الفرس عثرت في بعض الحفر، فنازله الحارث بن الصِّمَّة، فضرب على رجله فأقعده، ثم ذَفَّفَ عليه وأخذ سلاحه، والتحق برسول الله ﷺ.

وعطف عبد الله بن جابر ـ فارس آخر من فرسان مكة ـ على الحارث بن الصِّمَّة، فضرب بالسيف على عاتقه فجرحه حتى حمله المسلمون ولكن انقض أبو دجانة ـ البطل المغامر ذو العصابة الحمراء ـ على عبد الله بن جابر فضربه بالسيف ضربة أطارت رأسه.

وأثناء هذا القتال المرير كان المسلمون يأخذهم النعاس أمنة من الله، كما تحدث عنه القرآن. قال أبو طلحة: كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مراراً، يسقط وآخذه ويسقط وآخذه.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وبمثل هذه البسالة بلغت هذه الكتيبة ـ في انسحاب منظم ـ إلى شعب الجبل، وشق لبقية الجيش طريقاً إلى هذا المقام المأمون، فتلاحق به في الجبل، وفشلت عبقرية خالد أمام عبقرية رسول الله ﷺ.

آخر هجوم قام به المشركون

ولما تمكن رسول الله ﷺ من مقر قيادته في الشعب قام المشركون بآخر هجوم حاولوا به النيل من المسلمين. قال ابن إسحاق: بينا رسول الله ﷺ في الشعب إذ علت عالية من قريش الجبل ـ يقودهم أبو سفيان وخالد بن الوليد ـ فقال رسول الله ﷺ: « **اللّهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا** »، فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل.

تشويه الشهداء

وكان هذا آخر هجوم قام به المشركون ضد النبي ﷺ، ولما لم يكونوا يعرفون من مصيره شيئاً ـ بل كانوا على شبه اليقين من قتله ـ رجعوا إلى مقرهم، وأخذوا يتهيؤون للرجوع إلى مكة، واشتغل من اشتغل منهم ـ وكذا اشتغلت نساؤهم ـ بقتلى المسلمين، يمثلون بهم.

استعداد أبطال المسلمين للقتال حتى نهاية المعركة

ولما استقر رسول الله ﷺ في مقره من الشِّعب خرج على أبي طالب حتى ملأ دَرَقَته ماء من المِهْرَاس ـ قيل: هو صخرة منقورة تسع كثيراً. وقيل: اسم ماء بأحد ـ فجاء به إلى رسول الله ﷺ ليشرب منه، فوجد له ريحاً فعافه، فلم يشرب منه، وغسل عن وجهه الدم، وصب على رأسه وهو يقول: « **اشتد غضب الله على من دَمَّى وجه نبيه** ».

وقال سهل: والله إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ، ومن كان يسكب الماء، وبما دُووِي ؟ كانت فاطمة ابنته تغسله، وعلى بن أبي طالب يسكب الماء بالمِجَنِّ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير، فأحرقتها، فألصقتها فاستمسك الدم.

وجاء محمد بن مسلمة بماء عذب سائغ، فشرب منه النبي ﷺ ودعا له بخير. وصلى الظهر قاعداً من أثر الجراح، وصلى المسلمون خلفه قعوداً.

شماتة أبي سفيان بعد نهاية المعركة وحديثه مع عمر

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

ولما تكامل تهيؤ المشركين للانصراف أشرف أبو سفيان على الجبل، فنادي أفيكم محمد ؟ فلم يجيبوه. فقال: أفيكم ابن أبي قحافة ؟ فلم يجيبوه. فقال: أفيكم عمر بن الخطاب ؟ فلم يجيبوه ـ وكان النبي ﷺ منعهم من الإجابة ـ ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة لعلمه وعلم قومه أن قيام الإسلام بهم. فقال: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، فلم يملك عمر نفسه أن قال: يا عدو الله، إن الذين ذكرتهم أحياء، وقد أبقى الله ما يسوءك. فقال: قد كان فيكم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني.

ثم قال: أعْلِ هُبَل.

فقال النبي ﷺ: « ألا تجيبونه ؟ » فقالوا: فما نقول ؟ قال قولوا: «الله أعلى وأجل ».

ثم قال: « لنا العُزَّى ولا عزى لكم ».

فقال النبي ﷺ: « ألا تجيبونه؟» قالوا: ما نقول ؟ قال قولوا: «الله مولانا، ولا مولى لكم ».

ثم قال أبو سفيان: أنْعَمْتَ فَعَال، يوم بيوم بدر، والحرب سِجَال.

فأجابه عمر، وقال: لا سواء، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار.

ثم قال أبو سفيان: هلم إليّ يا عمر، فقال رسول الله ﷺ: « ائته فانظر ما شأنه ؟ » فجاءه، فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمداً ؟ قال عمر: « اللّهم لا، وإنه ليستمع كلامك الآن »، قال: أنت أصدق عندي من ابن قَمِئَة وأبر.

التثبت من موقف المشركين

ثم بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، فقال: « اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ؟ وما يريدون ؟ فإن كانوا قد جَنَبُوا الخيل، وامْتَطُوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن كانوا قد ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده، لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها، ثم لأناجزنهم» قال علي: فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون، فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل، ووَجَّهُوا إلى مكة.

صور حزينة بعد المعركة

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وفرغ الناس لتفقّد القتلى والجرحى بعد منصرف قريش. قال زيد بن ثابت: بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع، فقال لي: إن رأيته فأقرئه مني السلام، وقل له: « **يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجدك؟** » قال: فجعلت أطوف بين القتلى، فأتيته وهو بآخر رمق، فيه سبعون ضربة ؛ ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم، فقلت: يا سعد، إن رسول الله يقرأ عليك السلام، ويقول لك: أخبرني كيف تجدك ؟ فقال: وعلى رسول الله ﷺ السلام، قل له، يا رسول الله، أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: « لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف، وفاضت نفسه من وقته ».

ووجدوا في الجرحى الأُصَيرِم ـ عمرو بن ثابت ـ وبه رمق يسير، وكانوا من قبل يعرضون عليه الإسلام فيأباه، فقالوا: إن هذا الأصيرم ما جاء به ؟ لقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الأمر، ثم سألوه: ما الذي جاء بك، أَحَدَبٌ على قومك، أم رغبة في الإسلام ؟ فقال: بل رغبة في الإسلام، آمنت بالله ورسوله، ثم قاتلت مع رسول الله ﷺ حتى أصابني ما ترون، ومات من وقته، فذكروه لرسول الله ﷺ، فقال: « **هو من أهل الجنة** » قال أبو هريرة: ولم يُصَلِّ لله صلاة قط.

وعلى عكس من هذا كان في القتلى رجل من يهود بني ثعلبة، قال لقومه: يا معشر يهود، والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم حق، قالوا: إن اليوم يوم السبت، قال: لا سبت لكم، فأخذ سيفه وعدته، وقال: إن أصبت فمالي لمحمد، يصنع فيه ما شاء، ثم غدا فقاتل حتى قتل، فقال رسول الله ﷺ: « **مُخَيرِيق خير يهود** ».

جمع الشهداء ودفنهم

وأشرف رسول الله ﷺ على الشهداء فقال: « **أنا شهيد على هؤلاء، إنه ما من جريح يُجْرَح في الله إلا والله يبعثه يوم القيامة، يَدْمَي جُرْحُه، اللون لون الدم، والريح ريح المِسْك** ».

وكان أناس من الصحابة قد نقلوا قتلاهم إلى المدينة فأمر أن يردوهم، فيدفنوهم في مضاجعهم وألا يغسلوا، وأن يدفنوا كما هم بثيابهم بعد نزع الحديد والجلود. وكان يدفن الاثنين والثلاثة في القبر الواحد، ويجمع بين الرجلين في

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

ثوب واحد، ويقول: « أيهم أكثر أَخْذًا للقرآن؟ » فإذا أشاروا إلى الرجل قدمه في اللحد، وقال: « أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة »، ودفن عبدالله بن عمرو بن حرام وعمرو بن الجموح في قبر واحد لما كان بينهما من المحبة.

وفقدوا نعش حنظلة، فتفقدوه فوجدوه في ناحية فوق الأرض يقطر منه الماء، فأخبر رسول الله ﷺ أصحابه أن الملائكة تغسله، ثم قال: سلوا أهله ما شأنه ؟ فسألوا امرأته، فأخبرتهم الخبر. ومن هنا سمي حنظلة: غسيل الملائكة.

ولما رأى ما بحمزة ـ عمه وأخيه من الرضاعة ـ اشتد حزنه، وجاءت عمته صفية تريد أن تنظر أخاها حمزة، فأمر رسول الله ﷺ ابنها الزبير أن يصرفها، لا ترى ما بأخيها، فقالت: ولم ؟ وقد بلغني أن قد مُثِّلَ بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله، فأتته فنظرت إليه، فصلت عليه ـ دعت له ـ واسترجعت واستغفرت له، ثم أمر رسول الله ﷺ بدفنه مع عبد الله بن جحش ـ وكان ابن أخته، وأخاه من الرضاعة.

قال ابن مسعود: ما رأينا رسول الله ﷺ باكياً قط أشد من بكائه على حمزة بن عبد المطلب، وضعه في القبلة، ثم وقف على جنازته وانتحب حتى نَشَع من البكاء ـ والنشع: الشهيق.

وكان منظر الشهداء مريعاً جداً يفتت الأكباد، قال خباب: إن حمزة لم يوجد له كفن إلا بردة مَلْحَاء، إذا جعلت على رأسه قَلَصَت عن قدميه، وإذا جعلت على قدميه قلصت عن رأسه، حتى مدت على رأسه، وجعل على قدميه الإِذْخَر.

وقال عبد الرحمن بن عوف: قتل مصعب بن عمير وهو خير مني، كفن في بردة إن غطي رأسه بدت رجلاه، وإن غطي رجلاه بدا رأسه، وروي مثل ذلك عن خباب، وفيه: فقال لنا النبي ﷺ: « غطوا بها رأسه، واجعلوا على رجليه الإذخر ».

الرجوع إلى المدينة، ونوادر الحب والتفاني

ولما فرغ رسول الله من دفن الشهداء والثناء على الله والتضرع إليه، انصرف راجعاً إلى المدينة، وقد ظهرت له نوادر الحب والتفاني من المؤمنات الصادقات، كما ظهرت من المؤمنين في أثناء المعركة.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

لقيته في الطريق حَمْنَة بنت جحش، فنُعِي إليها أخوها عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعي لها خالها حمزة بن عبد المطلب، فاسترجعت واستغفرت، ثم نعي لها زوجها مصعب بن عمير، فصاحت وولوت، فقال رسول الله ﷺ: « إن زوج المرأة منها لبِمَكان».

ومر بامرأة من بني دينار، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها بأحد، فلما نعوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا: خيراً يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فأشير إليها حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جَلَلٌ ـ تريد صغيرة.

وجاءت إليه أم سعد بن معاذ تعدو، وسعد آخذ بلجام فرسه، فقال: يا رسول الله، أمي، فقال: « مرحباً بها »، ووقف لها، فلما دنت عزاها بابنها عمرو بن معاذ. فقالت: أما إذ رأيتك سالماً فقد اشتويت المصيبة ـ أي استقللتها ـ ثم دعا لأهل من قتل بأحد، وقال: «يا أم سعد، أبشري وبشري أهلهم أن قتلاهم ترافقوا في الجنة جميعاً، وقد شفعوا في أهلهم جميعاً». قالت: رضينا يا رسول الله، ومن يبكي عليهم بعد هذا ؟ ثم قالت: يا رسول الله، ادع لمن خلفوا منهم، فقال: «اللّهم أذهب حزن قلوبهم، واجبر مصيبتهم، وأحسن الخَلفَ على من خُلِّفُوا».

قتلى الفريقين

اتفقت جل الروايات على أن قتلي المسلمين كانوا سبعين، وكانت الأغلبية الساحقة من الأنصار؛ فقد قتل منهم خمسة وستون رجلاً، واحد وأربعون من الخزرج، وأربعة وعشرون من الأوس، وقتل رجل من اليهود. وأما شهداء المهاجرين فكانوا أربعة فقط.

وأما قتلى المشركين فقد ذكر ابن إسحاق أنهم اثنان وعشرون قتيلاً، ولكن الإحصاء الدقيق ـ بعد تعميق النظر في جميع تفاصيل المعركة التي ذكرها أهل المغازي والسير، والتي تتضمن ذكر قتلى المشركين في مختلف مراحل القتال ـ يفيد أن عدد قتلي المشركين سبعة وثلاثون، لا اثنان وعشرون، والله أعلم.

تعليق

حرصت أن أذكر بعض الصور المؤلمة التي وقعت في هذه الغزوة، ليعلم كلّ قارئ حجم الكارثة الّتي نزلت بالمسلمين.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

فالأمر ليس في تحليل نتيجة المعركة وتحديد مَن انتصر ومن انهزم، فإنّا نعلم يقينا أنّ رسول الله ﷺ وأصحابه منصورون بكل سبيل، وأنّ العاقبة للمتقين لاشك ولاريب.

وإنّما الشأن في الوقوف على حجم ما أصاب المؤمنين في هذه المعركة من قتل وجراح وأذى وزعزعة واضطراب، حتّى أرّخه الله تعالى في كتابه قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[آل عمران: ١٦٥ – ١٦٦].

لقد كان حقاً بإذن الله قضاء وتقديرا وتدبيراً، ولم يكن ذلك من سخطة سخط بها على نبيّه، وإنّما كان درسا رسالياً عظيماً، وبلاء ربانيا رفع الله به درجة نبيّه ﷺ وأصحابه، وأذاقهم منه رحمة وأراهم في أنفسهم وفي عدوّهم من العبر ما يربو على الحصر.

وقد شغلت أحداث هذه المعركة آيات عديدة في سورة آل عمران، لأهميّتها ومنزلتها في التأسيس العقدي والسياسي والعسكري والنفسي للدولة الإسلامية الناشئة، قال الزّهريّ وعاصم بن عمر ومحمّد بن يحيى بن حبّان وغيرهم: «كان يوم أحدٍ يوم بلاءٍ وتمحيصٍ اختبر اللهّ عزّ وجلّ به المؤمنين وأظهر به المنافقين ممّن كان يظهر الإسلام بلسانه وهو مستخفٍ بالكفر فأكرم اللهّ فيه من أراد كرامته بالشّهادة من أهل ولايته فكان ممّا نزل من القرآن في يوم أحدٍ ستّون آيةً من آل عمران أوّلها: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[آل عمران ١٢١] إلى آخر القصّة».

قال ابن القيّم: «فصلٌ في ذكر بعض الحكم والغايات المحمودة الّتي كانت في وقعة أحدٍ.

وقد أشار اللهّ – سبحانه وتعالى – إلى أمّهاتها وأصولها في سورة (آل عمران) حيث افتتح القصّة بقوله ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾[آل عمران ١٢١] إلى تمام ستّين آيةً.

فمنها: تعريفهم سوء عاقبة المعصية والفشل والتّنازع وأنّ الّذي أصابهم إنّما هو بشؤم ذلك كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ﴾[آل عمران ١٥٢].

ومنها: أنّ حكمة اللّه وسنّته في رسله وأتباعهم جرت بأن يدالوا مرّةً ويدال عليهم أخرى لكن تكون لهم العاقبة فإنّهم لو انتصروا دائمًا دخل معهم المؤمنون وغيرهم ولم يتميّز الصّادق من غيره ولو انتصر عليهم دائمًا فجمع لهم بين الأمرين ليتميّز من يتّبعهم ويطيعهم للحقّ وما جاءوا به ممّن يتّبعهم على الظّهور والغلبة خاصّةً.

ومنها: أن يتميّز المؤمن الصّادق من المنافق الكاذب فإنّ المسلمين لّما أظهرهم اللّه على أعدائهم يوم بدرٍ وطار لهم الصّيت دخل معهم في الإسلام ظاهرًا من ليس معهم فيه باطنًا فاقتضت حكمة اللّه عزّ وجلّ أن سبّب لعباده محنةً ميّزت بين المؤمن والمنافق فأطلع المنافقون رءوسهم في هذه الغزوة وتكلّموا بما كانوا يكتمونه وظهرت مخبّآتهم وعاد تلويحهم تصريحًا وانقسم النّاس إلى كافرٍ ومؤمنٍ ومنافقٍ انقسامًا ظاهرًا وعرف المؤمنون أنّ لهم عدوّا في نفس دورهم وهم معهم لا يفارقونهم فاستعدّوا لهم وتحرّزوا منهم.

ومنها: استخراج عبوديّة أوليائه وحزبه في السّرّاء والضّرّاء وفيما يحبّون وما يكرهون وفي حال ظفرهم وظفر أعدائهم بهم فإذا ثبتوا على الطّاعة والعبوديّة فيما يحبّون وما يكرهون فهم عبيده حقًّا وليسوا كمن يعبد اللّه على حرفٍ واحدٍ من السّرّاء والنّعمة والعافية.

ومنها: أنّه سبحانه لو نصرهم دائمًا وأظفرهم بعدوّهم في كلّ موطنٍ وجعل لهم التّمكين والقهر لأعدائهم أبدًا لطغت نفوسهم وشمخت وارتفعت فلو بسط لهم النّصر والظّفر لكانوا في الحال الّتي يكونون فيها لو بسط لهم الرّزق فلا يصلح عباده إلّا السّرّاء والضّرّاء والشّدّة والرّخاء والقبض والبسط فهو المدبّر لأمر عباده كما يليق بحكمته إنّه بهم خبيرٌ بصيرٌ.

ومنها: أنّه إذا امتحنهم بالغلبة والكسرة والهزيمة ذلّوا وانكسروا وخضعوا فاستوجبوا منه العزّ والنّصر فإنّ خلعة النّصر إنّما تكون مع ولاية الذّلّ والانكسار قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾[آل عمران ١٢٣]

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التّوبة ٢٥] فهو – سبحانه – إذا أراد أن يعزّ عبده ويجبره وينصره كسره أوّلاً ويكون جبره له ونصره على مقدار ذلّه وانكساره.

ومنها: أنّه سبحانه هيّأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لم تبلغها أعمالهم ولم يكونوا بالغيها إلّا بالبلاء والمحنة فقيّض لهم الأسباب الّتي توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه كما وفّقهم للأعمال الصّالحة الّتي هي من جملة أسباب وصولهم إليها.

ومنها: أنّ الشّهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه والشّهداء هم خواصّه والمقرّبون من عباده وليس بعد درجة الصّدّيقيّة إلّا الشّهادة وهو سبحانه يحبّ أن يتّخذ من عباده شهداء تراق دماؤهم في محبّته ومرضاته ويؤثرون رضاه ومحابّه على نفوسهم ولا سبيل إلى نيل هذه الدّرجة إلّا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدوّ.

ومنها: أنّ وقعة أحدٍ كانت مقدّمةً وإرهاصًا بين يدي موت رسول اللهّ ﷺ فثبّتهم ووبّخهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسول اللهّ ﷺ أو قتل بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيده ويموتوا عليه أو يقتلوا فإنّهم إنّما يعبدون ربّ محمّدٍ وهو حيّ لا يموت فلو مات محمّدٌ أو قتل لا ينبغي لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه وما جاء به فكلّ نفسٍ ذائقة الموت وما بعث محمّدٌ ﷺ ليخلّد لا هو ولا هم بل ليموتوا على الإسلام والتّوحيد فإنّ الموت لا بدّ منه سواءٌ مات رسول اللهّ ﷺ أو بقي ولهذا وبّخهم على رجوع من رجع منهم عن دينه لّما صرخ الشّيطان إنّ محمّدًا قد قتل فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران ١٤٤] والشّاكرون هم الّذين عرفوا قدر النّعمة فثبتوا عليها حتّى ماتوا أو قتلوا فظهر أثر هذا العتاب وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول اللهّ ﷺ وارتدّ من ارتدّ على عقبيه وثبت الشّاكرون على دينهم فنصرهم اللهّ وأعزّهم وظفّرهم بأعدائهم وجعل العاقبة لهم ثمّ أخبر سبحانه أنّه جعل لكلّ نفسٍ أجلاً لا بدّ أن تستوفيه ثمّ تلحق به فيرد النّاس كلّهم حوض المنايا موردًا واحدًا وإن تنوّعت أسبابه ويصدرون عن موقف القيامة مصادر شتّى فريقٌ في الجنّة وفريقٌ في السّعير »[1].

(١) كلام ابن القيم طويل ماتع وإنّما اخترت بعضه.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

بعث الرجيع

« يا رب سبعين من الأنصار! قُتل يوم أحد سبعون، وقُتل يوم بئر معونة سبعون، وقُتل يوم اليمامة سبعون، وسبعون يوم مؤتة وقُتل يوم كذا وكذا » حتى عدّ خمس مواطن

أنس بن مالك

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

الرّجيع

هذه الوقعة وما بعدها وغيرهما كثير نسوقها وتسوقها كتب السيرة ليس لكونها نقاطا مفصلية في السيرة وأحداث تأسيس الدعوة، وإنّما أكبر ما نفيده من ذكر هذه الوقائع هو معرفة ما أصاب النّبيّ ﷺ وأصحابه من بلاء وأحداث مؤلمة تهدّ الجبال هداً، وتقوّض عزائم الأشدّاء من ذوي العقول الراجحة والقلوب القويّة، فأحداث السيرة النبوية كثيرة جدة ومتلاحقة، وكثير منها حدث في وقت متقارب أو متلاصق حتّى كأنّه حبّات عقد انفرط.

وإذا كان لهذه الأحداث أثرها البالغ في نفس النّبيّ ﷺ، فإنّه صاحب الدعوة، ولكن علينا تأمّل حجم وأثر هذه الأحداث على أصحابه وذويهم، فقد كانت الزوجات والأمهات والأبناء يفقدون في كل يوم غالياً.

فليس الأمر موقوفا على قتيل في سبيل الله، وإنّما علينا أن ننظر في آثار هذا القتل، فإذا كان المجاهد يُقتل في سبيل الله فإنّ ما يؤلمه أكثر هو ترمّل زوجته في سبيل الله، وتيتم أطفاله في سبيل الله، وثكل أمّه وأبيه في سبيل الله.

أضف إلى ذلك حجم المسؤولية الّتي يخلّفها على من بعده في قضاء دينه ورعاية أسرته وكفالة أيتامه.

ولا أدل على ذلك من موقف النّبيّ ﷺ حين بلغه مقتل جعفر بن أبي طالب في معركة مؤتة، قالت أسماء بنت عميس: أصبحت في اليوم الذي أصيب فيه جعفر وأصحابه فأتاني رسول الله ﷺ وقد هيأت أربعين منيئاً من أدم وعجنت عجيني وأخذت بني فغسلت وجوههم ودهنتهم فدخل عَلَيّ رسول الله ﷺ فقال: « **يا أسماء أين بنو جعفر**

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

» فجئت به إليهم فضمهم إليه وشمهم ثم ذرفت عيناه فبكى، فقلت: « أي رسول الله لعله بلغك عن جعفر شيء » فقال: « نعم قتل اليوم ».

بعد غزوة أحد حدثت وقائع أضعفت المسلمين من الجانب النفسي، كما شكّلت دافعا وحافزاً للقبائل أن تنقضّ على النّبيّ ﷺ وأصحابه.

ولعل من أشهر الوقائع الّتي أثرت في النّبيّ ﷺ وأصحابه حادثة بئر معونة والرجيع.

بعث الرَّجيع

وفي شهر صفر من نفس السنة ـ أي الرابعة من الهجرة ـ قدم على رسول الله ﷺ قوم من عَضَل وقَارَة، وذكروا أن فيهم إسلاماً، وسألوا أن يبعث معهم من يعلمهم الدين، ويقرئهم القرآن، فبعث معهم ستة نفر ـ في قول ابن إسحاق، وفي رواية البخاري أنهم كانوا عشرة ـ وأمر عليهم مَرْثَد بن أبي مَرْثَد الغَنَوِي ـ في قول ابن إسحاق، وعند البخاري أنه عاصم بن ثابت جد عاصم بن عمر بن الخطاب ـ فذهبوا معهم، فلما كانوا بالرجيع ـ وهو ماء لهُذَيلِ بناحية الحجاز بين رَابِغ وجُدَّة ـ استصرخوا عليهم حياً من هذيل يقال لهم: بنو لَحْيَان، فتبعوهم بقريب من مائة رام، واقتصوا آثارهم حتى لحقوهم، فأحاطوا بهم ـ وكانوا قد لجأوا إلى فَدْفَد ـ وقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألا نقتل منكم رجلاً. فأما عاصم فأبي من النزول وقاتلهم في أصحابه، فقتل منهم سبعة بالنبل، وبقي خُبَيب وزيد بن الدَّثِنَّةِ ورجل آخر، فأعطوهم العهد والميثاق مرة أخرى، فنزلوا إليهم ولكنهم غدروا بهم وربطوهم بأوتار قِسِيهم، فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر، وأبي أن يصحبهم، فجروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد فباعوهما بمكة، وكانا قتلا من رءوسهم يوم بدر، فأما خبيب فمكث عندهم مسجوناً، ثم أجمعوا على قتله، فخرجوا به من الحرم إلى التنعيم، فلما أجمعوا على صلبه قال: دعوني حتى أركع ركعتين، فتركوه فصلاهما، فلما سلم قال: والله لولا أن تقولوا: إن ما بي جزع لزدت، ثم قال: اللّهم أَحْصِهِمْ عَدَدًا، واقتلهم بَدَدًا، ولا تُبْقِ منهم أحدا، ثم قال: فقال له أبو سفيان: أيسرك أن محمدا عندنا نضرب عنقه، وأنك في أهلك ؟ فقال: لا والله، ما يسرني أني في أهلي وأن محمداً في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه. ثم صلبوه ووكلوا به من يحرس

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

جثته، فجاء عمرو بن أمية الضمري، فاحتمله بخدعة ليلاً، فذهب به فدفنه، وكان الذي تولي قتل خبيب هو عقبة بن الحارث، وكان خبيب قد قتل أباه حارثاً يوم بدر.

وفي الصحيح أن خبيباً أول من سن الركعتين عند القتل، وأنه رئي وهو أسير يأكل قِطْفًا من العنب، وما بمكة ثمرة.

وأما زيد بن الدَّثِنَّة فابتاعه صفوان بن أمية فقتله بأبيه.

وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه ـ وكان عاصم قتل عظيماً من عظمائهم يوم بدر ـ فبعث الله عليه مثل الظُّلَّة من الدَّبْر ـ الزنابير ـ فحمته من رسلهم، فلم يقدروا منه على شيء. وكان عاصم أعطي الله عهداً ألا يمسه مشرك ولا يمس مشركاً. وكان عمر لما بلغه خبره يقول: يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما يحفظه في حياته.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

مأساة بئر معونة

على قتلى معونة فا ستهلى بدمع العين سحا غير نزر
على خيل الرسول غداة لاقوا ولاقتهم منايا هم بقدر
أصابهم الضناء بعقد قوم تخون عقد حبلهم بغدر
فيا لهفى لمنذر إذ تولى وأعنق في منيته بصبر

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

بئر معونة

وفي الشهر نفسه الذي وقعت فيه مأساة الرَّجِيع وقعت مأساة أُخرى أشد وأفظع من الأولى، وهي التي تعرف بوقعة بئر معونة.

وملخصها: أن أبا براء عامر بن مالك المدعو بمُلاَعِب الأسِنَّة قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدعاه إلى الإسلام فلم يسلم ولم يبعد، فقال: يا رسول الله، لو بعثت أصحابك إلى أهل نَجْد يدعونهم إلى دينك لرجوت أن يجيبوهم، فقال: « إني أخاف عليهم أهل نجد »، فقال أبو براء : أنا جَارٌ لهم، فبعث معه أربعين رجلاً ـ في قول ابن إسحاق، وفي الصحيح أنهم كانوا سبعين، والذي في الصحيح هو الصحيح ـ وأمّر عليهم المنذر بن عمرو أحد بني ساعدة الملقب بالمُعْنِقَ لِيمُوت، وكانوا من خيار المسلمين وفضلائهم وساداتهم وقرائهم، فساروا يحتطبون بالنهار، يشترون به الطعام لأهل الصفة، ويتدارسون القرآن ويصلون بالليل، حتى نزلوا بئر معونة ـ وهي أرض بين بني عامر وحَرَّة بني سُلَيْم ـ فنزلوا هناك، ثم بعثوا حرام بن مِلْحَان أخا أم سليم بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطُّفَيْل، فلم ينظر فيه، وأمر رجلاً فطعنه بالحربة من خلفه، فلما أنفذها فيه ورأى الدم، قال حرام: «الله أكبر، فُزْتُ ورب الكعبة».

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

ثم استنفر عدو الله لفوره بني عامر إلى قتال الباقين، فلم يجيبوه لأجل جوار أبي براء، فاستنفر بني سليم، فأجابته عُصَيَّة ورِعْل وذَكَوان، فجاءوا حتى أحاطوا بأصحاب رسول الله ﷺ، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد بن النجار، فإنه ارْتُثَّ من بين القتلى، فعاش حتى قتل يوم الخندق.

وكان عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن عقبة بن عامر في سرح المسلمين فرأيا الطير تحوم على موضع الوقعة، فنزل المنذر، فقاتل المشركين حتى قتل مع أصحابه، وأسر عمرو بن أمية الضمري، فلما أخبر أنه من مُضَر جَزَّ عامر ناصيته، وأعتقه عن رقبة كانت على أمه.

ورجع عمرو بن أمية الضمري إلى النبي ﷺ حاملاً معه أنباء المصاب الفادح، مصرع سبعين من أفاضل المسلمين، تذكر نكبتهم الكبيرة بنكبة أحد ؛ إلا أن هؤلاء ذهبوا في قتال واضح ؛ وأولئك ذهبوا في غدرة شائنة.

ولما كان عمرو بن أمية في الطريق بالقَرْقَرَة من صدر قناة، نزل في ظل شجرة، وجاء رجلان من بني كلاب فنزلا معه، فلما ناما فتك بهما عمرو، وهو يرى أنه قد أصاب ثأر أصحابه، وإذا معهما عهد من رسول الله ﷺ لم يشعر به، فلما قدم أخبر رسول الله ﷺ بما فعل، فقال: « لقد قتلت قتيلين لأَدِيَنَّهما »، وانشغل بجمع ديتهما من المسلمين ومن حلفائهم اليهود، وهذا الذي صار سبباً لغزوة بني النضير، كما سيذكر.

وقد تألم النبي ﷺ لأجل هذه المأساة، ولأجل مأساة الرجيع اللتين وقعتا خلال أيام معدودة، تألما شديداً، وتغلب عليه الحزن والقلق، حتى دعا على هؤلاء الأقوام والقبائل التي قامت بالغدر والفتك في أصحابه. ففي الصحيح عن أنس قال: دعا النبي ﷺ على الذين قتلوا أصحابه ببئر معونة ثلاثين صباحاً، يدعو في صلاة الفجر على رِعْل وذَكْوَان ولَحْيَان وعُصَية، ويقول: « عُصَية عَصَتْ الله ورسوله »، فأنزل الله تعالى على نبيه قرآناً قرأناه حتى نسخ بعد: « بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه » فترك رسول الله ﷺ قُنُوتَه .

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

غزوة الأحزاب

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ
ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا
هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١٠﴾﴾

[الأحزاب: ١٠-١١]

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

هازم الأحزاب

بعد حادثتي البعث والرجيع تبيّن في الحقيقة أنّ الدّعوة وصلت إلى مرحلة حساسة والوقت بدأ يمُرّ سريعاً، وكان لابدّ للمسلمين من تحقيق نصر ضخم كبير يحقق لهم تحجيم القبائل والتشكّلات الصغيرة في الجزيرة وتحييدها بشكل كامل، كما كان من الواجب حدوث شيء ما يتسبب بنقل زمام المبادرة بشكل نهائي إلى يد المسلمين.

مهما كانت الوقائع الماضية فإنّها لم تكن من الحسم بما يضمن انتقال عنصر المبادأة إلى المسلمين، بل كلّ هزائم المشركين كان لها ما يبررها في نظرهم ولهم فيها ما يعتذرون به أو يطمعون بما فوقه.

وفي نفس الوقت لم يكن المسلمون قادرون حسب النظرة العسكرية البحتة على مواجهة العرب كلّها دفعة واحدة ومبادأتهم لأنّ ذلك مخالف للمنطق السليم ولقانون المدافعة واتخاذ الأسباب.

كان المسلمون بحاجة إلى شيء مثل المصل الذي يُعطاه الإنسان لا يمرضه وإنّما يكسبه مناعة ضدّه.

هنا يدخل عامل القدر المحض لصنع حدث عجيب، معركة لا قتال فيها، لكنّها ذات نتائج غير متوقعة.

تلك كانت غزوة الأحزاب ـ والّتي كان سببها تأليب اليهود على رسول الله ﷺ، إذ خرج عشرون رجلاً من زعماء اليهود وسادات بني النضير إلى قريش بمكة، يحرضونهم على غزو الرسول ﷺ، ويوالونهم عليه، ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم، فأجابتهم قريش، وكانت قريش قد أخلفت موعدها في الخروج إلى بدر، فرأت في ذلك إنقاذا لسمعتها والبر بكلمتها.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

ثم خرج هذا الوفد إلى غَطَفَان، فدعاهم إلى ما دعا إليه قريشاً فاستجابوا لذلك، ثم طاف الوفد في قبائل العرب يدعوهم إلى ذلك فاستجاب له من استجاب، وهكذا نجح ساسة اليهود وقادتهم في تأليب أحزاب الكفر على النبي ﷺ والمسلمين.

وعلى إثر ذلك خرجت من الجنوب قريش وكنانة وحلفاؤهم من أهل تهامة ـ وقائدهم أبو سفيان ـ في أربعة آلاف، ووافاهم بنو سليم بمَرِّ الظَّهْرَان، وخرجت من الشرق قبائل غطفان: بنو فَزَارة، يقودهم عُيينَة بن حِصْن، وبنو مُرَّة، يقودهم الحارث بن عوف، وبنو أشجع، يقودهم مِسْعَر بن رُحَيلَةِ، كما خرجت بنو أسد وغيرها.

واتجهت هذه الأحزاب وتحركت نحو المدينة على ميعاد كانت قد تعاقدت عليه.

وبعد أيام تجمع حول المدينة جيش عَرَمْرَم يبلغ عدده عشرة آلاف مقاتل، جيش ربما يزيد عدده على جميع من في المدينة من النساء والصبيان والشباب والشيوخ.

ولمّا علم رسول الله ﷺ بأمرهم سارع إلى عقد مجلس استشاري أعلى، تناول فيه موضوع خطة الدفاع عن كيان المدينة، وبعد مناقشات جرت بين القادة وأهل الشورى اتفقوا على قرار قدمه الصحابي النبيل سلمان الفارسي ضي الله عنه.

قال سلمان: « يا رسول الله، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خَنْدَقْنَا علينا »، وكانت خطة حكيمة لم تكن تعرفها العرب قبل ذلك.

وأسرع رسول الله ﷺ إلى تنفيذ هذه الخطة، فوكل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا من الخندق أربعين ذراعاً، وقام المسلمون بجد ونشاط يحفرون الخندق، ورسول الله ﷺ يحثهم ويساهم في عملهم هذا.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وقد كانت أيّام الخندق أيّام اختبار صعب ابتداء من عملية حفره وانتهاء بجلاء الأحزاب، فقد حدثت فيه عجائب ومشاهد سجّلها التّاريخ بمداد من ذهب.

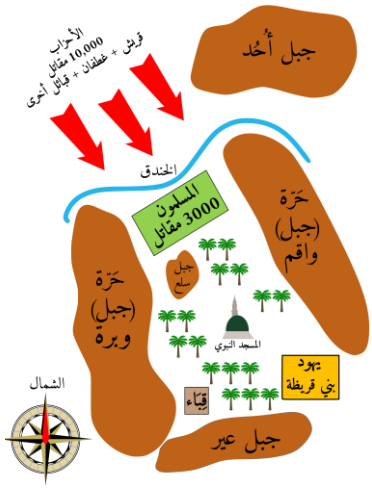

معجزات

كانت حال المؤمنين في غاية السوء من حيث الخوف والجوع والاضطراب وتكالب الأعداء من الداخل والخارج، وهذه عوامل كفيلة بضعضعة النّفس البشريّة.

لهذا ناسب أن يحدث الله بقدرته أمورا معجزة في ذاتها أو في سياقها.

لقد تحدّث الجميع عن معجزاته ﷺ في تكثير الطعام.

لكنّي أرى معجزة هي أضخم وأعظم من هذا كلّه، وهي ثبات الرسول في مبادئه وارتفاع الروح المعنوية في أحلك ظرف يمكن أن يمر على إنسان وأقساه.

عن البراء بن عازب قال: أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق قال وعرض لنا صخرة في مكان من الخندق لا تأخذ فيها المعاول قال فشكوها إلى رسول الله ﷺ فجاء رسول الله ﷺ قال عوف وأحسبه قال وضع ثوبه ثم هبط إلى الصخرة فأخذ المعول فقال:« بسم الله» فضرب ضربةً فكسر ثلث الحجر وقال:« الله أكبر، أُعطِيتُ مفاتيح الشام والله إنّي لأبصر قصورها الحمر من مكاني هذا»، ثم قال: «بسم الله» وضرب أخرى فكسر ثلث الحجر فقال :«الله أكبر، أُعْطِيتُ مفاتيح فارس، والله إنّي لأبصر المدائن وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا»، ثم قال: «بسم الله»

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وضرب ضربة أخرى فقلع بقية الحجر فقال :«الله أكبر، أُعْطِيتُ مفاتيح اليمن، والله إنّي لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا»[١].

إذا كان للمعجزات دور في تثبيت المؤمن وبيان صدق الرسول، فإنّ مثل هذا الموقف العجيب من الثقة بوعد الله أشدّ إعجازا في رأيي، كما كان له دور في تخذيل المنافقين.

ولهذا جاء في بعض الروايات أنّ المنافقين قالوا لما سمعوا منه هذا الكلام: « نحن نخندق على أنفسنا وهو يعدنا قصور فارس والروم».

وهذا الكلام وإن كانوا يقولونه تهكما لكنّ انكفافهم دليل على ما لهذا الموقف من أثر بالغ في ترددهم وخوفهم وكفّهم عن المشاركة في القتال.

لا يمكن أن يقول مثل هذا كاذب في خبره مخلف في وعده، لا يقف بشر في مثل هذه الظروف هذا الموقف إلاّ من كان رسول الله حقاً.

مشاركة القيادة الشعب في السراء والضراء

أصابت النّبيّ ﷺ وأصحابه مجاعة وفقر في تلك الأيام، ومع هذا فكان ﷺ أكثر من يقاسي الجوع، قال أبو طلحة: شَكَوْنا إلى رسول الله ﷺ الجوع، فرفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين».

ورغم أنّ الموقف موقف في غاية الجدّ إلاّ أنّ المعجزة هنا تأتي في سياقٍ طريف يخفّف من شدّة الموقف، ولندع جابر بن عبدالله يقصّ خبره، قال رضي الله عنه: « لمّا حفر الخندق رأيت بالنّبيّ ﷺ خمصًا شديدًا فانكفأت إلى امرأتي فقلت هل عندك شيءٌ؟ فإنّي رأيت برسول اللهّ ﷺ خمصًا شديدًا فأخرَجَت إليّ جرابًا فيه صاعٌ من شعيرٍ ولنا بهيمةٌ داجنٌ فذبحتُها وطحنتُ الشّعير ففرغت إلى فراغي وقطّعتها في برمتها ثمّ ولّيت إلى رسول اللهّ ﷺ فقالت: لا

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٠٣) بإسناد ضعيف، وقد حسّنه الحافظ في الفتح، لكن القصة جاءت من طرق متعددة تدل على أنّ لها أصلاً وقد روي مختصرا من طرق أخرى، وفي البخاري (ح٤١٠١) عن جابر إنّا يوم الخندق نحفر فعرضت كديةٌ شديدةٌ فجاءوا النّبيّ ﷺ فقالوا هذه كديةٌ عرضت في الخندق فقال أنا نازلٌ ثمّ قام وبطنه معصوبٌ بحجرٍ ولبثنا ثلاثة أيّامٍ لا نذوق ذواقًا فأخذ النّبيّ ﷺ المعول فضرب فعاد كثيبًا أهيل أو أهيم.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

تفضحني برسول اللهّ ﷺ وبمن معه، فجئته فساررتُه فقلت: « يا رسول اللهّ ذبحنا بهيمةً لنا وطحنّا صاعًا من شعيرٍ كان عندنا فتعال أنت ونفرٌ معك » فصاح النّبيّ ﷺ فقال: « **يا أهل الخندق إنّ جابرًا قد صنع سورًا فحيّ هلاً بهلّكم** » فقال رسول الله ﷺ: « **لا تنزلنّ برمتكم ولا تخبزنّ عجينكم حتّى أجيء** » فجئت وجاء رسول اللهّ ﷺ يقدم النّاس حتّى جئت امرأتي فقالت: « بك وبك » فقلت: « **قد فعلت الّذي قُلْتِ** » فأخرجت له عجينًا فبصق فيه وبارك ثمّ عمد إلى برمتنا فبصق وبارك ثمّ قال: «**ادع خابزةً فلتخبز معي واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها** » وهم ألفٌ، فأقسم باللهّ لقد أكلوا حتّى تركوه وانحرفوا وإنّ برمتنا لتغطّ كما هي وإنّ عجيننا ليخبز كما هو»[1].

نلاحظ أنّ العامل القدري يحاول أن لا يتدخّل إلاّ بقَدَر، وذلك لتعويد المسلمين الاعتماد بعد الله على أنفسهم واتخاذهم أسباب النصر، واستفراغ الجهد الممكن في تحصيل الأهداف المنشودة، ونلاحظ أنّه **كلّما زاد الاعتماد على العامل المادي انسحب العامل الروحي في توازن عجيب.**

كانت أيام المعركة أشبه ما يكون بعضّ الأصبع، ومن سيتألم أولا هو المهزوم.

فالجيش المحاصِر ينتظر انهيار عزائم المسلمين ونفاد زادهم أو انقلابهم على القيادة، أو تدخلاً من أجنحة النفاق الداخلية.

والجيش المؤمن الواثق بنصر الله بذل ما عنده ومكث ينتظر نصر الله وتحقق وعده.

وبعدما تحقق الهدف المنشود من تربية المؤمنين وهزّ بقية ما كان في نفوس المنافقين وإخراج أضغانهم وأحقادهم وكشف تمرد اليهود وتهيئة الأمر لطردهم.. أذن الله للعامل الكوني بالتدخّل.. وذلك عندما أدى المؤمنون ما عليهم واستفرغوا جهدهم في طاعة ربّهم، تماماً كما أدّت مريم حين هزّت النخلة، دون أن ينشب قتال، كما قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيّٗا عَزِيزٗا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وجاء النص القرآني مُصوِّراً صعوبة تلك الأيام، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ

(١) أخرجه البخاري (٤١٠١و٤١٠٢)، ومسلم (٢٠٣٩).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾.

وقال: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

أمّا المنافقون فحكى الله حالهم في آيات قال: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [الأحزاب: ١٩].

عبرة من الغزوة

بنهاية المرحلة المكية بدأت مرحلة جديدة ذات طابع استعدادي؛ فالمعروف أنّ النبيّ ﷺ كان ممنوعاً من القتال حتّى على سبيل الدفاع عن أصحابه، وإنّما أُمر بالصّبر، واستمرّ على ذلك طيلة فترة بقائه في مكة.

وبعد الهجرة نزل الإذن للأمّة بالقتال والدفاع عن أنفسهم، واستمر ذلك برهة من الزمن حتّى قويت شوكة المسلمين فنزل الأمر بقتال المشركين.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وفي هذه الغزوة، التأم فيها شمل أخلاط شتّى من أعداء النبيّ ﷺ ممّن كانت لهم مصلحة مشتركة في قتله والقضاء على أعظم عمل إصلاحي عرفه التاريخ في مهده، لكن الله تعالى قيّض للثلّة الصابرة جند الأرض والسّماء حتّى انجلت تلك الحادثة مسجّلة انتصاراً نوعياً للدّعوة يبرز في عنصرين:

الأوّل: الكشف عن صدق من كان مع النبيّ ﷺ من المهاجرين والأنصار، وأنّهم مستعدون للقتال بين يديه حتّى لا ينبض منهم عرق نابض، فلم يكن بين النبيّ ﷺ وبينهم عقد دنيوي يتأثر بالضغط العسكري أو النفسي أو الإعلامي، بل كان عقداً علوياً لا يعرف أثره إلاّ من جرّب اللقاء معهم في ميادين القتال، ورأى بأمّ عينيه حرصهم على الموت كحرص الآخرين على الحياة.

والعنصر الآخر: – وهو الذي يعنيني هنا – هو انتقال زمام المبادرة إلى يد النبيّ ﷺ وأصحابه، وقد أعلن النبيّ ﷺ ذلك بعد الغزوة مباشرة حين قال: «**الآن نغزوهم ولا يغزونا.. نحن نسير إليه**».

وحقق النبيّ ﷺ هذا في الواقع، فكانت السرايا تخرج من المدينة لبسط الأمن وتحقيق العدالة الإسلامية في ربوع الأرض، ولمّا سمع النبيّ ﷺ أنّ الروم يجمعون لغزو المدينة لم يجلس النبيّ ﷺ في المدينة ينتظر قدومهم بل سار إليهم فيما سُمّي بـ"جيش العسرة" في غزوة تبوك المشهورة.

العبرة

كان هذا في الجانب العسكري، وهو جانب مهم وضخم في السيرة النبوية ولكنه لم يكن الوحيد، ولهذا فإنّ هذه المقولة منه ﷺ تأسيس عميق في جانب تنموي مهم أصّله النبيّ –ﷺ– ويجب أن يفيد منه المسلمون في كلّ المساحات الممكنة والمباحة..

ونعني بذلك ألاّ يبقى المسلمون حبيسي الخوف على قيمهم وتراثهم؛ لأنّ الخوف يعني أنّ الأمّة – بما فيها من المبدعين والقادرين على المنافسة – تظل تتلقّى الضربات تلو الضربات، وتعاني من النّهسات من مختلف جهاتها، فمهما كانت قوّتها فلا بدّ أنّ يأتي يوم يصيبها الكلل والملل والضعف.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وهو ما نعانيه الآن بسبب انتهاج سياسات شرعية لم تراعِ أو ربّما غاب عنها – لأسباب ليس هذا مكان بيانها- حقيقة المتغيرات من حولنا، وهي متغيرات متسارعة متلاحقة مختلفة الدوافع والمقاصد والغايات كذلك، تحتاج إلى قدر كبير من المرونة في الحيّز المتاح، كما تحتاج إلى عنصر المبادرة.

والموضوع كبير واسع.. وغرضي أن أنتزع من سيرة النبيّ -ﷺ- ومن مواقفه ومقولاته الإشارات ذات المغزى البنّاء الذي وظّفه الصحابة -رضي الله عنهم- وبان أثره، وكذلك فعلت الأمّة في كلّ الأزمنة التي شهدت قوّتها وتحضّرها ورقيّها..

آن الأوان لتوجيه بوصلة التفكير والعمل نحو تلمّس الخطر قبل أن يقع ومواجهته مواجهة نابعة من العمق الحضاري للإسلام..

لا بد من إعادة توزيع مناطق التفكير والتحليل في العقل الإسلامي؛ لإحلال المشاركة بدلاً عن المقاطعة.. وقد قال ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم».

والمبادرة بدلاً عن قلق الانتظار، ومن ثمّ السقوط من أوّل مواجهة.

ما زالت كثير من المساحات شاغرة تحتاج إلى مشاريع مبادرات واستباق، وعلينا أن نفكر من الآن بمبدأ "الآن نغزوهم ولا يغزونا"..

نحن في تنافس حضارات إن لم يكن صراعاً، فهي معادلة حتمية النتيجة، إن لم تبادر بالغزو غزاك الآخرون.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

غزوة بني قريظة

« لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم »

سعد بن معاذ

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

حكم الله

هذه الغزوة ملحقة بالأحزاب، فهي أثر سريع من آثارها، وهي واحدة من الحكم والغايات الّتي قدرها الله تمكيناً لنبيّه ﷺ وتمهيدا لدعوته، إذ كانت المدينة بحاجة إلى تطهيرها من المجموعات الكبيرة الّتي لا يؤمن جانبها وتتربص بالدّعوة الدوائر، فهيّأ الله الأمر للنّبيّ ﷺ فغدر اليهود واستحقوا بذلك القضاء عليهم.

وقد ذكر الله كيف مهّدت وقعة الأحزاب الأمر للنّبيّ ﷺ ليتخلّص من اليهود: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾[الأحزاب: ٢٧].

سرد القصة

في اليوم الذي رجع فيه رسول الله إلى المدينة، جاءه جبريل عند الظهر، وهو يغتسل في بيت أم سلمة، فقال: أو قد وضعت السلاح ؟ فإن الملائكة لم تضع أسلحتهم، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، فانهض بمن معك إلى بني قريظة، فإني سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم، وأقذف في قلوبهم الرعب، فسار جبريل في موكبه من الملائكة.

وأمر رسول الله ﷺ مؤذناً فأذن في الناس: « من كان سامعاً مطيعاً فلا يصَلِّيَنَّ العصر إلا ببني قريظة »، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطى الراية علي بن أبي طالب، وقدّمه إلى بني قريظة، فسار على حتى إذا دنا من حصونهم سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وبادر المسلمون إلى امتثال أمره، ونهضوا من فورهم، وتحركوا نحو قريظة، وأدركتهم العصر في الطريق فقال بعضهم: لا نصليها إلا في بني قريظة كما أمرنا، حتى إن رجالاً منهم صلوا العصر بعد العشاء الآخرة، وقال بعضهم: لم يرد منا ذلك، وإنما أراد سرعة الخروج، فصلوها في الطريق، فلم يعنف واحدة من الطائفتين.

هكذا تحرك الجيش الإسلامي نحو بني قريظة أرسالاً حتى تلاحقوا بالنبي ﷺ، وهم ثلاثة آلاف، والخيل ثلاثون فرساً، فنازلوا حصون بني قريظة، وفرضوا عليهم الحصار.

ولما اشتد عليهم الحصار عرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد ثلاث خصال: إما أن يسلموا ويدخلوا مع محمد ﷺ في دينه، فيأمنوا على دمائهم وأموالهم وأبنائهم ونسائهم ـ وقد قال لهم: والله، لقد تبين لكم إنه لنبي مرسل، وإنه الذي تجدونه في كتابكم ـ وإما أن يقتلوا ذراريهم ونساءهم بأيديهم، ويخرجوا إلى النبي ﷺ بالسيوف مُصْلِتين، يناجزونه حتى يظفروا بهم، أو يقتلوا عن آخرهم، وإما أن يهجموا على رسول الله ﷺ وأصحابه، ويكبسوهم يوم السبت ؛ لأنهم قد أمنوا أن يقاتلوهم فيه، فأبوا أن يجيبوه إلى واحدة من هذه الخصال الثلاث، وحينئذ قال سيدهم كعب بن أسد ـ في انزعاج وغضب: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً.

ولم يبق لقريظة بعد رد هذه الخصال الثلاث إلا أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فقررت النزول على حكم رسول الله ﷺ، وحينئذ بادروا إلى النزول على حكم رسول الله ﷺ، وأمر رسول الله ﷺ باعتقال الرجال، فوضعت القيود في أيديهم تحت إشراف محمد بن مسلمة الأنصاري، وجعلت النساء والذراري بمعزل عن الرجال في ناحية.

وقامت الأوس إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، قد فعلت في بني قينقاع ما قد علمت، وهم حلفاء إخواننا الخزرج، وهؤلاء موالينا، فأحسن فيهم، فقال: «**ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟**» قالوا: بلى. قال: « **فذاك** ».

فأرسل إلى سعد بن معاذ، وكان في المدينة لم يخرج معهم للجرح الذي كان قد أصاب أَكْحُلَه في معركة الأحزاب، فأُركب حماراً، وجاء إلى رسول الله ﷺ، فجعلوا يقولون، وهم كَنَفَيْهِ: يا سعد، أجمل في مواليك، فأحسن فيهم، فإن

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

رسول الله قد حكمك لتحسن فيهم، وهو ساكت لا يرجع إليهم شيئاً، فلما أكثروا عليه قال: « لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم»، فلما سمعوا ذلك منه رجع بعضهم إلى المدينة فنعى إليهم القوم.

ولما انتهى سعد إلى النبي ﷺ قال للصحابة: « **قوموا إلى سيدكم** »، فلما أنزلوه قالوا: يا سعد، إن هؤلاء قد نزلوا على حكمك، قال: وحكمي نافذ عليهم ؟ قالوا: نعم، قال: وعلى المسلمين ؟ قالوا: نعم، قال: وعلى من هاهنا ؟ وأعرض بوجهه وأشار إلى ناحية رسول الله ﷺ إجلالاً له وتعظيمًا. قال: « **نعم، وعَلَيّ** »، قال: فإني أحكم فيهم أن يقتل الرجال، وتُسْبَى الذرية، وتقسم الأموال، فقال رسول الله ﷺ: « **لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات** ».

وكان حكم سعد في غاية العدل والإنصاف، فإن بني قريظة، بالإضافة إلى ما ارتكبوا من الغدر الشنيع، كانوا قد جمعوا لإبادة المسلمين ألفاً وخمسمائة سيف، وألفين من الرماح، وثلاثمائة درع، وخمسمائة ترس وحَجَفَة، حصل عليها المسلمون بعد فتح ديارهم، وعند ذلك قتل منهم من كان قد بلغ وسُبي النساء والذرية.

وهكذا تم استئصال أفاعي الغدر والخيانة، الذين كانوا قد نقضوا الميثاق المؤكد، وعاونوا الأحزاب على إبادة المسلمين في أحرج ساعة كانوا يمرون بها في حياتهم، وكانوا قد صاروا بعملهم هذا من أكابر مجرمي الحروب الذين يستحقون المحاكمة والإعدام.

وقتل مع هؤلاء شيطان بني النضير، وأحد أكابر مجرمي معركة الأحزاب حيي بن أخطب والد صفية أم المؤمنين رضي الله عنها، وقتل من نسائهم امرأة واحدة كانت قد طرحت الرحى على خَلاَّد بن سُوَيْد فقتلته، فقتلت لأجل ذلك.

وقسم رسول الله ﷺ أموال بني قريظة بعد أن أخرج منها الخمس، فأسهم للفارس ثلاثة أسهم؛ سهمان للفرس وسهم للفارس، وأسهم للراجل سهماً واحداً، وبعث من السبايا إلى نجد تحت إشراف سعد بن زيد الأنصاري فابتاع بها خيلاً وسلاحاً .

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

من دروس الغزوة

اشتهرت غزوة بني قريظة حتى في كتب الأصول والفقه والجدل، وذلك لما حدث من خلاف بين الصحابة في فهمهم لقوله ﷺ: « **من كان سامعاً مطيعاً فلا يصَلِّيَنَّ العصر إلا ببني قريظة**»، فقد اختلف الصحابة في الطريق بين من أصر على الاستمرار في المسير حتى لم يصلِّ العصر إلاّ في بني قريظة بعد غروب الشمس أخذا بظاهر أمره ﷺ، وبين من فهم الكلام على أنّه حث على الاستعجال فصلّى في الطريق.

إنّ هذه الحادثة تكشف لنا واحداً من أهمّ الإشكاليات في مشروع الحوار مع الآخرين خاصة بين العاملين في نفس المجال.

إشكالية الحوار وكل الجدل القائم حوله الآن بين مؤيد ومعارض ومتوجس ومتفائل ومتشجع ومتردّد سببها من أمرين:

الأوّل: الاختلاف في فهم مقاصد الحوار وآليّاته، ومن ثمّ الحكم على كلّ حالة بما يناسبها.

الثّاني: الاختلاف حول الغاية والحد الّذي ينتهي إليه الحوار، ومن ثمّ اتخاذ قرار البدء فيه أو قرار إيقافه بعد ذلك.

وضمن هذين الأمرين تفصيلات كثيرة وجزئيات أجدها أحياناً بالغة التعقيد، وأكثر ما يجعلها كذلك غياب الطرف القويّ؛ فالحقيقة أنّ الندّيّة بين المتحاورين إيجابية من حيث ضمان إتاحة الفرصة لكل طرف لبيان فكرته بوضوح، إلاّ أنّها سلبية من حيث افتقاد الطرف الّذي يستطيع إيقاف عجلة الحوار في الوقت المناسب؛ لأنّه أحياناً يتحول الحوار إلى ملاذ ومهرب من العمل والبناء، وحينها يصبح بيزنطياً كما يُقال.

بطبيعة الحال للحوار مساحاته ومستوياته، ويهمني هنا أن أشير إلى الحوار بين الإسلاميين، وبين المنتمين لأهل السنة على وجه الخصوص؛ إذ المشاهد والمحسوس أنّ هناك أزمة حوار، هذا لا مفر من الإقرار به، والفشل في الحوار مع الأقرب هو قاعدة الفشل في الحوار مع الأبعد؛ لأنّ الحوار وتبادل البراهين والحجج يكون أجدى وأنفع وأوضح كلّما زادت مساحة المشترك بين المتحاورين، فإذا فشل الإنسان في الحوار مع من يعيش معهم في مساحات واسعة من المشترك المعرفي أو الإنساني أو الديني أو السياسي ففشله مع من تضيق تلك المساحة به وبهم أحرى وأولى.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

يمكن لكل شخص أن يلحظ الإقصاء والأحادية، وضيق العطن والحسد والاستعلاء على الآخرين كعوامل لفشل الحوار في المساحة السلفيّة، هذا معلوم تحدّث فيه الكثيرون سواءٌ من الأصدقاء أو من (الإخوة) الأعداء!

غير أنّ عاملاً هنا قد يخفى على البعض، وإن كان واضحاً جلياً في أدبيات السلف.

فالواضح من سلوك الكثيرين من متقلدي الحوار مع الأطراف المخالفة الانطلاق في الحوار من مبدأ حسم الصراع.

بمعنى أنّه يدخل الحوار وقد أعدّ لمحاوره ما استطاع من قوّة ومن رباط الخيل؛ ليمارس معه أقوى ما يستطيع لا من الحجج والبراهين فقط، بل أقوى ما يمكن من أساليب الإرهاب والتخويف تارة بمخالفة الإجماعات الموهومة، وتارة بمخالفة كبار العلماء، وتارة بمخالفة الأعراف السائدة، وتارة بموافقة أعداء الله من كفار ومنافقين.. إلى غير ذلك من أساليب لا تخفى على لبيب.

بمعنى أنّ المحاور لا يريد، ولا يقبل أن يفتح حواراً دون أن يصل فيه إلى نقطة الحسم الّتي هي في تصوره أحد أمرين:

فإمّا استسلام الخصم واعترافه بأنّه على خطأ ورجوعه إلى الرأي الآخر.

وإمّا إفحامه وإسكاته ليسقط من نظر الجمهور.

وهنا مكمن الخطأ الّذي يتسبب في آثار سلبية للغاية، ليس أشدّها زرع البغضاء والعداوة والتنافس غير الشريف، وتحوّل الحوار إلى آلة استعلاء وتكبر في الأرض بغير الحق، وأشدّها في رأيي هو دخول الأمة أفراداً وجماعات في دهليز حوار لا نهاية له، تسبب في تضخم كتب العلم، ليصبح المتن القصير عشرات المجلدات، لا أقول في مسائل الفقه والحديث الّتي قد تحتمل مثل هذا التضخم لكثرة الصور والمسائل، بل في مسائل خبرية وعلمية وفلسفية – وأحياناً مسائل منهجية جامدة الصورة – لا يحتاجها الذكي، ولا ينتفع بها البليد، كما قال شيخ العلوم ابن تيمية رحمه الله.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وإذا تأملت في حالتنا الراهنة وجدت ذلك بيّنا بجلاء، لا تخطئه العين في مجالسنا ومتدياتنا، وإن شئت فحاول أن تحصي المسائل الّتي طال حولها الجدل، ولم يتوقف إلى الآن، وشغلت أجيال الشباب عن البناء المعرفي لأنفسهم وغيرهم بالطواف حول نُصب من المسائل المحدودة، الّتي لا يضر الخلاف فيها، ولا يمكن أن يُحسم لطرف على آخر؛ لأنّها محتملة أصلاً.

الاختلاف موجود وسيبقى، والمخالف لك موجود وسيبقى، ولن يملك أحد أن يلغي سنّة الله في كونه، كما لا يجوز مصادرة حق شخص أن يخالف فيما له فيه مندوحة، بل حتى إن خالف فيما يضيق فيه الخلاف يبقى الأمر واسعاً يحتمل، ويبقى للجميع حق توضيح الفكرة، لا على مبدأ حسم الصراع والخلاف، وإنّما على مبدأ (إن عليك إلاّ البلاغ)، وكما قال الحسن البصري رضي الله عنه: « المؤمن يداري، ولا يماري، ينشر حكمة الله، فإن قُبلت حَمِد الله، وإن رُدّت حَمِد الله »، وفي رواية«: الحكيم لا يماري ولا يداري في حكمته أن ينشرها، إن قُبلت حَمِدَ الله، وإن رُدّت حَمِد الله ».

وشاهدي من قصة بني قريظة أنّ المختلفين من الصحابة لم يدخلوا في جدل وحوار بهدف حسم الخلاف، بل اختلفوا ومضوا؛ فلا هؤلاء منعوا الآخرين وحجروا عليهم مواصلة السير وتأخير الصلاة، ولا أولئك منعوا الأولين من الصلاة وحجروا عليهم التوقف لأدائها، بل بيّن كلّ من الفريقين موقفه من القضية محل الخلاف، وتصرف وفق رؤيته.

أنا لا أشكّ لحظة أن لو أنّ الجميع اتفق على فهم واحد لكلامه ﷺ أنّه خير وأفضل، لكن ما دام الخلاف في الفهم والتأويل حصل، فإنّ التعامل مع هذا الخلاف بهذه الصورة الراقية جداً – حتى إنّك لا تجد كلاماً حول أزمة نشبت بين الفريقين بسببها – أقول: هذا التعامل مهما قيل عن وجود مفسدة ما من حيث وجود الخطأ ودفاع القائلين به عنه فإنّه أقلّ مفسدة من إشغال الأمّة كلّها به؛ طلباً للوصول إلى نقطة الحسم لأنّها شبه مستحيل.

ولأنّه إذا تردّد الأمر بين أن يضل فريق من الأمّة، وينشغل الفريق الآخر بالصواب والبناء عليه ونشره، وبين أن ينشغل الجميع برد الباطل وحسم الخلاف عن البناء ونشر الخير؛ فالأوّل أولى بلا شكّ.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

والمراد أن لا نتوقف عند كل خلاف لحسمه وإنهائه وكأننا في معركة، بل نختلف ونبين رأينا ووجه الصواب فيه، ورأي مخالفنا ووجه الخطأ فيه، ثمّ نمضي ونكل النيات، وما يصير إليه الناس إلى الله تعالى.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

الحديبية

« لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يـ سألونني فيها
صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها »

رسول الله ﷺ

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

الفتح المبين

الحديبية هي الفتح، سمّاها الله كذلك رغم أنّه لم تُرق فيها دماء ولم تصطكّ فيها سيوف.

ولو أنّي أحببت أن أضع لهذه الواقعة عنوانا أو عبارة تلخّص عبرتها لقلت إنّها إعلان عالميٌ عن نزعة السّلم في الإسلام، فالسّلم في الإسلام مقدّم وهدف مطلوب، ليس كما يحسب البعض أنّ الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام بلا شكّ هدف في ذاته ومقصد بنفسه.

جاء النّبيّ ﷺ إلى مكة وكان بإمكانه أن يجعلها حرباً مجلية، وأن يناجز قريشاً حتى يفتح الله عليه، لكنّه أبى إلاّ أن يؤسّس في نفوس أصحابه قاعدة السّلم، حتّى كان لهذا الموقف أثر في قلوب بعض الصحابة ومنهم عمر رضي الله عنه، فثارت لديهم الأسئلة: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ فلم نعطي الدنية في ديننا إذن ؟

كان الصحابة قد أخذت سيوفهم في أعدائهم وجربوا الانتصار مرة بعد مرة، فكانوا في الحديبية ينتظرون إمّا أن يدخلوا مكة للعمرة في استعراض عسكري وإمّا أن يناجزوا قريشاً.

لم تكن نفوسهم مهيّأة لمثل هذا التنازل، ولهذا كان من الصعب أن يعوا الدرس الرباني الّذي مرّ على يد النّبيّ ﷺ في هذه الواقعة وهو درس السلم.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

درس تحقيق الأهداف بأقلّ الخسائر وأيسر الطرق على الفئة المؤمنة والفئة الكافرة، ولهذا كان يقول: « لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها ».

يقول الأستاذ محمد عزة دروزة في كتابه: (سيرة الرسول، صور مقتبسة من القرآن الكريم): « ولا ريب في أن هذا الصلح الذي سماه القرآن بالفتح العظيم يستحق هذا الوصف كل الاستحقاق، بل إنه ليصح أن يعد من الأحداث الحاسمة العظمى في السيرة النبوية، وفي تاريخ الإسلام وقوته وتوطده، أو بالأحرى من أعظمها، فقد اعترفت قريش بالنبي والإسلام وقوتهما وكيانهما، واعتبرت النبي والمسلمين أنداداً لها، بل دفعتهم عنها بالتي هي أحسن، في حين أنها غزت المدينة في سنتين مرتين، وكانت الغزوة الأخيرة قبل سنة من هذه الزيارة وبحشد عظيم مؤلف منها ومن أحزابها لتستأصل شأفتهم، وبعثت هذه الغزوة في نفوس المسلمين أشد الاضطراب والهلع لضعفهم وقلتهم إزاء الغزاة، ولهذا شأن عظيم في نفوس العرب، الذين كانوا يرون في قريش الإمام والقدوة، والذين كانوا متأثرين بموقفهم الجحودي كل التأثر، وإذا لوحظ أن الأعراب كانوا يقدرون أنّ النبيّ والمسلمين لن يعودوا سالمين من هذه الرحلة، وأن المنافقين كانوا يظنون أسوأ الظنون. بدت لنا ناحية من نواحي خطورة هذا الفتح وبعد مداه.

«ولقد أثبتت الأحداث صدق إلهام النبي ﷺ فيما فعل، وأيده في القرآن، وأظهرت عظم الفوائد المادية والمعنوية والسياسية والحربية والدينية التي عادت على المسلمين منه. إذ قووا في عيون القبائل، وبادر المتخلفون من الأعراب إلى الاعتذار، وازداد صوت المنافقين في المدينة خفوتاً وشأنهم ضآلة، وإذ صار العرب يفدون على النبي ﷺ من أنحاء قاصية، وإذ تمكن من خضد شوكة اليهود في خيبر وغيرها من قراهم المتناثرة على طريق الشام، وإذ صار يستطيع أن يبعث بسراياه إلى أنحاء قاصية كنجد واليمن والبلقاء، وإذ استطاع بعد سنتين أن يغزو مكة ويفتحها، وكان في ذلك النهاية الحاسمة، ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ [النصر: ١-٢] ونحن نعود فنؤكد أنه كان هناك - إلى جانب هذا كله - فتح آخر».

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

القصة باختصار

أُري رسول الله ﷺ في المنام، وهو بالمدينة، أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام، وأخذ مفتاح الكعبة، وطافوا واعتمروا، وحلق بعضهم وقصر بعضهم، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا، وحسبوا أنهم داخلو مكة عامهم ذلك، وأخبر أصحابه أنه معتمر فتجهزوا للسفر.

وخرج منها يوم الاثنين غرة ذي القعدة سنة ٦ هـ ومعه زوجته أم سلمة، في ألف وأربعمائة، ويقال: ألف وخمسمائة، ولم يخرج معه بسلاح، إلا سلاح المسافر: السيوف في القُرُب.

وسار رسول الله ﷺ حتى إذا كان بثنية المرار بركت راحلته، فقال الناس: حَلْ حَلْ، فألَحَّتْ، فقالوا: خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: « **ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل** »، ثم قال: « **والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها** »، ثم زجرها فوثبت به، فعدل حتى نزل بأقصي الحديبية، على ثَمَد قليل الماء، إنما يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبث أن نزحوه، فشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا .

ثمّ لما سمعت قريش بالأمر أخذت ترسل الرسل بينها وبين النّبيّ ﷺ في محاولة للتوصل إلى حلّ يحفظ كرامتها ويقيها في نفس الوقت الدخول في حرب تعرف هي عاقبتها.

وبعد عدد من الرسل بعثت قريش سُهَيْل بن عمرو لعقد الصلح، وأكدت له ألا يكون في الصلح إلا أن يرجع عنا عامه هذا، لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً، فأتاه سهيل بن عمرو، فلما رآه قال: « **قد سهل لكم أمركم** »، أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل، فجاء سهيل فتكلم طويلاً، ثم اتفقا على قواعد الصلح، وهي هذه:

١ . الرسول ﷺ يرجع من عامه، فلا يدخل مكة، وإذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثاً، معهم سلاح الراكب، السيوف في القُرُب، ولا يتعرض لهم بأي نوع من أنواع التعرض.

٢ . وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

٣. من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وتعتبر القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين جزءاً من ذلك الفريق، فأي عدوان تتعرض له أي من هذه القبائل يعتبر عدواناً على ذلك الفريق.

٤. من أتى محمداً من قريش من غير إذن وليه ـ أي هارباً منهم ـ رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد ـ أي هارباً منه ـ لم يرد عليه.

ثم دعا علياً ليكتب الكتاب، فأملى عليه: « **بسم الله الرحمن الرحيم** » فقال سهيل: أما الرحمن فوالله لا ندري ما هو ؟ ولكن اكتب: باسمك اللّهم، فأمر النبي ﷺ بذلك، ثم أملى: « **هذا ما صالح عليه محمد رسول الله** » فقال سهيل: لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله فقال: « **إني رسول الله وإن كذبتموني** »، وأمر علياً أن يكتب: محمد بن عبد الله، ويمحو لفظ رسول الله، فأبى عليٌّ أن يمحو هذا اللفظ، فمحاه ﷺ بيده، ثم تمت كتابة الصحيفة، ولما تم الصلح دخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ ـ وكانوا حليف بني هاشم منذ عهد عبد المطلب، كما قدمنا في أوائل الكتاب، فكان دخولهم في هذا العهد تأكيداً لذلك الحلف القديم ـ ودخلت بنو بكر في عهد قريش.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من قضية الكتاب قال: « **قوموا فانحروا** »، فوالله ما قام منهم أحد حتى قال ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد قام فدخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت: يا رسول الله، أتحب ذلك ؟ اخرج، ثم لا تكلم أحداً كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فقام فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بُدْنَه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً، وكانوا نحروا البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة، ونحر رسول الله ﷺ جملاً كان لأبي جهل، كان في أنفه بُرَةٌ من فضة، ليغيظ به المشركين، ودعا رسول الله ﷺ للمحلقين ثلاثاً بالمغفرة وللمقصرين مرة.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة استعدادا لمرحلة مهمة ربّما لم تخطُر للمسلمين على بال، وهي مرحلة مكّنت النّبيّ ﷺ من تبليغ الدين إلى الدنيا بأسرها عبر الكتب والرسل، فهي مرحلة أمن واستقرار وتفرغ، وقد قدمنا سابقا كلاما عن أهمية الأمن في تحقيق مكاسب الدعوة، فما يمكن تحقيقه بالسلم ولو تأخر خير من تحقيقه بالحرب ولو تقدّم.

عودة إلى عبرة الحديبية

واحد من جوانب عظمة النّبيّ ﷺ هو بذل النفس في سبيل تحقيق الهدف الأعلى والأغلى.

إنّ شفاء الصدر وذهاب غيظ القلب بالانتقام من العدوّ الظالم لهو أمر مشروع، قال الله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:١٥].

لكنّ هذا الأمر المشروع لا يجوز أن يكون غالباً على مصلحة الأمّة، ولا يجوز أن يكون عقبة في تحقيق الأهداف العليا أو أجزاء منها، وهذا أمر ليس بالهيّن، ولا يستطيعه إلاّ عظماء الرجال الّذين لا يدعون غيظ القلوب يسيطر على نظرتهم للأمور، وهكذا كان محمّد ﷺ.

كان للنّبيّ ﷺ هدف سام، ألا وهو هداية الناس وتبليغ الدين للعالمين والتمكين للمسلمين، وهذا الهدف النبيل لم يكن النّبيّ ﷺ حريصاً على تحقيقه بكلّ سبيل، بل كان غايته تحقيق أفضل المكاسب بأقلّ الخسائر.

وهذا ملحوظ من سيرته الشريفة؛ إذ كان ﷺ مع شجاعته وإقدامه، وثقته بالله، ثم بمن معه من المؤمنين، إلاّ أنّه لم يكن حريصاً على الزجّ بهم في المعارك ما دام السلم يحقق الهدف المنشود.

في الحديبية سار النّبيّ ﷺ بالآلاف من أصحابه إلى مكة يريد العمرة، وكان بإمكانه لو أراد أن تكون ملحمة، لكنّه آثر الصلح الّذي كان ظاهره ضدّ مصلحة المسلمين، مما أثار حفيظة البعض كعمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومع ذلك فإنّ القرآن نزل مسمياً ذلك الصلح فتحاً، وهكذا كان حقاً وصدقاً، فتح لم تُرق فيه قطرة دم واحدة، كسبت فيه الدعوة الإسلامية مكاسب لا حصر لها، وتحققت لها أهداف عظيمة بلا قتال، لم يجعل النّبيّ ﷺ الغيظ والرغبة في النيل من قريش مانعاً من التفاوض معها وإعطائها بعض ما تريد.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

كثيراً ما تحول الرغبة في إيذاء العدو وإلحاق الهزيمة به عن تحقيق أهداف ربّما لا تتحقق إلاّ بالتفاوض، بل والتنازل عن بعض الحق لأجل تحقيق الباقي منه.

يخطئ كثيراً من يظن أنّ غاية الجهاد هو تحقيق النصر العسكري الحاسم بالضرورة، وأن يخرج العدو مولولاً صارخاً ذليلاً، هذا خطأ يؤدي إلى ديمومة القتال وأخذه وقتاً وجهداً أكثر من اللازم، لهذا يجب أن يكون لدى الحركات القتالية هدف أدنى يمكن الجنوح إليه لحقن الدماء، وتوفير الأمن، وتهيئة الأجواء للدعوة والتربية، ولو بتقديم تنازلات محدودة لا تضر بالقيم العليا.

الجنوح للمثالية والخيال في النظر للساحة القتالية، إضافة إلى الغيظ من العدوّ يجعل الحركات القتالية ترفع شعار "لا للتفاوض حتى خروج المحتل أو استسلام العدو"، وهذا خطأ، فليس هؤلاء أفضل ولا أعزّ من رسول الله ﷺ، ومع ذلك فما زال في الحديبية يستقبل موفدي قريش واحداً بعد آخر ويقول: «**والذي نفس محمد بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلاّ أعطيتهم إياها**» قال بعض أهل العلم: مقصوده بحرمات الله ترك القتال في الحرم، والجنوح إلى المسالمة، والكف عن إراقة الدماء، ولهذا ما إن جاء سهيل بن عمرو إلاّ وافقه النّبيّ ﷺ في كلّ ما قال، ورجع إلى المدينة فاتحاً مظفراً، ولم يمر على الأمر سنوات معدودة إلاّ فتح الله له مكة، وعندما استتبّ له الأمر، وأصبح في إمكانه أن يشفي صدور المؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم تأمّل في حاله وحال الأمر الّذي أُرسل به، وعرف أنّ العفو يحقق له وللأمر الذي أُرسل به أكثر مما يحققه الانتقام، فقال لأهل مكة: اذهبوا فأنتم الطلقاء، فترك حظوظ النفس وأبطلها في سبيل الهدف الأسمى والأعلى، وهو أن يدخل الناس في دين الله أفواجاً.. وهذا ما كان، والله المستعان.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

غزوة خيبر

« الله أكبر، خربت خيبر، الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»

رسول الله ﷺ

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

خربت خيبر

وقعت غزوة خيبر (في المحرم سنة ٧ هـ)

رأينا في ما مضى أنّ النّبيّ ﷺ أبرأ ذمّته من يهود بني النضير وبني قينقاع، فوفى لهم وما وفّوا فكان ذلك من الله قدرا مقدورا لتتخلّص الدولة الإسلامية من شوائب جغرافيّتها دون أن يكون على المسلمين في ذلك عتب ولا خيانة.

والآن جاء دور رأس الأفعى، فقد كانت خيبر هي وكرة الدس والتآمر ومركز الاستفزازات العسكرية، ومعدن التحرشات وإثارة الحروب، كانت هي الجديرة بالتفات المسلمين أولا.

فأهل خيبر هم الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين، وأثاروا بني قريظة على الغدر والخيانة، ثم أخذوا في الاتصالات بالمنافقين ـ الطابور الخامس في المجتمع الإسلامي ـ وبغطفان وأعراب البادية ـ الجناح الثالث من الأحزاب ـ وكانوا هم أنفسهم يتهيؤون للقتال، فألقوا المسلمين بإجراءاتهم هذه في محن متواصلة، حتى وضعوا خطة لاغتيال النبي ﷺ، وإزاء ذلك اضطر المسلمون إلى بعوث متواصلة، وإلى الفتك برأس هؤلاء المتآمرين، مثل سلام بن أبي الحُقَيْق، وأسِير بن زارم.

ولكن الواجب على المسلمين إزاء هؤلاء اليهود كان أكبر من ذلك، وإنما أبطأوا في القيام بهذا الواجب ؛ لأن قوة أكبر وأقوى وألدّ وأعند منهم ـ وهي قريش ـ كانت مجابهة للمسلمين، فلما انتهت هذه المجابهة صفا الجوّ لمحاسبة هؤلاء المجرمين، واقترب لهم يوم الحساب.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وتأتي هذه الغزوة في سياق المشروع العسكري الّذي تبنّاه النّبيّ ﷺ من واقع المعطيات على الأرض وما أملته ظروف المرحلة.

فبعد أن استطاع النّبيّ ﷺ تحييد وكسر أقوى أجنحة الأحزاب الثلاثة، وهو قريش، وأمن منه تماماً بعد صلح الحديبية أراد أن يحاسب الجناحين الباقيين ـ اليهود وقبائل نجد ـ حتى يتم الأمن والسلام، ويسود الهدوء في المنطقة، ويفرغ المسلمون من الصراع الدامي المتواصل إلى تبليغ رسالة الله والدعوة إليه.

بقايا خيبر

حصن مرحب اليهودي

الخروج إلى خيبر

قال ابن إسحاق: أقام رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرم، ثم خرج في بقية المحرم إلى خيبر.

قال المفسرون: إن خيبر كانت وعدا وعدها الله تعالى بقوله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٠] يعني صلح الحديبية، وبالمغانم الكثيرة خيبر.

عدد الجيش الإسلامي

ولما أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى خيبر أعلن ألا يخرج معه إلا راغب في الجهاد، فلم يخرج إلا أصحاب الشجرة وهم ألف وأربعمائة.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

اتصال المنافقين باليهود

وقد أرسل رأس المنافقين عبد الله بن أبي إلى يهود خيبر: إن محمداً قصد قصدكم، وتوجه إليكم، فخذوا حذركم، ولا تخافوا منه فإن عددكم وعدتكم كثيرة، وقوم محمد شرذمة قليلون، عزّل، لا سلاح معهم إلا قليل، فلما علم ذلك أهل خيبر، أرسلوا إلى غطفان يستمدونهم ؛ لأنهم كانوا حلفاء يهود خيبر، ومظاهرين لهم على المسلمين، وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا المسلمين.

الطريق إلى خيبر

سار النّبيّ ﷺ بأصحابه وحرص على أن يدخل خيبر من جهة الشمال ـ أي جهة الشام ـ فيحول بين اليهود وبين طريق فرارهم إلى الشام، كما يحول بينهم وبين غطفان.

وبالصهباء من أدنى خيبر صلّى النبي ﷺ العصر، ثم دعا بالأزواد، فلم يؤت إلا بالسَّوِيق، فأمر به فثري، فأكل وأكل الناس، ثم قام إلى المغرب، فمضمض، ومضمض الناس، ثم صلّى ولم يتوضأ، ثم صلى العشاء.

ولما دنا من خيبر وأشرف عليها قال: « **قفوا** »، فوقف الجيش، فقال: « **اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، وخير ما فيها، ونعوذ بك من شر هذه القرية، وشر أهلها، وشر ما فيها، أقدموا، بسم الله**».

الجيش الإسلامي إلى أسوار خيبر

وبات المسلمون الليلة الأخيرة التي بدأ في صباحها القتال قريبًا من خيبر، ولا تشعر بهم اليهود، وكان النبي ﷺ إذا أتى قومًا بليل لم يقربهم حتى يصبح، فلما أصبح صلى الفجر بغَلَس، وركب المسلمون، فخرج أهل خيبر بمساحيهم ومكاتلهم، ولا يشعرون، بل خرجوا لأرضهم، فلما رأوا الجيش قالوا: محمد، والله محمد والخَمِيس، ثم رجعوا هاربين إلى مدينتهم، فقال النبي ﷺ: « **الله أكبر، خربت خيبر، الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين** ».

التهيؤ للقتال وبشارة الفتح

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

ولما كانت ليلة الدخول ـ وقيل: بل بعد عدة محاولات ومحاربات ـ قال النبي ﷺ: « لأعطين الراية غدًا رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه » فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ، كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: « أين علي بن أبي طالب ؟» فقالوا: يا رسول الله، هو يشتكي عينيه، قال: « فأرسلوا إليه »، فأتي به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه، ودعا له، فبرئ، كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا، قال: « انفذ على رسلك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله، لأن يهدي الله بك رجلا واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم ».

فاصل

من عجيب مواقف النّبيّ ﷺ استغلاله المواقف العامة لبثّ الأصول الشرعيّة، وإن كانت تأتي في سياق غير مباشر أحياناً.

ففي غزوة خيبر حرّم الله متعة النساء وحرم لحوم الحمر الأهليّة، فارتبط هذا التحريم بغزوة من أعظم غزوات النّبيّ ﷺ.

وارتبطت هذه الغزوة كذلك بهذا الإعلان النبوي الكريم، إعلان محبّة الله ورسوله ﷺ علياً رضي الله عنه، والشهادة على باطن عليّ رضي الله عنه بأنّه محبّ لله ورسوله.

وكأنّه ﷺ عرف ما كان سيعاني منه علي من بعده من جفاء بسبب الخلاف الذي حصل بينه وبين معاوية، فلإن كان الصحابة يعرفون حق بعضهم وقدر بعضهم، إلاّ أنّه حدث من أتباعهم في حقّهم ما أصبح بعد ذلك يشكّل أعظم وأخطر خلاف يشقّ الأمّة.

فقد تبنى ثلة من أصحاب معاوية رضي الله عنه من بعده سبّ عليّ وتناوله بالأذى حتى أصبح سنّة على المنابر، وذلك في عهد بني أمية حتّى أبطله البطل عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه.

ولهذا فإنّ الناظر إلى حجم المرويات عن النّبيّ ﷺ في فضل عليّ وهذا الإعلان العالمي عن حبّ الله ورسوله لعليّ وحبّه لله ولرسوله لا يستطيع أن يعتبر ذلك مجرد تعبير عابر لا مناسبة له.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

فاختيار النّبيّ ﷺ لهذا الموقف الحساس لكي يعلن عن أمر لا علاقة له بالغزوة ما هو إلاّ بصيرة أبصر بها ما سيلقى أبو السبطين رضي الله عنه من أذى فأحب أن يمهّد الأمر له ولآل بيته من بعده بتبرئتهم من النفاق بل بالشهادة له بالإيمان ومحبة الله ورسوله، ليحيى من حي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة.

ولاشكّ أنّ مناصبة آل بيت النّبيّ ﷺ العداء من أخبث المنكرات الّتي حدثت في الإسلام، ولا يفوقه شناعة إلاّ بدعة سبّ أصحاب النّبيّ ﷺ وخاصة الشيخين رضي الله عنهما، فالنصب والرفض في حقيقة الأمر وجهان لعملة واحدة.

عودة

أما اليهود فإنهم لما رأوا الجيش وفروا إلى مدينتهم تحصنوا في حصونهم، وكان من الطبيعي أن يستعدوا للقتال.

وأول حصن هاجمه المسلمون من حصونهم الثمانية هو حصن ناعم.

وكان خط الدفاع الأول لليهود لمكانه الاستراتيجي، وكان هذا الحصن هو حصن مرحب البطل اليهودي الذي كان يعد بالألف.

خرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالمسلمين إلى هذا الحصن، ودعا اليهود إلى الإسلام، فرفضوا هذه الدعوة، وبرزوا إلى المسلمين ومعهم ملكهم مرحب، فلما خرج إلى ميدان القتال دعا إلى المبارزة، قال سلمة بن الأكوع: فلما أتينا خيبر خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه يقول:

قد عَلِمتْ خيبر أني مَرْحَب ** شَاكِي السلاح بطل مُجَرَّب

إذا الحروب أقبلتْ تَلَهَّب

فبرز له عمي عامر فقال:

قد علمت خيبر أني عامر ** شاكي السلاح بطل مُغَامِر

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

فاختلفا ضربتين، فوقع سيف مرحب في ترس عمي عامر، وذهب عامر يسفل له، وكان سيفه قصيرًا، فتناول به ساق اليهودي ليضربه، فيرجع ذُبَاب سيفه فأصاب عين ركبته فمات منه، وقال فيه النبي ﷺ: « إن له لأجرين ـ وجمع بين إصبعيه ـ إنه لَجَاهِدٌ مُجَاهِد، قَلَّ عربي مَشَى بها مِثْلَه ».

ويبدو أن مرحبًا دعا بعد ذلك إلى البراز مرة أخرى وجعل يرتجز بقوله:

قد علمت خيبر أني مرحب... إلخ، فبرز له علي بن أبي طالب. قال سلمة ابن الأكوع: فقال علي:

أنا الذي سمتني أمي حَيْدَرَهْ ❊❊ كلَيْثِ غابات كَرِيه المَنْظَرَهْ

أُوفِيهم بالصَّاع كَيْل السَّنْدَرَهْ

فضرب رأس مرحب فقتله، ثم كان الفتح على يديه.

ولما دنا علي رضي الله عنه من حصونهم اطلع يهودي من رأس الحصن، وقال: من أنت ؟ فقال: أنا علي بن أبي طالب، فقال اليهودي: علوتم وما أُنْزِلَ على موسى.

ثم خرج ياسر أخو مرحب، وهو يقول: من يبارز ؟ فبرز إليه الزبير، فقالت صفية أمه: يا رسول الله، يقتل ابني، قال: « بل ابنك يقتله »، فقتله الزبير.

ودار القتال المرير حول حصن ناعم، قتل فيه عدة سراة من اليهود، انهارت لأجله مقاومة اليهود، وعجزوا عن صد هجوم المسلمين، ويؤخذ من المصادر أن هذا القتال دام أيامًا لاقى المسلمون فيها مقاومة شديدة، إلا أن اليهود يئسوا من مقاومة المسلمين، فتسللوا من هذا الحصن إلى حصن الصَّعْب، واقتحم المسلمون حصن ناعم.

وبعد تتابعت أحداث الغزوة حتّى تمّ النّصر للنّبيّ ﷺ وأصحابه.

المفاوضة

وأرسل ابن أبي الحُقَيْق إلى رسول الله ﷺ: أنزل فأكلمك ؟ قال: « نعم »، فنزل، وصالح على حقن دماء مَنْ في حصونهم من المقاتلة، وترك الذرية لهم، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم، ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال وأرض، وعلى الصفراء والبيضاء ـ أي الذهب والفضة ـ والكُرَاع والحَلْقَة إلا ثوبًا على ظهر إنسان،

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

فقال رسول الله ﷺ: « وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتموني شيئاً »، فصالحوه على ذلك، وبعد هذه المصالحة تم تسليم الحصون إلى المسلمين، وبذلك تم فتح خيبر.

وفي هذه الغزوة قدم عليه ابن عمه جعفر بن أبي طالب وأصحابه، ومعهم الأشعريون أبو موسى وأصحابه.

ولما قدم جعفر على النبي ﷺ تلقاه وقَبَّل ما بين عينيه وقال: « والله ما أدري بأيهما أفرح ؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر ».

وكان قدوم هؤلاء على أثر بعث الرسول ﷺ إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري يطلب توجيههم إليه، فأرسلهم النجاشي على مركبين، وكانوا ستة عشر رجلاً، معهم من بقي من نسائهم وأولادهم، وبقيتهم جاءوا إلى المدينة قبل ذلك.

قتلى الفريقين في معارك خيبر

وجملة من استشهد من المسلمين في معارك خيبر ستة عشر رجلاً، أربعة من قريش وواحد من أَشْجَع، وواحد من أَسْلَم، وواحد من أهل خيبر والباقون من الأنصار.

ويقال: إن شهداء المسلمين في هذه المعارك ٨١ رجلاً.

أما قتلى اليهود فعددهم ثلاثة وتسعون قتيلاً.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

فتح مكة

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾

[الفتح: ٢٧]

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

النصر والفتح

مكة هي موئل العرب، وكان العرب يعدّون قريشاً حماةَ البيت والدين، فانكسار مكة وأهلها هو الفتح المبين المؤذن بانطلاق الدعوة إلى آفاق العالمية، إذ بفتح مكة انتهى عهد الإقليمية.

ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾[الحديد: ١٠] وهذا يشعرك باختلاف الظروف والمعطيات الواقعية التي تجعل المشاركة في البناء بعد الفتح في ظل ارتياح ومنعة وقوة لم تكن قبل الفتح.

وكما كانت بدر الكبرى هي الفرقان الأوّل الّذي فرق بين الإسلام وأهله والكفر وأهله، وتميّزت فيه قيم التوحيد والمفاصلة بين أهله وبين أعدائهم، فإن غزوة فتح مكة كانت غزوة فاصلة في التاريخ الإسلامي بين مرحلة الوجود الفعلي والندية وبين مرحلة الانفراد.

لم يبق بعد فتح مكّة مجال للريبة والظن في رسالة محمدﷺ عند العرب، ولذلك انقلب المجرى تماماً، ودخل الناس في دين اللهّ أفواجاً كما ظهر ذلك من تتابع الوفود، ومن العدد الذي حضر في حجة الوداع ـ وانتهت المتاعب الداخلية، واستراح المسلمون لتعليم شرائع اللهّ، وبث دعوة الإسلام.

نعم، هكذا كان الفتح الذي مهّد الله أسبابه، فبعد صلح الحديبية ودخول من دخل من العرب في حلف النّبيّ ﷺ وآخرون في حلف قريش، وأمنت الطرق واستغلّ النّبيّ ﷺ الوضع في الدعوة ومراسلة الملوك وإيفاد الدعاة

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

والمبلغين، وإنما كان الهدف الوحيد الذي يهدفه المسلمون من هذه الحروب هو الحرية الكاملة للناس في العقيدة والدين ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. لا يحول بينهم وبين ما يريدون أي قوة من القوات، وقد حصل هذا الهدف بجميع أجزائه ولوازمه، وبطريق ربما لا يحصل بمثله في الحروب مع الفتح المبين، وقد كسب المسلمون لأجل هذه الحرية نجاحاً كبيراً في الدعوة، فبينما كان عدد المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف قبل الهدنة صار عدد الجيش الإسلامي في سنتين عند فتح مكة عشرة آلاف.

سبب الغزوة

قدمنا في وقعة الحديبية أن بنداً من بنود هذه المعاهدة يفيد أن من أحب أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وأن القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين تعتبر جزءاً من ذلك الفريق، فأي عدوان تتعرض له أي من تلك القبائل يعتبر عدواناً على ذلك الفريق.

وحسب هذا البند دخلت خُزَاعَة في عهد رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش، وصارت كل من القبيلتين في أمن من الأخرى، وقد كانت بين القبيلتين عداوة وتوترات في الجاهلية، فلما جاء الإسلام، ووقعت هذه الهدنة، وأمن كل فريق من الآخر ـ اغتنمها بنو بكر، وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة الثأر القديم، فخرج نَوْفَل بن معاوية الدِّيلي في جماعة من بني بكر في شهر شعبان سنة ٨ هـ فأغاروا على خزاعة ليلاً، وهم على ماء يقال له: [الوَتِير] فأصابوا منهم رجالاً، وتناوشوا واقتتلوا، وأعانت قريش بني بكر بالسلاح، وقاتل معهم رجال من قريش مستغلين ظلمة الليل، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر: يا نوفل، إنا قد دخلنا الحرم، إلهك إلهك، فقال كلمة عظيمة: لا إله اليوم يا بني بكر، أصيبوا ثأركم، فلعمري إنكم لَتَسرِقُون في الحرم، أفلا تصيبون ثأركم فيه ؟

ولما دخلت خزاعة مكة لجأوا إلى دار بُدَيْل بن وَرْقَاء الخزاعي، وإلى دار مولى لهم يقال له: رافع.

وأسرع عمرو بن سالم الخزاعي، فخرج حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فوقف عليه، وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس فقال:

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

يا رب إنّي ناشد محمدا حلف أبيه وأبينا الأتلدا
قد كنتم ولدا وكنا والدا ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر رسول الله نصرا أبدا وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا إن سيم خسفا وجهه تربدا
في فيلق كالبحر يجرى مزبدا إن قريشا أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا وجعلوا لي في كداء رصدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا فهم أذل وأقل عددا
هم بيّتونا بالوتير هجدا وقتلونا ركعا وسجدا

فقال رسول الله ﷺ: « نُصِرْتَ يا عمرو بن سالم»، ثم عرضت له سحابة من السماء، فقال: « إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب ».

ثم خرج بُدَيْل بن وَرْقَاء الخزاعي في نفر من خُزَاعَة، حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، فأخبروه بمن أصيب منهم، وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم، ثم رجعوا إلى مكة.

ولا شك أن ما فعلت قريش وحلفاؤها كان غدراً محضاً ونقضاً صريحاً للميثاق، لم يكن له أي مبرر، ولذلك سرعان ما أحست قريش بغدرها، وخافت وشعرت بعواقبه الوخيمة، فعقدت مجلساً استشارياً، وقررت أن تبعث قائدها أبا سفيان ممثلاً لها ليقوم بتجديد الصلح.

وقد أخبر رسول الله ﷺ أصحابه بما ستفعله قريش إزاء غدرتهم، قال: «كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العَقْدَ، ويزيد في المدة».

وخرج أبو سفيان ـ حسب ما قررته قريش ـ فلقي بديل بن ورقاء بعُسْفَان ـ وهو راجع من المدينة إلى مكة ـ فقال: من أين أقبلت يا بديل ؟ ـ وظن أنه أتى النبي ﷺ ـ فقال: سرت في خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي. قال: أو ما جئت محمداً ؟ قال: لا.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان: لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى، فأتى مبرك راحلته، فأخذ من بعرها، ففتّه، فرأى فيها النوى، فقال: أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً.

وقدم أبو سفيان المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: يا بنية، أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني ؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس، فقال: والله لقد أصابك بعدي شر.

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه، فلم يرد عليه شيئاً، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم رسول الله ﷺ، فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه، فقال: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ؟ فو الله لو لم أجد إلا الذَّرَّ لجاهدتكم به، ثم جاء فدخل على عليّ بن أبي طالب، وعنده فاطمة، وحسن غلام يدب بين يديهما، فقال: يا علي، إنك أمس القوم بي رحماً، وإني قد جئت في حاجة، فلا أرجعن كما جئت خائباً، اشفع لي إلى محمد، فقال: ويحك يا أبا سفيان، لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه، فالتفت إلى فاطمة، فقال: هل لك أن تأمري ابنك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت: والله ما يبلغ ابني ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ.

وحينئذ أظلمت الدنيا أمام عيني أبي سفيان، فقال لعلي بن أبي طالب في هلع وانزعاج ويأس وقنوط: يا أبا الحسن، إني أرى الأمور قد اشتدت عَليّ، فانصحني، قال: والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الْحَقْ بأرضك، قال: أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً ؟ قال: لا والله ما أظنه، ولكني لم أجد لك غير ذلك، فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس، إني قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره، وانطلق.

ولما قدم على قريش، قالوا: ما وراءك ؟ قال: جئت محمداً فكلمته، فوالله ما ردّ علي شيئاً، ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيراً، ثم جئت عمر بن الخطاب، فوجدته أدني العدو، ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم، قد أشار علي بشيء صنعته، فوالله ما أدري هل يغني عني شيئاً أم لا ؟ قالوا: وبم أمرك ؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت،

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

قالوا: فهل أجاز ذلك محمد ؟ قال: لا، قالوا: ويلك، إن زاد الرجل على أن لَعِبَ بك، قال: لا والله ما وجدت غير ذلك.

أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالجهاز، وأعلمهم أنه سائر إلى مكة، وقال: « **اللّهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها** ».

وزيادة في الإخفاء والتعمية بعث رسول الله ﷺ سرية قوامها ثمانية رجال، تحت قيادة أبي قتادة بن رِبْعِي، إلى بطن إضَم، فيما بين ذي خَشَب وذي المروة، على ثلاثة بُرُد من المدينة، في أول شهر رمضان سنة ٨ هـ؛ ليظن الظان أنه ﷺ يتوجه إلى تلك الناحية، ولتذهب بذلك الأخبار، وواصلت هذه السرية سيرها، حتى إذا وصلت حيثما أمرت بلغها أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكة، فسارت إليه حتى لحقته.

وكتب حاطب بن أبي بَلْتَعَة إلى قريش كتاباً يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، ثم أعطاه امرأة، وجعل لها جُعْلاً على أن تبلغه قريشاً، فجعلته في قرون رأسها، ثم خرجت به، وأتي رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث علياً والمقداد والزبير بن العوام وأبا مَرْثَد الغَنَوِي فقال: « **انطلقوا حتى تأتوا رَوْضَةَ خَاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب إلى قريش** »، فانطلقوا تعادي بهم خيلهم حتى وجدوا المرأة بذلك المكان، فاستنزلوها، وقالوا: معك كتاب ؟ فقالت: ما معي كتاب، ففتشوا رحلها فلم يجدوا شيئاً. فقال لها علي: أحلف بالله، ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا، والله لتخرجن الكتاب أو لنجردنك. فلما رأت الجد منه قالت: أعرض، فأعرض، فحلت قرون رأسها، فاستخرجت الكتاب منها، فدفعته إليهم، فأتوا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: « من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش » يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ حاطباً، فقال: « **ما هذا يا حاطب ؟** » فقال: لا تَعْجَلْ علي يا رسول الله. والله إني لمؤمن بالله ورسوله، وما ارتددت ولا بدلت، ولكني كنت امرأ مُلْصَقًا في قريش ؛ لست من أنْفُسِهم، ولي فيهم أهل وعشيرة وولد، وليس لي فيهم قرابة يحمونهم، وكان من معك له قرابات يحمونهم، فأحببت إذ فاتني ذلك أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي. فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله، وقد نافق، فقال رسول الله ﷺ: « **إنه قد شهد بدراً، وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم** »، فذَرَفَتْ عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

فاصل

آهٍ لكِ يا بدر، لا تزال ذكرى بدر حاضرة في كلّ حدث، ما إن يستجدّ لأحد من أهلها حدث إلاّ وتأتي بدر، فإن كان محسنا زادته إحساناً وقيل: هذا من أهل بدر، وإن كان مسيئا جاءت شافعة ومذكرة بسابقته وفضله إذ كان من أهل بدر.

وفي قصة حاطب هذه من العبر ما لعله يبلغ مجلدة لو استرسلنا فيه، وسأقتصر على شيء مما ذكره أهل العلم:

فمن ذلك:

أنّ المؤمن مهما بلغ من الإيمان والتقوى والصلاح لا يسلم من خطأ يقع فيه إمّا ضعفا وشهوة وإمّا تأويلاً، وفي كلا الحالين لا ينبغي أن يكن ذلك سببا في استئصاله من الجماعة المؤمنة، بل يبقى فردا منها يُعامل بميزان الحسنات والسيئات، فإذا جاءت السيّئة جيئ بالحسنة، وكم من حسنة نادت لصاحبها: «ما ضرّه ما فعل بعدي».

وهذا هو منهج النّبيّ ﷺ وأصحابه وأهل العلم والفضل من بعدهم، لا كما يفعل القصّابون الّذين يهدرون للفاضل من أهل العلم والدعوة دمه وفضله عند أوّل زلّة يقع فيها، حدّث الزّهري عن ابن المسيّب أنّه قال: « ليس من شريف ولا عالم ولا ذي سلطان إلاّ وفيه عيب لابد، ولكن من النّاس من لا تُذكر عيوبه، من كان فضله أكثر من نقصه وُهب نقصه لفضله »[١].

وقال الشّافعي: « لا نعلم أحداً أُعطي طاعة الله حتّى لم يخلطها بمعصيته، ولا عصى الله فلم يخلط بطاعته، فإذا كان الأغلب الطّاعة فهو العدل، وإذا كان الأغلب المعصية فهو المجروح »[٢].

ومن ذلك :

أنّ إحسان الظن خير من إساءته مادام له محلٌّ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله متحدثا عن صحابة رسول الله ﷺ: « وهذا القدر لو اجتهد فيه الرجل واخطأ لكان خيراً ممن اجتهد في بغضهم وأخطأ، فإن باب الإحسان إلى

---

(١) الكفاية(ص ٧٩).

(٢) طبقات الشّافعيّة الكبرى (٣ / ٣٢٧).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

الناس والعفو عنهم مقدم على باب الإساءة والانتقام . . . وكذلك يعطى المجهول الذي يدعى الفقر من الصدقة... وهذا لأن إعطاء الغنى خير من حرمان الفقير والعفو عن المجرم خير من عقوبة البريء، فإذا كان هذا في حق آحاد الناس فالصحابة أولى أن يسلك بهم هذا، فخطأ المجتهد في الإحسان إليهم بالدعاء والثناء عليهم والذب عنهم خير من خطئه في الإساءة إليهم باللعن والذم والطعن، وما شجر بينهم غايته أن يكون ذنبا والذنوب مغفورة بأسباب متعددة هم أحق بها ممن بعدهم وما تجد أحداً قدح فيهم إلا وهو يعظم عما هو أكبر من ذلك من زلات غيرهم وهذا من أعظم الجهل والظلم »[1].

ومنها :

أنّ إنكار خطأ المخطئ لا يتعارض مع عذره وإحسان الظن به، قال شيخ الإسلام رحمه الله: « ومما يتعلق بهذا الباب أن يعلم أن الرجل العظيم في العلم والدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى يوم القيامة أهل البيت وغيرهم قد يحصل منه نوع من الاجتهاد مقروناً بالظن ونوع من الهوى الخفي فيحصل بسبب ذلك مالا ينبغي اتباعه فيه وإن كان من أولياء الله المتقين، ومثل هذا إذا وقع يصير فتنة لطائفتين:

طائفة تعظمه فتريد تصويب ذلك الفعل واتباعه عليه.

وطائفة تذمه فتجعل ذلك قادحاً في ولايته وتقواه بل في بره وكونه من أهل الجنة بل في إيمانه حتى تخرجه عن الإيمان.

وكلا هذين الطرفين فاسد والخوارج والروافض وغيرهم من ذوي الأهواء دخل عليهم الداخل من هذا، ومن سلك طريق الاعتدال عظّم من يستحق التعظيم وأحبه ووالاه وأعطى الحق حقه فيعظم الحق ويرحم الخلق، ويعلم أن الرجل الواحد تكون له حسنات وسيئات، فيُحمد ويُذم ويُثاب ويُعاقب ويُحب من وجه ويُبغض من وجه، هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافا للخوارج والمعتزلة ومن وافقهم وقد بسط هذا في موضعه وإذا تبين ذلك فالقول في الخلفاء والملوك: من وافقهم في طاعة الله تعالى كالصلاة والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن

---

(١) منهاج السّنّة(٤ / ٣٧٢).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

المنكر وإقامة الحدود كان مأجوراً على مافعله من طاعة الله ورسوله، وكذلك كان صالحو المؤمنين يفعلون كعبد الله بن عمر وأمثاله.

ومن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم كان من المعينين على الإثم والعدوان المستحقين للذم والعقاب»[1].

ومنها:

أنّ حسنات المحسن وفضله لا يمنع إنكار خطئه والتثريب عليه، لأنّ الإنكار والنصيحة حقّ الله ورسوله، ودين الله أولى بصونه من ستر البشر ومراعاتهم مهما بلغوا، «وهناك حقيقة أخيرة نتعلمها من التعقيب القرآني على مواقف الجماعة المسلمة التي صاحبت رسول الله ﷺ والتي تمثل أكرم رجال هذه الأمة على الله.. وهي حقيقة نافعة لنا في طريقنا إلى استئناف حياة إسلامية بعون الله.

إن منهج الله ثابت وقيمه وموازينه ثابتة والبشر يبعدون أو يقربون من هذا المنهج ويخطئون ويصيبون في قواعد التصور وقواعد السلوك. ولكن ليس شيء من أخطائهم محسوباً على المنهج ولا مغيراً لقيمه وموازينه الثابتة.

وحين يخطئ البشر في التصور أو السلوك فإنه يصفهم بالخطأ. وحين ينحرفون عنه فإنه يصفهم بالانحراف. ولا يتغاضى عن خطئهم وانحرافهم – مهما تكن منازلهم وأقدارهم – ولا ينحرف هو ليجاري انحرافهم!

☜ ونتعلم نحن من هذا أن تبرئة الأشخاص لا تساوي تشويه المنهج!

وأنه من الخير للأمة المسلمة أن تبقى مبادئ منهجها سليمة ناصعة قاطعة وأن يوصف المخطئون والمنحرفون عنها بالوصف الذي يستحقونه – أياً كانوا – وألا تُبَرّر أخطاؤهم وانحرافاتهم أبداً بتحريف المنهج وتبديل قيمه وموازينه. فهذا التحريف والتبديل أخطر على الإسلام من وصف كبار الشخصيات المسلمة بالخطأ أو الانحراف.. فالمنهج أكبر وأبقى من الأشخاص. والواقع التاريخي للإسلام ليس هو كل فعل وكل وضع صنعه المسلمون في تاريخهم. وإنما هو كل فعل وكل وضع صنعوه موافقاً تمام الموافقة للمنهج ومبادئه وقيمه الثابتة ».

---

(١) منهاج السنة (٤ / ٥٤٣).

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

عُدنا

وهكذا أخذ الله العيون، فلم يبلغ إلى قريش أي خبر من أخبار تجهز المسلمين وتهيئهم للزحف والقتال.

ولِعَشْرٍ خلَوْن من شهر رمضان المبارك ٨ هـ غادر رسول الله ﷺ المدينة متجهاً إلى مكة، في عشرة آلاف من الصحابة رضي الله عنهم.

ولما كان بالجُحْفَة ـ أو فوق ذلك ـ لقيه عمه العباس بن عبد المطلب، وكان قد خرج بأهله وعياله مسلماً مهاجراً، ثم لما كان رسول الله ﷺ بالأبواء لقيه ابن عمه أبو سفيان ابن الحارث وابن عمته عبد الله بن أبي أمية، فأعرض عنهما، لما كان يلقاه منهما من شدة الأذى والهجو، فقالت له أم سلمة: لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك. وقال عليّ لأبي سفيان بن الحارث: ائت رسول الله ﷺ من قبل وجهه، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف: ٩١]، فإنه لا يرضي أن يكون أحد أحسن منه قولاً. ففعل ذلك أبو سفيان، فقال له رسول الله ﷺ: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٩٢].

وواصل رسول الله ﷺ سيره وهو صائم، والناس صيام، حتى بلغ الكُدَيْد ـ وهو ماء بين عُسْفَان وقُدَيْد ـ فأفطر، وأفطر الناس معه. ثم واصل سيره حتى نزل بمر الظهران ـ وادي فاطمة ـ نزله عشاء، فأمر الجيش، فأوقدوا النيران، فأوقدت عشرة آلاف نار، وجعل رسول الله ﷺ على الحرس عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وركب العباس ـ بعد نزول المسلمين بمر الظهران ـ بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، وخرج يلتمس، لعله يجد بعض الحَطَّابة أو أحداً يخبر قريشاً ليخرجوا يستأمنون رسول الله ﷺ قبل أن يدخلها.

وكان الله قد عمّى الأخبار عن قريش، فهم على وَجَلٍ وترقب، وكان أبو سفيان يخرج يتجسس الأخبار، فكان قد خرج هو وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء يتجسسون الأخبار.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

قال العباس: والله إني لأسير عليها ـ أي على بغلة رسول الله ﷺ ـ إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء، وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً. قال: يقول بديل: هذه والله خزاعة، حَمَشَتْها الحرب، فيقول أبو سفيان: خزاعة أقلّ وأذلّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

قال العباس: فعرفت صوته، فقلت: أبا حَنْظَلَة ؟ فعرف صوتي، فقال: أبا الفضل ؟ قلت: نعم. قال: مالك ؟ فداك أبي وأمي، قلت: هذا رسول الله ﷺ في الناس، واصباح قريش والله.

قال: فما الحيلة فداك أبي وأمي ؟ قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة، حتى آتي بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك، فركب خلفي، ورجع صاحباه.

قال: فجئت به، فكلما مررت به على نار من نيران المسلمين، قالوا: من هذا ؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا: عم رسول الله ﷺ على بغلته، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال: من هذا ؟ وقام إليّ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان، عدو الله ؟ الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ، وركضتُ البغلة فسبقت، فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله ﷺ، ودخل عليه عمر، فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان فدعني أضرب عنقه، قال: قلت: يا رسول الله، إني قد أجرتُه، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه، فقلت: والله لا يناجيه الليلة أحد دوني، فلما أكثر عمر في شأنه قلت: مهلاً يا عمر، فوالله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت مثل هذا، قال: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك كان أحب إليّ من إسلام الخطاب، لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب.

فقال رسول الله ﷺ: اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به، فذهبت، فلما أصبحت غدوت به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه قال: « **ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟** » قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ؟ لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

قال: « ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟»، قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك: أما هذه فإن في النفس حتى الآن منها شيء. فقال له العباس: ويحك أسلم، واشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، قبل أن تضرب عنقك، فأسلم وشهد شهادة الحق.

قال العباس: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً. قال: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن».

في هذا الصباح ـ صباح يوم الثلاثاء للسابع عشر من شهر رمضان سنة ٨ هـ ـ غادر رسول الله ﷺ مر الظهران إلى مكة، وأمر العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي عند خَطْمِ الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها، ففعل، فمرت القبائل على راياتها، كلما مرت به قبيلة قال: يا عباس، من هذه ؟ فيقول ـ مثلا ـ سليم، فيقول: مالي ولِسُلَيْم ؟ ثم تمر به القبيلة فيقول: يا عباس، من هؤلاء ؟ فيقول: مُزَيْنَة، فيقول: مالي ولمزينة ؟ حتى نفذت القبائل، ما تمر به قبيلة إلا سأل العباس عنها، فإذا أخبره قال: مالي ولبني فلان ؟ حتى مر به رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحَدَق من الحديد، قال: سبحان الله ! يا عباس، من هؤلاء ؟ قال: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة، ثم قال: والله يا أبا الفضل، لقد أصبح مُلْكُ ابن أخيك اليوم عظيماً، قال العباس: يا أبا سفيان، إنها النبوة، قال: فنعم إذن.

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة، فلما مر بأبي سفيان قال له: اليوم يوم الملحمة، اليوم تُسْتَحَلُّ الحُرْمَة، اليوم أذل الله قريشاً، فلما حاذى رسول الله ﷺ أبا سفيان قال: يا رسول الله، ألم تسمع ما قال سعد ؟ قال: « وما قال ؟ » فقال: قال كذا وكذا. فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله، ما نأمن أن يكون له في قريش صولة، فقال رسول الله ﷺ: « بل اليوم يوم تُعَظَّم فيه الكعبة، اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً » ثم أرسل إلى سعد فنزع منه اللواء، ودفعه إلى ابنه قيس، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد، وقيل: بل دفعه إلى الزبير.

لما مر رسول الله ﷺ بأبي سفيان ومضى قال له العباس: النجاء إلى قومك، فأسرع أبو سفيان حتى دخل مكة، وصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد، قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن،

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحَمِيت الدسم الأخمش الساقين، قُبِّحَ من طَلِيعَة قوم.

قال أبو سفيان: ويلكم، لاتغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله، وما تغني عنا دارك ؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد، ووبشوا أوباشاً لهم، وقالوا: نقدم هؤلاء، فإن كان لقريش شيء كنا معهم، وإن أصيبوا أعطينا الذي سئلنا، فتجمع سفهاء قريش وأخِفَّاؤها مع عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو بالخَنْدَمَة ليقاتلوا المسلمين.

أما رسول الله ﷺ فمضى حتى انتهي إلى ذي طوى ـ وكان يضع رأسه تواضعاً لله حين رأي ما أكرمه الله به من الفتح، حتى أن شعر لحيته ليكاد يمس واسطة الرحل ـ وهناك وزع جيشه، وكان خالد بن الوليد على المُجَنَّبَةِ اليمني ـ وفيها أسْلَمُ وسُلَيْم وغِفَار ومُزَيْنَة وجُهَيْنَة وقبائل من قبائل العرب ـ فأمره أن يدخل مكة من أسفلها، وقال: « إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصداً، حتى توافوني على الصفا ».

وكان الزبير بن العوام على المُجَنَّبَةِ اليسرى، وكان معه راية رسول الله ﷺ، فأمره أن يدخل مكة من أعلاها ـ من كَدَاء ـ وأن يغرز رايته بالحَجُون، ولا يبرح حتى يأتيه.

وكان أبو عبيدة على الرجالة والحُسَّر ـ وهم الذين لاسلاح معهم ـ فأمره أن يأخذ بطن الوادي حتى ينصب لمكة بين يدي رسول الله ﷺ.

وتحركت كل كتيبة من الجيش الإسلامي على الطريق التي كلفت الدخول منها.

فأما خالد وأصحابه فلم يلقهم أحد من المشركين إلا أناموه، وأما سفهاء قريش فلقيهم خالد وأصحابه بالخَنْدَمَة فناوشوهم شيئا من قتال، فأصابوا من المشركين اثني عشر رجلاً، فانهزم المشركون.

وأقبل خالد يجوس مكة حتى وافى رسول الله ﷺ على الصفا.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وأما الزبير فتقدم حتى نصب راية رسول الله ﷺ بالحَجُون عند مسجد الفتح، وضرب له هناك قبة، فلم يبرح حتى جاءه رسول الله ﷺ.

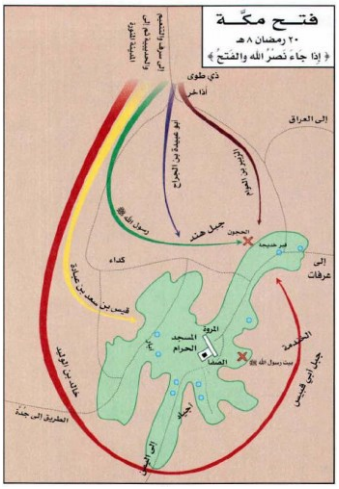

فاصل : درس التوحيد

ثم نهض رسول الله ﷺ، والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله، حتى دخل المسجد، فأقبل إلى الحجر الأسود، فاستلمه، ثم طاف بالبيت، وفي يده قوس، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنما، فجعل يطعنها بالقوس، ويقول: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩] والأصنام تتساقط على وجوهها.

« ﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٠] قوة وهيبة استعلي بهما على سلطان الأرض وقوة المشركين وكلمة ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ تصور القرب والاتصال بالله والاستمداد من عونه مباشرة واللجوء إلى حماه.

وصاحب الدعوة لا يمكن أن يستمد السلطان إلا من الله. ولا يمكن أن يهاب إلا بسلطان الله. لا يمكن أن يستظل بحاكم أو ذي جاه فينصره ويمنعه ما لم يكن اتجاهه قبل ذلك إلى الله. والدعوة قد تغزو قلوب ذوي السلطان والجاه، فيصبحون لها جنداً وخدماً فيفلحون، ولكنها هي لا تفلح إن كانت من جند السلطان وخدمه، فهي من أمر الله، وهي أعلى من ذوي السلطان والجاه.

﴿ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴾ بهذا السلطان المستمد من الله، أعلن مجيء الحق بقوته وصدقه وثباته، وزهوق الباطل واندحاره وجلاءه. فمن طبيعة الصدق أن يحيا ويثبت، ومن طبيعة الباطل أن يتوارى ويزهق..

﴿إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾.. حقيقة لدنية يقررها بصيغة التوكيد. وإن بدا للنظرة الأولى أن للباطل صولة ودولة. فالباطل يتنفخ ويتنفج وينفش، لأنه باطل لا يطمئن إلى حقيقة؛ ومن ثم يحاول أن يموه على العين، وأن يبدو عظيماً

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

كبيراً ضخماً راسخاً، ولكنه هش سريع العطب، كشعلة الهشيم ترتفع في الفضاء عالياً ثم تخبو سريعاً وتستحيل إلى رماد؛ بينما الجمرة الذاكية تدفئ وتنفع وتبقى؛ وكالزبد يطغو على الماء ولكنه يذهب جفاء ويبقى الماء.

﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.. لأنه لا يحمل عناصر البقاء في ذاته، إنما يستمد حياته الموقوتة من عوامل خارجية وأسناد غير طبيعية؛ فإذا تخلخلت تلك العوامل، ووهت هذه الأسناد تهاوى وانهار. فأما الحق فمن ذاته يستمد عناصر وجوده. وقد تقف ضده الأهواء وتقف ضده الظروف ويقف ضده السلطان.. ولكن ثباته واطمئنانه يجعل له العقبى ويكفل له البقاء، لأنه من عند الله الذي جعل ﴿ٱلْحَقُّ﴾ من أسمائه وهو الحي الباقي الذي لا يزول.

﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.. ومن ورائه الشيطان، ومن ورائه السلطان. ولكن وعد الله أصدق، وسلطان الله أقوى. وما من مؤمن ذاق طعم الإيمان، إلا وذاق معه حلاوة الوعد، وصدق العهد. ومن أوفى بعهده من الله؟ ومن أصدق من الله حديثاً؟».

وكان طوافه على راحلته، ولم يكن مُحْرِماً يومئذ، فاقتصر على الطواف، فلما أكمله دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، فأمر بها ففتحت فدخلها، فرأي فيها الصور، ورأي فيها صورة إبراهيم، وإسماعيل – عليهما السلام – يستقسمان بالأزلام، فقال: « قاتلهم الله، والله ما استقسما بها قط ». ورأى في الكعبة حمامة من عيدان، فكسرها بيده، وأمر بالصور فمحيت.

ثم أغلق عليه الباب، وعلى أسامة وبلال، فاستقبل الجدار الذي يقابل الباب حتى إذا كان بينه وبينه ثلاثة أذرع وقف، وجعل عمودين عن يساره، وعموداً عن يمينه، وثلاثة أعمدة وراءه ـ وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة ـ ثم صلى هناك.

قلتُ: كلّ هذا حصل بمشهد من قريش، الدخول متواضعا منكسرا لله، فليس ملكاً غازياً، وإنّما نبيّ مُرسل، دخل معترفا بالفضل لله تعالى منكسا له رأسه، لا متغطرسا رافعاً رأسه مُصَعّراً خدّه.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

يدخل الملوك والغزاة الدول فأوّل ما يبدؤون به الانتقام والثأر وتصفية رؤوس المخالفين، ويدخل رسول الله ﷺ فيبدأ بدرس التوحيد فيحطّم الأصنام، ويمحو الصور وغيرها من مظاهر الشّرك، ويخلص لله تعالى ركعتين في البقعة الّتي شُغلت بالشّرك دهرا طويلاً.

وأصحابه حوله متشاغلين بالتعلم منه وتنفيذ أمره لا منشغلين بالسلب والنهب والسبي كما تفعل أجناد الملوك وأهل الدنيا.

لم يحرق رسول الله ﷺ محفلاً ولم يقطع شجرة ولم يهدم بيتاً، بل بدأ بأهمّ شيء وهو إعلان نهاية الشّرك والوثنية في مكة بلا رجعة حين كان يطيح بأصنامهم بقوسه فيرونها تتساقط أمامهم واحد تلو الآخر بينما كانت أقدارها وهيبتها تسقط من نفوسهم في نفس الوقت، بدليل أنّ أهل مكّة هؤلاء ثبتوا على الإسلام يوم ارتد العرب فيما بعد، وهذا دليل على أنّ هذا الدرس الإيماني مع الدرس الأخلاقي قد خالط بشاشة قلوبهم.

درس العفو والتسامح

ثم دار في البيت، وكبّر في نواحيه، ووحد الله، ثم فتح الباب، وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً ينتظرون ماذا يصنع ؟ فأخذ بعضادتي الباب وهم تحته، فقال: « لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو مال أو دم فهو تحت قدمي هاتين، إلا سِدَانَة البيت وسِقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد ـ السوط والعصا ـ ففيه الدية مغلظة، مائة من الإبل أربعون منها في بطونها أولاد.

يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب» **ثم تلا هذه الآية:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحُجُرات: ١٣]».

ثم قال: « يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم ؟ » قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: « فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ﴾ اذهبوا فأنتم الطلقاء ».

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

هكذا أعلنها ﷺ رساليّة نبوية ربانية تعلو وتسمو فوق حظوظ النّفس ومقاصد الملوك، فالملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أهلها أذلّة، هكذا وصفهم الله في القرآن.

أمّا رسول الله ﷺ فأعلنّ أنّ قريشا في فتح مكة عزّت ولم تذلّ، وأبقى النّبيّ ﷺ الشرف في أهله، كما يأتي في مفاتح الكعبة.

لم يغيّر النّبيّ ﷺ إلاّ أن أزال مظاهر الشرّك وأبطل عادات الجاهليّة.

لو أخذ النّبيّ ﷺ بثأره وعاقب من آذوه وأخرجوه من أرضه وجردوه من ماله وبيته لما لامه أحد، ولكنّها أخلاق النّبوّة الّتي ربّاه عليها ربّه، ولكنّه ذلك القلب الّذي تحدثنا عنه في المرحلة الأولى حين أزيل منه حظّ الشيطان، فتلك التهيئة الربانية الّتي تحدّثنا عنها سابقا هي الّتي أثمرت هذه الأخلاق الرفيعة.

عُدنا

ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد فقام إليه علي رضي الله عنه ومفتاح الكعبة في يده فقال: اجمع لنا الحجابة مع السقاية، صلى الله عليك ـ وفي رواية أن الذي قال ذلك هو العباس ـ فقال رسول الله ﷺ: « **أين عثمان بن طلحة ؟**»، فدعي له، فقال له: « **هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء**»، وفي رواية ابن سعد في الطبقات أنه قال له حين دفع المفتاح إليه: « **خذوها خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف**».

وحانت الصلاة، فأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يصعد فيؤذن على الكعبة، وأبو سفيان بن حرب، وعتاب بن أسيد، والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة، فقال عتاب: لقد أكرم الله أسيدا ألا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه، فقال الحارث: أما والله لو أعلم أنه حق لاتّبعته، فقال أبو سفيان: أما والله لا أقول شيئًا، لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصباء، فخرج عليهم النبي ﷺ فقال لهم: « **لقد علمت الذي قلتم**» ثم ذكر ذلك لهم.

فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

ودخل رسول الله ﷺ يومئذ دار أم هانئ بنت أبي طالب، فاغتسل وصلى ثماني ركعات في بيتها ـ وكان ضحى ـ فظنها من ظنها صلاة الضحى، وإنما هذه صلاة الفتح، وأجارت أم هانئ حموين لها، فقال رسول الله ﷺ: « قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ »، وقد كان أخوها علي بن أبي طالب أراد أن يقتلهما، فأغلقت عليهما باب بيتها، وسألت النبي ﷺ فقال لها ذلك.

قلتُ: ولعل كثيراً ممّن يقرأ تصرفه ﷺ مع أمّ هانئ سيتحدث كثيراً عن قدر المرأة في الإسلام وتكريم الله لها، وهذا حقّ.

لكنّ الّذي يناسب قوله هنا أنّ هذه الرّوح منه ﷺ إنّما تدلّ على تشوّف النّبيّ ﷺ للعفو ونزوعه من القتل، ولهذا لم يقتل إلاّ بضعة نفر قتلهم لعظيم فسادهم وإفسادهم، ولا يهلك على رسول الله ﷺ إلاّ هالك.

وأهدر رسول الله ﷺ يومئذ دماء تسعة نفر من أكابر المجرمين، وأمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، وهم عبد العزى بن خطل، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، والحارث بن نفيل بن وهب، ومقيس بن صبابة، وهبار بن الأسود، وقينتان كانتا لابن الأخطل، كانت تغنيان بهجو النبي ﷺ، وسارة مولاة لبعض بني عبد المطلب، وهي التي وجد معها كتاب حاطب.

فأما ابن أبي سرح فجاء به عثمان إلى النبي ﷺ، وشفع فيه، فحقن دمه، وقبل إسلامه بعد أن أمسك عنه رجاء أن يقوم إليه بعض الصحابة فيقتله، وكان قد أسلم قبل ذلك وهاجر، ثم ارتد ورجع إلى مكة.

وأما عكرمة بن أبي جهل، ففر إلى اليمن، فاستأمنت له امرأته، فأمنه النبي ﷺ فتبعته، فرجع معها وأسلم وحسن إسلامه.

وأما ابن خطل فكان متعلقًا بأستار الكعبة، فجاء رجل إلى النبي ﷺ وأخبره، فقال: « اقتله » فقتله.

وأما مقيس بن صبابة فقتله نميلة بن عبدالله، وكان مقيس قد أسلم قبل ذلك، ثم عدا على رجل من الأنصار فقتله، ثم ارتد ولحق بالمشركين.

وأما الحارث فكان شديد الأذى لرسول الله بمكة، فقتله علي.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وأما هبار بن الأسود فهو الذي كان قد عرض لزينب بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت، فنخس بها حتى سقطت على صخرة وأسقطت جنينها، ففر هبار يوم مكة ثم أسلم وحسن إسلامه.

وأما القينتان فقتلت إحداهما، واستؤمن للأخرى فأسلمت، كما استؤمن لسارة وأسلمت.

وإنّما ذكرت هؤلاء ليُعرف عظيم حلمه وسعة قلبه العطوف ورأفته ﷺ وكيف تعامل مع الّذين آذوه في نفسه وأهله وأصحابه.

ولما كان الغد من يوم الفتح قام رسول الله ﷺ في الناس خطيباً، فحمد الله، وأثنى عليه، ومجده بما هو أهله، ثم قال: « أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً، أو يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما حلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب».

وفي رواية: « لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده ولا تلتقط ساقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاه »، فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر، فإنه لقينهم وبيوتهم، فقال: « إلا الإذخر ».

وكانت خزاعة قتلت يومئذ رجلا من بنى ليث بقتيل لهم في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ بهذا الصدد: « يا معشر خزاعة، ارفعو أيديكم عن القتل، فلقد كثر القتل إن نفع، ولقد قتلتم قتيلا لأَدِيَنّه، فمن قتل بعد مقامي هذا فأهله بخير النظرين، إن شاءوا فدم قاتله، وإن شاءوا فعقله ».

يوم البرّ والوفاء

وفي هذا اليوم حطّ النّبيّ ﷺ أغلب ثقله، وبدأت لوائح نهاية القصة تبدو، وقد استشرف هذا معشر الأنصار، أولئك القوم الّذين كان لهم الفضل بعد الله على الدّعوة إذ احتضنوها كما تحتضن الأمّ وليدها تذود عنه بكل ما أوتيت من قوّة، فكم للأنصار من قتيل بي يدي رسول الله ﷺ، وكم للأنصار من مال منثور بين يدي رسول الله ﷺ.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

بدأ شعور غريب يتسرّب إلى نفوس الأنصار وهم يرون رسول الله ﷺ يمشي في طرقات مكة بين أهله ووطنه، وقد عرفوا شعور المرء تجاه بلده وموطنه الّذي درج فيه أوّل خطواته ونشأ فيه أكل من طعامه وشرب من مائه واستنشق هواءه.

ويبدو أنّهم رأوا في عينيه ﷺ حنيناً وهو يعانق فضاءات مكّة كما يعانق الغائب أهله فدبّ في نفوسهم شعور بالحزن خوفا أن يبدو لرسول الله ﷺ البقاء في مكة، فقال بعضهم لبعض: أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم بها – وهو يدعو على الصفا رافعاً يديه – فلما فرغ من دعائة قال: «**ماذا قلتم ؟**» قالوا: لا شيء يا رسول الله، فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال رسول الله ﷺ: «**معاذ الله، المحيا محياكم، والممات مماتكم**».

وقفة

هذا الموقف الذي وقفه النّبيّ ﷺ من الأنصار لم يكن موقفاً شخصياً لمبايعته الأنصار على البقاء معهم أبد الدهر، وإنّما كان موقفا تعبديا لأنّه ﷺ والمهاجرين معه باعوا بقاءهم في أوطانهم وتركوها لله فأراد الله تعالى أن يتمّ لهم أجرهم بأن لا يعودوا للأرض التي هاجروا منها وتركوها له، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: « عادني رسول الله ﷺ في حجة الوداع من وجع أشفيت منه على الموت فقلت: يا رسول الله أُخَلّفُ بعد أصحابي ؟ قال: « **إنك لن تخلف فتعمل عملاً تبتغي به وجه الله إلا ازددت به درجة ورفعة ولعلك تخلف حتى ينفع بك أقوام ويضر بك آخرون اللهم أمض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم، لكن البائس سعد بن خولة** » رثى له رسول الله ﷺ من أن توفى بمكة.

قال النّووي رحمه الله: « رثى له رسول الله ﷺ من أن توفى بمكة قال العلماء هذا من كلام الراوي وليس هو من كلام النبي ﷺ بل انتهى كلامه ﷺ بقوله: « **لكن البائس سعد بن خولة**» فقال الراوي تفسيرا لمعنى هذا الكلام إنه يرثيه النبي ﷺ ويتوجع له ويرق عليه لكونه مات بمكة، فقيل سبب بؤسه سقوط هجرته لرجوعه عنها مختارا وموته بها، وقيل سبب بؤسه موته بمكة على أي حال كان وإن لم يكن باختياره لما فاته من الأجر والثواب الكامل بالموت في دار هجرته والغربة عن وطنه الذي هجره لله تعالى ».

عُدنا

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وأقام رسول الله ﷺ بمكة تسعة عشر يومًا يجدد معالم الإسلام، ويرشد الناس إلى الهدى والتقى، وخلال هذه الأيام أمر أبا أسيد الخزاعي، فجدد أنصاب الحرم، وبث سراياه للدعوة إلى الإسلام، ولكسر الأوثان التي كانت حول مكة، فكسرت كلها، ونادى مناديه بمكة: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنما إلا كسره.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

غزوة حنين

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾

[التوبة: ٢٥]

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

الكثرة الخادعة

جاء فتح مكة عقب ضربة خاطفة شَدَهَ لها العرب، وبوغتت القبائل المجاورة بالأمر الواقع، الذي لم يكن يمكن لها أن تدفعه، ولذلك لم تمتنع عن الاستسلام إلا بعض القبائل الشرسة القوية المتغطرسة، وفي مقدمتها بطون هوازن وثقيف، رأت هذه البطون من نفسها عزا وأَنَفَةً أن تقابل هذا الانتصار بالخضوع، فاجتمعت إلى مالك ابن عوف النَّصْري، وقررت المسير إلى حرب المسلمين.

ولما أجمع القائد العام ـ مالك بن عوف ـ المسير إلى حرب المسلمين، ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، فسار حتى نزل بأَوْطَاس ـ وهو واد في دار هَوَازِن بالقرب من حُنَيْن، لكن وادي أوطاس غير وادي حنين، وحنين واد إلى جنب ذي المجَاز، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً من جهة عرفات.

وفي يوم السبت ـ السادس من شهر شوال سنة ٨ هـ ـ غادر رسول اللهّ ﷺ مكة ـ وكان ذلك اليوم التاسع عشر من يوم دخوله في مكة ـ خرج في اثني عشر ألفاً من المسلمين ؛ عشرة آلاف ممن كانوا خرجوا معه لفتح مكة، وألفان من أهل مكة. وأكثرهم حديثو عهد بالإسلام واستعار من صفوان بن أمية مائة درع بأداتها، واستعمل على مكة عَتَّاب بن أُسيد.

ولما كان عشية جاء فارس، فقال: إني طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن على بكرة آبائهم بِظُعُنِهم ونَعَمِهم وشائهم اجتمعوا إلى حنين، فتبسم رسول اللهّ ﷺ وقال: «**تلك غنيمة المسلمين غدًا إن شاء اللهّ**».

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وفي طريقهم إلى حنين رأوا سِدْرَة عظيمة خضراء يقال لها: ذات أنْوَاط، كانت العرب تعلق عليها أسلحتهم، ويذبحون عندها ويعكفون، فقال بعض أهل الجيش لرسول اللهّ ﷺ: اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط. فقال: اللهّ أكبر، قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسي: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾[الأعراف: ١٣٨]، « إنها السَّنَنُ، لتركبن سَنَنَ من كان قبلكم ».

درس التوحيد

قال الإمام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله: « ولكن للمشركين شبهة يدلون بها عند هذه القصة، وهي أنهم يقولون: إن بني إسرائيل لم يكفروا، وكذلك الذين قالوا اجعل لنا ذات أنواط لم يكفروا.

فالجواب أن نقول: إن بني إسرائيل لم يفعلوا ذلك، وكذلك الذين سألوا النبي ﷺ لم يفعلوا ذلك، ولا خلاف أن بني إسرائيل لو فعلوا ذلك لكفَرُوا. وكذلك لا خلاف في أن الذين نهاهم النبي ﷺ لو لم يطيعوه واتخذوا ذات أنواط بعد نهيه لكفروا، وهذا هو المطلوب، ولكن هذه القصة تفيد أن المسلم بل العالم قد يقع في أنواع من الشرك لا يدري عنها فتفيد التعلم والتحرز، ومعرفة أن قول الجاهل (التوحيد فهمناه) أن هذا من أكبر الجهل ومكائد الشيطان.

وتفيد أيضا أن المسلم المجتهد إذا تكلم بكلام كفر وهو لا يدري فنبه على ذلك فتاب من ساعته أنه لا يكفر كما فعل بنو إسرائيل، والذين سألوا النبي ﷺ .

وتفيد أيضا أنه لو لم يكفر فإنه يغلظ عليه الكلام تغليظا شديدا كما فعل رسول الله ﷺ ».

قال ابن تيمية رحمه الله: «من أراد أن يعلم كيف كانت أحوال المشركين في عبادة أوثانهم، ويعرف حقيقة الشرك الذي ذمه الله، وأنواعه، حتى يتبين له تأويل القرآن، ويعرف ما كرهه الله ورسوله، فلينظر سيرة النبي ﷺ وأحوال العرب في زمانه.

ولما كان للمشركين شجرة يعلقون عليها أسلحتهم، ويسمونها ذات أنواط، فقال بعض الناس: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط. فقال: « الله أكبر، قلتم كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، إنها

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

السنن لتركبن سنن من كان قبلكم ». فأنكر النبي ﷺ مجرد مشابهتهم للكفار في اتخاذ شجرة يعكفون عليها، معلقين عليها سلاحهم. فكيف بما هو أعظم من ذلك من مشابهتهم المشركين، أو هو الشرك بعينه؟.

وكذلك إذا نذر طعاماً من الخبز أو غيره للحيتان التي في تلك العين، أو البئر. وكذلك إذا نذر مالاً من النقد أو غيره للسدنة، أو المجاورين العاكفين بتلك البقعة، فإن هؤلاء السدنة فيهم شبه من السدنة التي كانت للات والعُزى ومناة، يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله، والمجاورون هناك فيهم شبه من العاكفين الذين قال لهم إبراهيم الخليل إمام الحنفاء، ﷺ: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾[الأنبياء: ٥٢]، وقال: ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[الشعراء: ٧٥-٧٧] والذين أتى عليهم موسى عليه السلام وقومه، كما قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡ﴾[الأعراف: ١٣٨].

فالنّذْر لأولئك السدنة والمجاورين في هذه البقاع التي لا فضل في الشريعة للمجاور بها، نذر معصية، وفيه شبه من النذر لسدنة الصلبان والمجاورين عندها، أو لسدنة الأبداد التي بالهند، والمجاورين عندها».

والمقصود أن نذكّر بخطورة الشرك، وحضوره في حياة النّبيّ ﷺ كأكبر منكر كان ينكره وينكر وسائله ومقدماته وكل ما يقرب إليه ويدني منه.

ومن العجب أنّ هؤلاء الصحابة الكرام رغم طول مكثهم مع النّبيّ ﷺ ومعرفتهم بالدين وباللغة الّتي نزل بها الدين إلاّ أنّهم جهلوا تفصيلاً من تفاصيل التوحيد، وذهلوا عن أنّ الأصل في أهل الشرك المفاصلة وعدم التشبه بهم في عباداتهم خاصة لما شابها وغلب عليها من التعلّق بغير الله تعالى.

ومع هذا نرى في أيامنا هذه من يسخر من اهتمام أهل السنة بالتوحيد وبيان خطر الشرك ويرى أنّ الأمّة تجاوزت قنطرة الشرك، وهذا منه إمّا جهلاً بحقيقة الدين الّذي جاء به النّبيّ ﷺ والذي يشكل التوحيد قاعدته، وإمّا غفلة وجهلاً بواقع الأمّة الّذي امتلأ بمظاهر الشّرك الأكبر والأصغر على حدّ سواء في المزارات والمشاهد، وفي العادات والعبادات، وحتى في الألفاظ والأقوال.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

عبرة أخرى

بل انظر إلى خطر التشبه والاغترار بأهل الشرك رغم أنّ الصحابة كانوا في موقف عدائي ويهمون بقتال أهل الشرك ومع هذا أعجب بعضهم بما عليه العدوّ.

وهذا الداء ما زال مستشريا في الأمّة إلى عصرنا هذا، فمازال كثير من المسلمين للأسف ينافس الكفار بطرق من جنس ما يفعلون، وهذا منتهى الخطأ، فالله تعالى ميّز أهل الإسلام بشريعة كاملة تامّة، وأباح لهم بل أمرهم بإعداد القوة بكل أشكالها في مواجهة الأعداء.

لكنه مع هذا حذّر أمّته من الانجرار خلف عادات الكفار وطرائقهم وجعل ذلك من مشاقة الله ورسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

عُدنا

وقد كان بعضهم قال نظراً إلى كثرة الجيش: « لن نُغْلَبَ اليوم »، وكان قد شق ذلك على رسول اللهّ ﷺ.

وصل الجيش الإسلامي إلى حنين، الليلة التي بين الثلاثاء والأربعاء لعشر خلون من شوال، وكان مالك بن عوف قد سبقهم، فأدخل جيشه بالليل في ذلك الوادي، وفرق كُمَنَاءه في الطرق والمداخل والشعاب والأخباء والمضايق، وأصدر إليهم أمره بأن يرشقوا المسلمين أول ما طلعوا، ثم يشدوا شدة رجل واحد.

وبالسَّحَر عبأ رسول اللهّ ﷺ جيشه، وعقد الألوية والرايات، وفرقها على الناس، وفي عَمَاية الصبح استقبل المسلمون وادي حنين، وشرعوا ينحدرون فيه، وهم لا يدرون بوجود كمناء العدو في مضايق هذا الوادي، فبينا هم ينحطون إذا تمطر عليهم النبال، وإذا كتائب العدو قد شدت عليهم شدة رجل واحد، فانشمر المسلمون راجعين، لا يلوي أحد على أحد، وكانت هزيمة منكرة، حتى قال أبو سفيان بن حرب،

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وهو حديث عهد بالإسلام: «لا تنتهي هزيمتهم دون البحر»، وصرخ جَبَلَةُ أو كَلَدَةُ بن الحَنْبَل: «ألا بطل السِّحْر اليوم».

وانحاز رسول اللهّ ﷺ جهة اليمين وهو يقول: « هَلُمُّوا إلى أيها الناس، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد اللهّ » ولم يبق معه في موقفه إلا عدد قليل من المهاجرين والأنصار. تسعة على قول ابن إسحاق، واثنا عشر على قول النووي، والصحيح ما رواه أحمد والحاكم في المستدرك من حديث ابن مسعود، قال: كنت مع النبي ﷺ يوم حنين، فولّى عنه الناس وثبت معه ثمانون رجلاً من المهاجرين والأنصار، فكنا على أقدامنا ولم نُوَلِّهم الدُّبُر، وروى الترمذي من حديث ابن عمر بإسناد حسن قال: لقد رأيتنا يوم حنين وإن الناس لمولين، وما مع رسول اللهّ ﷺ مائة رجل.

وحينئذ ظهرت شجاعة النبي ﷺ التي لا نظير لها، فقد طفق يركض بغلته قبل الكفار وهو يقول:

أنا النبيّ لا كَذِبْ ** أنا ابن عبد المطلب

بيد أن أبا سفيان بن الحارث كان آخذا بلجام بغلته، والعباس بركابه، يكفانها ألا تسرع، ثم نزل رسول اللهّ ﷺ فاستنصر ربه قائلاً: « اللّهم أنزل نصْرَك ».

وأمر رسول اللهّ ﷺ عمه العباس ـ وكان جَهِيَر الصوت ـ أن ينادي الصحابة، قال العباس: فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السَّمُرَة ؟ قال: فوالله لكأن عَطْفَتَهُم حين سمعوا صوتي عَطْفَة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك، يا لبيك، ويذهب الرجل ليثني بعيره فلا يقدر عليه، فيأخذ درعه، فيقذفها في عنقه، ويأخذ سيفه وترسه، ويقتحم عن بعيره، ويخلي سبيله، فيؤم الصوت، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس واقتتلوا.

وصرفت الدعوة إلى الأنصار: يا معشر الأنصار، يا معشر الأنصار، ثم قصرت الدعوة في بني الحارث بن الخزرج، وتلاحقت كتائب المسلمين واحدة تلو الأخرى كما كانوا تركوا الموقعة، وتجالد الفريقان مجالدة شديدة، ونظر رسول اللهّ ﷺ إلى ساحة القتال، وقد استحر واحتدم، فقال: « الآن حَمِي الوَطِيسُ »، ثم أخذ رسول اللهّ ﷺ قبضة من تراب الأرض، فرمى بها في وجوه القوم وقال: « شاهت الوجوه »، فما خلق اللهّ إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً من تلك القبضة، فلم يزل حَدُّهُم كَلِيلاً وأمرهم مُدْبِرًا.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وما هي إلا ساعات قلائل ـ بعد رمي القبضة ـ حتى انهزم العدو هزيمة منكرة، وقتل من ثَقِيف وحدهم نحو السبعين، وحاز المسلمون ما كان مع العدو من مال وسلاح وظُعُن.

وهذا هو التطور الذي أشار إليه سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[التوبة: ٢٥، ٢٦] .

هذه الغزوة تأتي مذكرة للنّبيّ ﷺ وأصحابه بأسباب النصر.

إنّ المسلمين وإن كانوا مأمورين بالأخذ بأسباب القوّة كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾[الأنفال: ٦٠]، ومن أسباب القوة الكثرة العددية، لكنّ هذه الأسباب ليست هي التي تحقق النصر، خاصة حين يكون العامل الإيماني مساهماً في المعركة كدافع وكهدف.

بمعنى أنّ الأسباب المادية تعمل عملها في الأصل وتميل بكفة النصر لصالح الأقوى هذا إذا اختفى العامل الإيماني لكن إذا كان سبب القتال إيمانياً وهو القتال الذي يراد منه إعلاء كلمة الله فحينئذ يكون للقوى معادلة أخرى، ولذلك كان عمر رضي الله عنه إذا استبطأ النصر من قادته كتب لهم: « **إنا لا نقاتل الناس بعدد ولا عدة إنما نقاتلهم بهذا الدين فلعلكم أحدثتم أمراً** ». يذكرهم لعلكم أحدثتم شيئاً فراجعوا أنفسكم، هل أخللتم بشيء من أسباب النصر.

ومن قدر الدعوة أنّها دائما كانت الأقل عتادا وعدة، وقد شهدت كيف ينصر الله من استنصر به وتوكل عليه وأخلص النية له، ومع توسع رقعة الدولة وكثرة الداخلين في الإسلام خاصة بعد فتح مكة جاءت هذه الغزوة وأحداثها لتذكر الأمّة أنّهم لا ينتصرون بغير الله أبداً.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وقد قال بعض من رافق النّبيّ ﷺ :«إنّنا لا نهزم اليوم»، وذلك منه نظر إلى القوة المادية، إذن فقد تسرب شيء من المخزون العقدي الإيماني ليزاحمه الركون إلى القوة المادية، فكان ذلك الدرس الذي تلقاه المسلمون تطبيقيا كما تعلموا مثله يوم أحد.

وهكذا هي كل أحداث النّبيّ ﷺ كأنّه كان في كل موقف ينفذ درسا أنموذجياً جديداً، والدرس اليوم هو التوكل على الله تعالى بإطلاق، والنقص من هذا الاعتماد والتوكل ينعكس مباشرة على الواقع.

وهذا لا يعني أنّ فقد التوكل والاعتماد يعني الهزيمة قطعا، بل المراد أنّ غياب العامل الإيماني يعيد الاعتبار لكفة القوى المادية فترجح القوة على الضعف والكثرة على القلة والدهاء على الغفلة.

وأمرّ من ذلك أن يكون إهمال التوكل على الله والاستنصار به سببا في الهزيمة حتى لو كان المسلمون أقوى وأكثر، فالله تعالى يمحص الفئة المؤمنة ويتعامل معها بحسابات أخرى غير بقية الأمم الكافرة، فإذا تخلت عن المنهج الرباني عوقبت بتسليط الآخرين عليها.

«إنّ الهزيمة لا تلحق بالمؤمنين، ولم تلحق بهم في تاريخهم كله، إلا وهناك ثغرة في حقيقة الإيمان، إما في الشعور وإما في العمل ، ومن الإيمان أخذ العدة وإعداد القوة في كل حين بنية الجهاد في سبيل الله وتحت هذه الراية وحدها مجردة من كل إضافة ومن كل شائبة – وبقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية؛ ثم يعود النصر للمؤمنين – حين يوجدون!

ففي (أحد) مثلاً كانت الثغرة في ترك طاعة الرسول ﷺ وفي الطمع في الغنيمة، وفي (حنين) كانت الثغرة في الاعتزاز بالكثرة والإعجاب بها ونسيان السند الأصيل! ولو ذهبنا نتتبع كل مرة تخلف فيها النصر عن المسلمين في تاريخهم لوجدنا شيئا من هذا،نعرفه أو لا نعرفه، أما وعد الله فهو حق في كل حين.

نعم، إن المحنة قد تكون للابتلاء، ولكن الابتلاء إنما يجيء لحكمة، هي استكمال حقيقة الإيمان، ومقتضياته من الأعمال – كما وقع في أحد وقصه الله على المسلمين – فمتى اكتملت تلك الحقيقة بالابتلاء والنجاح فيه، جاء النصر وتحقق وعد الله عن يقين،

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

على أنني إنما أعني بالهزيمة معنى أشمل من نتيجة معركة من المعارك، إنما أعني بالهزيمة هزيمة الروح، وكلال العزيمة، فالهزيمة في معركة لا تكون هزيمة إلا إذا تركت آثارها في النفوس هموداً وكلالاً وقنوطاً، فأما إذا بعثت الهمة، وأذكت الشعلة، وبصرت بالمزالق، وكشفت عن طبيعة العقيدة وطبيعة المعركة وطبيعة الطريق، فهي المقدمة الأكيدة للنصر الأكيد، ولو طال الطريق!»

«إن معركة حنين التي يذكرها السياق هنا ليعرض نتائج الانشغال عن الله، والاعتماد على قوة غير قوته، لتكشف لنا عن حقيقة أخرى ضمنية، حقيقة القوى التي تعتمد عليها كل عقيدة، إن الكثرة العددية ليست بشيء، إنما هي القلة العارفة المتصلة الثابتة المتجردة للعقيدة، وإن الكثرة لتكون أحياناً سبباً في الهزيمة، لأن بعض الداخلين فيها، التائهين في غمارها، ممن لم يدركوا حقيقة العقيدة التي ينساقون في تيارها، تتزلزل أقدامهم وترتجف في ساعة الشدة؛ فيشيعون الاضطراب والهزيمة في الصفوف، فوق ما تخدع الكثرة أصحابها فتجعلهم يتهاونون في توثيق صلتهم بالله، انشغالاً بهذه الكثرة الظاهرة عن اليقظة لسر النصر في الحياة».

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

غزوة الطائف

« اللّهم اهد ثقيفاً، وائت بهم»

رسول الله ﷺ

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

الهداية أولاً

هذه الغزوة في الحقيقة امتداد لغزوة حنين، وذلك أن معظم فلول هَوَازن وثَقِيف دخلوا الطائف مع القائد العام ـ مالك بن عوف النَّصْرِي ـ وتحصنوا بها، فسار إليهم رسول الله ﷺ بعد فراغه من حنين وجمع الغنائم بالجعرانة، في الشهر نفسه ـ شوال سنة ٨ هـ.

وقدم خالد بن الوليد على مقدمته طليعة في ألف رجل، ثم سلك رسول الله ﷺ إلى الطائف، فمر في طريقه على نخلة اليمانية، ثم على قَرْنِ المنازل، ثم على لِيَّةَ، وكان هناك حصن لمالك بن عوف فأمر بهدمه، ثم واصل سيره حتى انتهي إلى الطائف فنزل قريباً من حصنه، وعسكر هناك، وفرض الحصار على أهل الحصن.

أحد نماذج المنجنيق

ودام الحصار مدة غير قليلة، ففي رواية أنس عند مسلم: أن مدة حصارهم كانت أربعين يوماً، وعند أهل السير خلاف في ذلك، فقيل: عشرين يوماً، وقيل: بضعة عشر، وقيل: ثمانية عشر، وقيل: خمسة عشر.

ووقعت في هذه المدة مراماة، ومقاذفات، فالمسلمون أول ما فرضوا الحصار رماهم أهل الحصن رمياً شديداً، كأنه رِجْل جراد، حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة، وقتل منهم اثنا عشر رجلاً، واضطروا إلى الارتفاع عن معسكرهم إلى مسجد الطائف اليوم، فعسكروا هناك.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

ونصب النبي ﷺ المنجنيق على أهل الطائف، وقذف به القذائف، حتى وقعت شدخة في جدار الحصن، فدخل نفر من المسلمين تحت دبابة[١] .

ودخلوا بها إلى الجدار ليحرقوه، فأرسل عليهم العدو سكك الحديد محماة بالنار. فخرجوا من تحتها، فرموهم بالنبل وقتلوا منهم رجالاً.

وأمر رسول اللهّ ﷺ ـ كجزء من سياسة الحرب لإلجاء العدو إلى الاستسلام ـ أمر بقطع الأعناب وتحريقها، فقطعها المسلمون قطعاً ذريعاً، فسألته ثقيف أن يدعها للهّ والرحم، فتركها للهّ والرحم.

ونادى مناديه ﷺ: أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر، فخرج إليهم ثلاثة وعشرون رجلاً، فيهم أبو بكرة ـ تسور حصن الطائف، وتدلي منه ببكرة مستديرة يستقى عليها، فكناه رسول اللهّ ﷺ [أبا بكرة] ـ فأعتقهم رسول اللهّ ﷺ، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه، فشق ذلك على أهل الحصن مشقة شديدة.

ولما طال الحصار واستعصى الحصن، وأصيب المسلمون بما أصيب من رشق النبال وبسكك الحديد المحماة ـ وكان أهل الحصن قد أعدوا فيه ما يكفيهم لحصار سنة ـ استشار رسول اللهّ ﷺ نَوْفَل بن معاوية الدِّيلي فقال: هم ثعلب في جحر، إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك، وحينئذ عزم رسول اللهّ ﷺ على رفع الحصار والرحيل، فأمر عمر بن الخطاب فأذن في الناس، إنا قافلون غداً إن شاء اللهّ، فثقل عليهم وقالوا: نذهب ولا نفتحه ؟ فقال رسول اللهّ ﷺ: « **اغدوا على القتال** »، فغدوا فأصابهم جراح، فقال: « **إنا قافلون غداً إن شاء اللهّ** » فسُرّوا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون، ورسول اللهّ ﷺ يضحك.

وقال بعضهم: يا رسول اللهّ، ادع على ثقيف، فقال: « **اللّهم اهد ثقيفا، وائت بهم** ».

❁❁❁

(١) المقصود بها صندوق خشبي يدخل الجنود تحته ليقتحموا الحصن يتقون به السهام .

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

غزوة تبوك

دعوه، فان يك فيه خير فسيلحقه الله بكم.. وان يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه»

رسول الله ﷺ

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

التصفية

غزوة تبوك هي غزوة العسر والشدة والتمحيص، وربّما جاءت كامتحان للقدرات، وكأنّ النّبيّ ﷺ وقد عرف أنّه سيموت قريبا وأنّ على من بعده من الخلفاء أن يواصلوا مسيرة الدعوة والغزو، فكأنّه بذلك مهّد لهم الأمر عند المسلمين بأنّ الغزو لن يتوقف بموته ﷺ، ومهّد لهم الأمر بأنّ الدعوة لا يجوز أن تقف على حدود الجزيرة، بل لها أمد غير محدود، فأينما وجد الناس وجب أن تصل الدعوة بعزّ عزيز وذلّ ذليل.

كما كانت إعلاناً دولياً عن قدرة المسلمين العسكرية واستعدادهم للمجيء للقاء من شاءوا في عقر داره، فكانت إنذاراً بحق للقريب والبعيد، أنّ يد الدولة الإسلامية طويلة تصل ما بلغته عيونها.

وليس في هذه الغزوة كبير شأن من حيث القتال لأنّه لم يحدث اشتباك.

وإنّما أخذت موقعها المهم في السيرة من حيث النصر المعنوي الذي حازه المسلمون حين جبنت الدولة العظمى في ذلك الوقت عن ملاقاة المسلمين، وكان هذا بمثابة إعلانها التخلي عن عملائها في الجزيرة العربية وعدم رغبتها الدخول في حروب مع المسلمين، وهذا يعني أنّ على العملاء من الغساسنة وغيرهم ملاقاة النّبيّ ﷺ وحدهم وهذا غير ممكن بعد أن دانت الجزيرة له، أو التسليم لحكمه ﷺ والدخول في عقده وهذا ما حدث.

وكانت الأنباء تترامى إلى المدينة بإعداد الرومان؛ للقيام بغزوة حاسمة ضد المسلمين، حتى كان الخوف يتسورهم كل حين، لا يسمعون صوتاً غير معتاد إلا ويظنونه زحف الرومان.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

كانت هذه هي الأحوال والأخبار التي يواجهها ويتلقاها المسلمون، إذ بلغهم من الأنباط الذين قدموا بالزيت من الشام إلى المدينة أن هرقل قد هيأ جيشاً عرمرماً قوامه أربعون ألف مقاتل، وأعطى قيادته لعظيم من عظماء الروم، وأنه أجلب معهم قبائل لَخْمٍ وجُذَامٍ وغيرهما من متنصرة العرب، وأن مقدمتهم بلغت إلى البلقاء، وبذلك تمثل أمام المسلمين خطر كبير.

والذي كان يزيد خطورة الموقف أن الزمان كان فصل القيظ الشديد، وكان الناس في عسرة وجدب من البلاء وقلة من الظهر، وكانت الثمار قد طابت، فكانوا يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم فيه، ومع هذا كله كانت المسافة بعيدة، والطريق وعرة صعبة.

ولكن الرسول ﷺ كان ينظر إلى الظروف والتطورات بنظر أدق وأحكم من هذا كله، إنه كان يرى أنه لو تواني وتكاسل عن غزو الرومان في هذه الظروف الحاسمة، وترك الرومان لتجوس خلال المناطق التي كانت تحت سيطرة الإسلام ونفوذه، وتزحف إلى المدينة كان له أسوأ أثر على الدعوة الإسلامية وعلى سمعة المسلمين العسكرية، فالجاهلية التي تلفظ نفسها الأخير بعد ما لقيت من الضربة القاصمة في حنين ستحيا مرة أخرى، والمنافقون الذين يتربصون الدوائر بالمسلمين، ويتصلون بملك الرومان بواسطة أبي عامر الفاسق سيبعجون بطون المسلمين بخناجرهم من الخلف، في حين تهجم الرومان بحملة ضارية ضد المسلمين من الأمام، وهكذا يخفق كثير من الجهود التي بذلها هو أصحابه في نشر الإسلام، وتذهب المكاسب التي حصلوا عليها بعد حروب دامية ودوريات عسكرية متتابعة متواصلة تذهب هذه المكاسب بغير جدوى.

كان رسول اللهّ ﷺ يعرف كل ذلك جيداً، ولذلك قرر القيام ـ مع ما كان فيه من العسرة والشدة ـ بغزوة فاصلة يخوضها المسلمون ضد الرومان في حدودهم، ولا يمهلونهم حتى يزحفوا إلى دار الإسلام.

ولما قرر الرسول ﷺ الموقف أعلن في الصحابة أن يتجهزوا للقتال، وبعث إلى القبائل من العرب وإلى أهل مكة يستنفرهم، وكان قَلّ ما يريد غزوة يغزوها إلا وَرَّى بغيرها، ولكنه نظراً إلى خطورة الموقف وإلى شدة العسرة أعلن أنه يريد لقاء الرومان، وجلّى للناس أمرهم ؛ ليتأهبوا أهبة كاملة، وحضهم على الجهاد، ونزلت قطعة من سورة براءة

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

تثيرهم على الجلاد، وتحثهم على القتال، ورغبهم رسول اللهّ ﷺ في بذل الصدقات، وإنفاق كرائم الأموال في سبيل اللهّ.

ولم يكن من المسلمين أن سمعوا صوت رسول اللهّ ﷺ يدعو إلى قتال الروم إلا وتسابقوا إلى امتثاله، فقاموا يتجهزون للقتال بسرعة بالغة، وأخذت القبائل والبطون تهبط إلى المدينة من كل صوب وناحية، ولم يرض أحد من المسلمين أن يتخلف عن هذه الغزوة ـ إلا الذين في قلوبهم مرض وإلا ثلاثة نفر ـ حتى كان يجيء أهل الحاجة والفاقة يستحملون رسول اللهّ ﷺ ؛ ليخرجوا إلى قتال الروم، فإذا قال لهم: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

كما تسابق المسلمون في إنفاق الأموال وبذل الصدقات، كان عثمان بن عفان قد جهز عيراً للشام، مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها، ومائتا أوقية، فتصدق بها، ثم تصدق بمائة بعير بأحلاسها وأقتابها، ثم جاء بألف دينار فنثرها في حجره ﷺ، فكان رسول اللهّ ﷺ يقلبها ويقول: «ما ضَرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم»، ثم تصدق وتصدق حتى بلغ مقدار صدقته تسعمائة بعير ومائة فرس سوى النقود.

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية فضة، وجاء أبو بكر بماله كلّه ولم يترك لأهله إلا اللهّ ورسوله ـ وكانت أربعة آلاف درهم ـ وهو أول من جاء بصدقته، وجاء عمر بنصف ماله، وجاء العباس بمال كثير، وجاء طلحة وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة، كلهم جاءوا بمال، وجاء عاصم بن عدي بتسعين وَسْقًا من التمر، وتتابع الناس بصدقاتهم قليلها وكثيرها، حتى كان منهم من أنفق مُدّا أو مدين لم يكن يستطيع غيرها، وبعثت النساء ما قدرن عليه من مَسَك ومعاضد وخلاخل وقُرْط وخواتم.

ولم يمسك أحد يده، ولم يبخل بماله إلا المنافقون ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

تحرك رسول اللهّ ﷺ يوم الخميس نحو الشمال يريد تبوك، ولكن الجيش كان كبيراً ـ ثلاثون ألف مقاتل، لم يخرج المسلمون في مثل هذا الجمع الكبير قبله قط ـ فلم يستطع المسلمون مع ما بذلوه من الأموال أن يجهزوه تجهيزاً كاملاً،

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

بل كانت في الجيش قلة شديدة بالنسبة إلى الزاد والمراكب، فكان ثمانية عشر رجلاً يعتقبون بعيراً واحداً، وربما أكلوا أوراق الأشجار حتى تورمت شفاههم، واضطروا إلى ذبح البعير ـ مع قلتها ـ ليشربوا ما في كرشه من الماء، ولذلك سمي هذا الجيش جيش العُسْرَةِ.

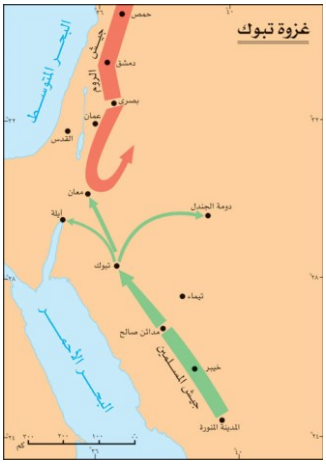

نزل الجيش الإسلامي بتبوك، فعسكر هناك، وهو مستعد للقاء العدو، وقام رسول اللهّ ﷺ فيهم خطيباً، فخطب خطبة بليغة، أتى بجوامع الكلم، وحض على خير الدنيا والآخرة، وحذّر وأنذر، وبشر وأبشر، حتى رفع معنوياتهم، وجبر بها ما كان فيهم من النقص والخلل من حيث قلة الزاد والمادة والمؤنة.

وأما الرومان وحلفاؤهم فلما سمعوا بزحف رسول اللهّ ﷺ أخذهم الرعب، فلم يجترئوا على التقدم واللقاء، بل تفرقوا في البلاد في داخل حدودهم، فكان لذلك أحسن أثر بالنسبة إلى سمعة المسلمين العسكرية، في داخل الجزيرة وأرجائها النائية، وحصل بذلك المسلمون على مكاسب سياسية كبيرة خطيرة، لعلهم لم يكونوا يحصلون عليها لو وقع هناك اصطدام بين الجيشين.

جاء يُحَنَّة بن رُؤْبَةَ صاحب أيْلَةَ، فصالح الرسول ﷺ وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جَرْبَاء وأهل أذْرُح، فأعطوه الجزية، وكتب لهم رسول اللهّ ﷺ كتاباً فهو عندهم، وصالحه أهل مِينَاء على ربع ثمارها.

وبعث رسول اللهّ ﷺ خالد بن الوليد إلى أُكَيْدِرِ دُومَة الجَنْدَل في أربعمائة وعشرين فارساً، وقال له: «**إنك ستجده يصيد البقر**»، فأتاه خالد، فلما كان من حصنه بمنظر العين، خرجت بقرة، تحك بقرونها باب القصر، فخرج أكيدر لصيدها ـ وكانت ليلة مقمرة ـ فتلقاه خالد في خيله، فأخذه وجاء به إلى رسول اللهّ ﷺ، فحقن دمه، وصالحه على ألفي بعير، وثمانمائة رأس وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح، وأقر بإعطاء الجزية، فقاضاه مع يُحَنَّة على قضية دُومَة وتبوك وأيْلَةَ وَتَيْماء.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وأيقنت القبائل التي كانت تعمل لحساب الرومان أن اعتمادها على سادتها الأقدمين قد فات أوانه، فانقلبت لصالح المسلمين، وهكذا توسعت حدود الدولة الإسلامية، حتى لاقت حدود الرومان مباشرة، وشهد عملاء الرومان نهايتهم إلى حد كبير.

ورجع الجيش الإسلامي من تبوك مظفرين منصورين، لم ينالوا كيداً، وكفى الله المؤمنين القتال، وفي الطريق عند عَقَبة، حاول اثنا عشر رجلاً من المنافقين الفتك بالنبي ﷺ، وذلك أنه حينما كان يمر بتلك العقبة كان معه عمار يقود بزمام ناقته، وحذيفة ابن اليمان يسوقها، وأخذ الناس ببطن الوادي، فانتهز أولئك المنافقون هذه الفرصة. فبينما رسول اللهّ ﷺ وصاحباه يسيران إذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم، قد غشوه وهم ملتثمون، فبعث حذيفة فضرب وجوه رواحلهم بِمِحْجَن كان معه، فأرعبهم اللهّ، فأسرعوا في الفرار حتى لحقوا بالقوم، وأخبر رسول اللهّ ﷺ بأسمائهم، وبما هموا به، فلذلك كان حذيفة يُسَمّى بصاحب سر رسول الله ﷺ، وفي ذلك يقول اللهّ تعالى: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ [التوبة: ٧٤].

ولما لاحت للنبي ﷺ معالم المدينة من بعيد قال: « هذه طَابَةُ، وهذا أُحُدٌ، جبل يحبنا ونحبه »، وتسامع الناس بمقدمه، فخرج النساء والصبيان والولائد يقابلن الجيش بحفاوة بالغة ويقلن:

طلع البدر علينا ** من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ** ما دعا لله داع

وكانت عودته ﷺ من تبوك ودخوله في المدينة في رجب سنة ٩ هـ واستغرقت هذه الغزوة خمسين يوماً، أقام منها عشرين يوماً في تبوك، والبواقي قضاها في الطريق جيئة وذهوبًا. وكانت هذه الغزوة آخر غزواته ﷺ .

درس الصدق

كانت غزوة تبوك درساً في الصدق، فقد جاءت بظروفها كلّها – بلا استثناء – مُعاكِسَةً لطبيعة النفس البشريّة، جاءت في وقت فقر وضِيق، وجاءت في وقت يركن فيه الناس للراحة والدعة ومراقبة ثمارهم وهي تطيب، وجاءت في وقت حرّ شديد وقيظ، وجاءت في مواجهة عدوّ شرس وقويّ.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

ولهذا نجد انكشاف النفاق في هذه الغزوة كما لم يسبق مثله، ولهذا أيضاً نجد الحديث عن تبوك في سورة براءة حديثا ضافيا في النفاق والمنافقين.

فقد أثبت أصحاب النّبيّ ﷺ أنّهم أهل صدق، صدق في البذل، وصدق في اللقاء، وصدق في الطاعة، وصدق الرغبة في الآخرة.

إنّ المنافق مهما شكّل في ظاهر الأمر زيادة في العدد وزيادة في القوة، فإنّه في حقيقة الأمر عبء على الجماعة المقاتلة ولهذا كان النّبيّ ﷺ يقبل من أيّ منهم أيّ عذر ليتخلّف، ولهذا قال: « دعوه، فان يكُ فيه خير فسيلحقه الله بكم.. وإن يكُ غير ذلك فقد أراحكم الله منه».

ومن هنا كانت الغزوة فرصة أخيرة لفضح النفاق وأهله.

وكانت الغزوة كذلك فرصة ليجرب المؤمنون طريقة أخرى في التعامل، طريقة فيها نوع من الحزم معهم إذا أخطئوا، فلم يعودوا تلك النبتة الطريّة الّتي يُخشى عليها من نسمة عابرة، أو ذلك الطفل الصغير الّذي يُراعى في ميوعته، بل قد رسخ الإيمان في قلوبهم حتّى أصبح كالنخلة الباسقة الّتي تهزّها الريح شمالا ويمينا لكنّ أصلها راسخ في عمق الأرض.

يقول سيّد رحمه الله: «إنّ النفس البشرية ليست كاملة – في واقعها – ولكنها في الوقت ذاته قابلة للنمو والارتقاء حتى تبلغ أقصى الكمال المقدر لها في هذه الأرض.

وها نحن أولاء نرى قطاعاً من قطاعات البشرية – كما هو وعلى الطبيعة – ممثلاً في الجماعة التي تمثل قمة الأمة التي يقول الله عنها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠] وهم أصحاب محمد ﷺ المثل الكامل للنفس البشرية على الإطلاق، فماذا نرى؟ نرى مجموعة من البشر فيهم الضعف وفيهم النقص، وفيهم من يبلغ أن يقول الله عنهم: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ۖ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾[آل عمران: ١٥٥]، ومن يبلغ أن يقول الله عنهم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾[آل عمران: ١٥٢]، وفيهم من يقول الله عنهم: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[آل عمران: ١٢٢]، وفيهم من ينهزم وينكشف وتبلغ منهم الهزيمة ما وصفه الله سبحانه بقوله: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

وكل هؤلاء مؤمنون مسلمون; ولكنهم كانوا في أوائل الطريق، كانوا في دور التربية والتكوين، ولكنهم كانوا جادين في أخذ هذا الأمر مسلمين أمرهم لله مرتضين قيادته ومستسلمين لمنهجه، ومن ثم لم يطردهم الله من كنفه بل رحمهم وعفا عنهم; وأمر نبيه ﷺ أن يعفو عنهم ويستغفر لهم وأمره أن يشاورهم في الأمر بعد كل ما وقع منهم وبعد كل ما وقع من جراء المشورة! نعم إنه – سبحانه – تركهم يذوقون عاقبة تصرفاتهم تلك وابتلاهم ذلك الابتلاء الشاق المرير، ولكنه لم يطردهم خارج الصف ولم يقل لهم: إنكم لا تصلحون لشيء من هذا الأمر بعد ما بدا منكم في التجربة من النقص والضعف، لقد قبل ضعفهم هذا ونقصهم ورباهم بالابتلاء ثم رباهم بالتعقيب على الابتلاء والتوجيه إلى ما فيه من عبر وعظات، في رحمة وفي عفو وفي سماحة; كما يربت الكبير على الصغار; وهم يكتوون بالنار ليعرفوا ويدركوا وينضجوا، وكشف لهم ضعفهم ومخبآت نفوسهم لا ليفضحهم بها ويرذلهم ويحقرهم ولا ليرهقهم ويحملهم ما لا يطيقون له حملاً، ولكن ليأخذ بأيديهم ويوحي إليهم أن يثقوا بأنفسهم ولا يحتقروها ولا ييأسوا من الوصول ما داموا موصولين بحبل الله المتين.

ثم وصلوا، وصلوا في النهاية وغلبت فيهم النماذج التي كانت في أول المعركة معدودة، وإذا هم في اليوم التالي للهزيمة والقرح يخرجون مع رسول الله ﷺ غير هيَّابين ولا مترددين ولا وجلين من تخويف الناس لهم حتى استحقوا تنويه الله بهم: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

ولما كبروا بعد ذلك شيئاً فشيئاً، تغيرت معاملتهم وحوسبوا كما يحاسب الرجال الكبار، بعد ما كانوا يربتون هنا كما يربت الأطفال! والذي يراجع غزوة تبوك في سورة براءة، ومؤاخذة الله ورسوله للنفر القلائل المتخلفين تلك المؤاخذة العسيرة يجد الفرق واضحاً في المعاملة; ويجد الفرق واضحاً في مراحل التربية الإلهية العجيبة.

كما يجد الفارق بين القوم يوم أحد والقوم يوم تبوك، وهم هم، ولكن بلغت بهم التربية الإلهية هذا المستوى السامق، ولكنهم مع هذا ظلوا بشراً، وظل فيهم الضعف والنقص والخطأ، ولكن ظل فيهم كذلك الاستغفار والتوبة والرجوع إلى الله.

إنها الطبيعة البشرية التي يحافظ عليها هذا المنهج; ولا يبدلها أو يعطلها ولا يحملها ما لا تطيق، وإن بلغ بها أقصى الكمال المقدر لها في هذه الأرض.

وهذه الحقيقة ذات قيمة كبيرة في إعطاء الأمل الدائم للبشرية، لتحاول وتبلغ، في ظل هذا المنهج الفريد، فهذه القمة السامقة التي بلغتها تلك الجماعة إنما بدأت تنهد إليها من السفح الذي التقطها منه، وهذه الخطى المتعثرة في الطريق الشاق زاولتها جماعة بشرية متخلفة في الجاهلية، متخلفة في كل شيء، على النحو الذي عرضنا نماذج منه في سياق هذا الدرس، وكل ذلك يعطي البشرية أملاً كبيراً في إمكان الوصول إلى ذلك المرتقى السامي مهما تكن قابعة في السفح، ولا يعزل هذه الجماعة الصاعدة فيجعلها وليدة معجزة خارقة لا تتكرر، فهي ليست وليدة خارقة عابرة، إنما هي وليدة المنهج الإلهي الذي يتحقق بالجهد البشري في حدود الطاقة البشرية – والطاقة البشرية كما نرى قابلة للكثير!

هذا المنهج يبدأ بكل جماعة من النقطة التي هي فيها ومن الواقع المادي الذي هي فيه. ثم يمضي بها صعداً كما بدأ بتلك الجماعة من الجاهلية العربية الساذجة، من السفح، ثم انتهى بها في فترة وجيزة لم تبلغ ربع قرن من الزمان إلى ذلك الأوج السامق.

شرط واحد لا بد أن يتحقق، أن تسلم الجماعات البشرية قيادها لهذا المنهج، أن تؤمن به، وأن تستسلم له، وأن تتخذه قاعدة حياتها وشعار حركتها وحادي خطاها في الطريق الشاق الطويل »، وهذا كلام رائق جداً رحمه الله.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

حجة الوداع

« خذوا عني منا سككم، فلعلي لا أحج بعد عامي هذا»

رسول الله ﷺ

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

نُسك الوداع

ذكرنا سابقاً أثر فتح مكة في تطوير الظروف، وتعزيز الإسلام، وتعيين الموقف للعرب، واستسلامهم للإسلام، وتأكد ذلك بعد غزوة تبوك، ولذلك نرى الوفود تقصد المدينة تترى في هذين العامين ـ التاسع والعاشر ـ ونرى الناس يدخلون في دين اللهّ أفواجاً، حتى إن الجيش الإسلامي الذي كان قوامه عشرة آلاف مقاتل في غزوة الفتح، إذا هو يزخر في ثلاثين ألف مقاتل في غزوة تبوك قبل أن يمضي على فتح مكة عام كامل، ثم نرى في حجة الوداع بحراً من رجال الإسلام ـ مائة ألف من الناس أو مائة ألف وأربعة وأربعون ألفا منهم ـ يموج حول رسول اللهّ ﷺ بالتلبية والتكبير والتسبيح والتحميد، تدوي له الآفاق، وترتج له الأرجاء.

أعلن النبي ﷺ بقصده لهذه الحجة المبرورة المشهودة، فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتمّ برسول اللهّ ﷺ، وفي يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة تهيأ النبي ﷺ للرحيل، فتَرَجَّل وادَّهَنَ ولبس إزاره ورداءه وقَلَّد بُدْنَه، وانطلق بعد الظهر، حتى بلغ ذا الحُلَيْفَة قبل أن يصلي العصر، فصلاها ركعتين، وبات هناك حتى أصبح. فلما أصبح قال لأصحابه: « أتاني الليلة آت من ربي فقال: صَلِّ في هذا الوادي المبارك وقُل: عمرة في حجة ».

وقبل أن يصلي الظهر اغتسل لإحرامه، ثم طيبته عائشة بيدها بذَرِيرَة وطيب فيه مِسْك، في بدنه ورأسه، حتى كان وبَيِصُ الطيب يري في مفارقه ولحيته، ثم استدامه ولم يغسله، ثم لبس إزاره ورداءه، ثم صلي الظهر ركعتين، ثم أهل بالحج والعمرة في مُصَلاَّه، وقَرَن بينهما، ثم خرج، فركب القَصْوَاءَ، فأَهَلَّ أيضاً، ثم أَهَلَّ لما استقلت به على البَيْدَاء.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

ثم واصل سيره حتى قرب من مكة، فبات بذي طُوَي، ثم دخل مكة بعد أن صلي الفجر واغتسل من صباح يوم الأحد لأربع ليال خلون من ذي الحجة سنة ١٠ هـ ـ وقد قضي في الطريق ثماني ليال، وهي المسافة الوسطي ـ فلما دخل المسجد الحرام طاف بالبيت، وسعي بين الصفا والمروة، ولم يَحِلَّ ؛لأنه كان قارناً قد ساق معه الهدي، فنزل بأعلى مكة عند الحَجُون، وأقام هناك، ولم يعد إلى الطواف غير طواف الحج.

وأمر من لم يكن معه هَدْي من أصحابه أن يجعلوا إحرامهم عمرة، فيطوفوا بالبيت وبين الصفا المروة، ثم يحلوا حلالاً تاماً، فترددوا، فقال: « لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت، ولولا أن معي الهدي لأحللت »، فحل من لم يكن معه هدي، وسمعوا وأطاعوا.

وفي اليوم الثامن من ذي الحجة ـ وهو يوم التَّرْوِيَة ـ توجه إلى مني، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ـ خمس صلوات ـ ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس، فأجاز حتى أتي عرفة، فوجد القبة قد ضربت له بَنَمِرَة، فنزل بها، حتى إذا زالت الشمس أمر بالقَصْوَاء فرحلت له، فأتى بطن الوادي، وقد اجتمع حوله مائة ألف وأربعة وعشرون أو أربعة وأربعون ألفاً من الناس، فقام فيهم خطيباً، وألقى هذه الخطبة الجامعة:

«أيها الناس، اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً.

إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث ـ وكان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هُذَيْل ـ وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع من ربانا ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله.

فاتقوا اللهّ في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة اللهّ، واستحللتم فروجهن بكلمة اللهّ، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مُبَرِّح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب اللهّ.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

أيها الناس، إنه لا نبي بعدي، ولا أمة بعدكم، ألا فاعبدوا ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، طيبة بها أنفسكم، وتحجون بيت ربكم، وأطيعوا أولات أمركم، تدخلوا جنة ربكم.

وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون ؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت.

فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء، وينكتها إلى الناس: «اللهم اشهد، ثلاث مرات».

وبعد أن فرغ النبي ﷺ من إلقاء الخطبة نزل عليه قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ولما نزلت بكى عمر، فقال له النبي ﷺ: « ما يبكيك ؟» قال: أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيء قط إلا نقص، فقال: « صدقت ».

وبعد الخطبة أذن بلال ثم أقام، فصلى رسول اللهّ ﷺ بالناس الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ولم يصل بينهما شيئاً، ثم ركب حتى أتي الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصَّخَرَات، وجعل حَبْل المشاة بين يديه، واستقبل القبلة، فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القُرْص.

وأردف أسامة، ودفع حتى أتى الْمُزْدَلِفَة، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئاً، ثم اضطجع حتى طلع الفجر، فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى الْمَشْعَرَ الحرام، فاستقبل القبلة، فدعاه، وكبره، وهلّله، ووحده، فلم يزل واقفاً حتى أسْفَر جِدّا.

فَدَفَع ـ من المزدلفة إلى منى ـ قبل أن تطلع الشمس، وأردف الفضل بن عباس حتى أتى بَطْنَ مُحَسِّرٍ، فَحَرَّك قليلاً، ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى، حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة ـ وهي الجمرة الكبرى نفسها، كانت عندها شجرة في ذلك الزمان، وتُسَمّى بجمرة العَقَبَة وبالجمرة الأولى ـ فرماها بسبع حصيات، يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الخَذْف، رمي من بطن الوادي، ثم انصرف إلى المنحر، فنحر ثلاثاً وستين بدنة بيده، ثم أعطى علياً فنحر ما غَبَرَ ـ وهي سبع وثلاثون بدنة، تمام المائة ـ وأشركه في هديه، ثم أمر من كل بدنة ببضعة، فجعلت في قِدْر، فطبخت، فأكلا من لحمها، وشربا من مَرَقِها.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

ثم ركب رسول اللهّ ﷺ، فأفاض إلى البيت، فصلّى بمكة الظهر، فأتى على بني المطلب يَسْقُون على زمزم، فقال: « انزعوا بني عبد المطلب، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم »، فناولوه دلواً فشرب منه.

وخطب النبي ﷺ يوم النحر ـ عاشر ذي الحجة ـ أيضاً حين ارتفع الضحى، وهو على بغلة شَهْبَاء، وعلى يعبر عنه، والناس بين قائم وقاعد، وأعاد في خطبته هذه بعض ما كان ألقاه أمس، فقد روى الشيخان عن أبي بكرة قال: خطبنا النبي ﷺ يوم النحر، قال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مُضَر الذي بين جمادي وشعبان ».

وقال: « أي شهر هذا ؟ » قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: « أليس ذا الحجة ؟ » قلنا: بلى ؟ قال: « أي بلد هذا ؟ » قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: « أليست البلدة ؟ » قلنا: بلى. قال: « فأي يوم هذا ؟ » قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: « أليس يوم النحر ؟ » قلنا: بلى. قال: « فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا ».

«وستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض».

«ألا هل بلَّغْت؟» قالوا: نعم، قال: « اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فَرُبَّ مُبَلَّغ أوعى من سامع».

وأقام أيام التشريق بمنى يؤدي المناسك ويعلم الشرائع، ويذكر الله، ويقيم سنن الهدي من ملة إبراهيم، ويمحو آثار الشرك ومعالمها.

وفي يوم النَّفْر الثاني ـ الثالث عشر من ذي الحجة ـ نفر النبي ﷺ من منى، فنزل بخِيف بني كِنَانة من الأبطَح، وأقام هناك بقية يومه ذلك، وليلته، وصلى هناك الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثم رقد رقدة، ثم ركب إلى البيت، فطاف به طواف الوداع، وأمر به الناس.

ولما قضى مناسكه حث الركاب إلى المدينة المطهرة، لا ليأخذ حظاً من الراحة، بل ليستأنف الكفاح والكدح لله وفي سبيل الله .

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وقفة

كانت حجة الوداع موسماً إسلاميا تاريخياً، كانت أشبه بحفل توديع ضخم، أجمل فيه النّبيّ ﷺ شرائع الدين، وهيّأ أصحابه لصدمة موته، وعلّمهم بالقول والعمل هديه في المناسك وقال لهم: «خذوا عني مناسككم»، وبذلك اختُتمت الأركان الخمسة، وكأنّ الدين أصولَه وجُمَلَه قد أُسّس وضرب بجذره في الأرض، ولهذا ناسب أن تنزل عليه ﷺ وهو واقف بعرفة قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾[المائدة: ٣].

وكانت هذه الآية إشارة أخرى إلى دنوّ أجله ﷺ واقتراب صفحة حياته النيّرة من الطّيّ، فكأنّ المهمّة التي وُكل بها قد أُنجزت، فكان يقول وهو بعرفة: «أنتم تسألون عني فما أنتم قائلون ؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: اللهم اشهد اللهم اشهد ثلاث».

وبعد ثلاث وعشرين سنة تقريباً وجد النّبيّ ﷺ متنفسا وراحة، وكأنّي به حين وقف بعرفة ينظر كيف سدّت أعداد المسلمين الأفق حضرت في ذهنه صورة في نفس المكان قبل عقدين من الزمن حين كان يتنقل بين هذه الأرجاء تنكب الحجارة قدميه الشريفتين يدور على أحياء العرب في المشاعر باحثا عمّن يستمع له ويقبل دعوته ويؤويه فقط ليبلغ دعوة سلمية، وإذا به الآن يقف سيّداً على البلاد والعباد وفيهم أعداد كثيرة من الذين ناوؤوه ووقفوا في وجهه وبعضهم أصبح من رجالاته وجنوده.

يالله، كم هو موقف عظيم جليل يزخر بمعاني لا توصف.. مشاعر كانت كفيلة بغيره ﷺ أن تصل به إلى الكبر والبطر والأشر، لكن بأبي هو وأمي ﷺ ما زاده ذلك إلاّ خشوعا وشكرا وتواضعا وخوفا، فلما أقبلت الدنيا إليه ودانت له الجزيرة كلّها بدأ يمدّ يده إلى الله تعالى مناديا بلسان حاله: بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق الأعلى.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

قمة المرحلة

[الوفاة]

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾

[النصر: ٣]

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

الرّفيق الأعلى

طلائع التوديع

لما تكاملت الدعوة وسيطر الإسلام على الموقف، أخذت طلائع التوديع للحياة والأحياء تطلع من مشاعره ﷺ، وتتضح بعباراته وأفعاله.

إنه اعتكف في رمضان من السنة العاشرة عشرين يوماً، بينما كان لا يعتكف إلا عشرة أيام فحسب، وتدارسه جبريل القرآن مرتين، وقال في حجة الوداع: «إني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً»، وقال وهو عند جمرة العقبة: «خذوا عني مناسككم، فلعلي لا أحج بعد عامي هذا»، وأنزلت عليه سورة النصر في أوسط أيام التشريق، فعرف أنه الوداع وأنه نعيت إليه نفسه.

وفي أوائل صفر سنة ١١ هـ خرج النبي ﷺ إلى أحد، فصلي على الشهداء كالمودع للأحياء والأموات، ثم انصرف إلى المنبر فقال: «إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها».

وخرج ليلة ـ في منتصفها ـ إلى البَقِيع، فاستغفر لهم، وقال: «السلام عليكم يا أهل المقابر، لِيَهْنَ لكم ما أصبحتم فيه بما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، والآخرة شر من الأولى»، وبشرهم قائلاً: «إنا بكم للاحقون».

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

بداية المرض

وفي اليوم الثامن أو التاسع والعشرين من شهر صفر سنة١١ هـ ـ وكان يوم الاثنين ـ شهد رسول الله ﷺ جنازة في البقيع، فلما رجع، وهو في الطريق أخذه صداع في رأسه، واتقدت الحرارة، حتى إنهم كانوا يجدون سَوْرَتَها فوق العِصَابة التي تعصب بها رأسه.

وقد صلّى النبي ﷺ بالناس وهو مريض ١١ يوماً، وجميع أيام المرض كانت ٣١، أو ٤١ يوماً.

الأسبوع الأخير

وثقل برسول الله ﷺ المرض، فجعل يسأل أزواجه: « أين أنا غداً ؟ أين أنا غداً ؟ » ففهمن مراده، فأذن له يكون حيث شاء، فانتقل إلى بيت عائشة يمشي بين الفضل بن عباس وعلى بن أبي طالب، عاصباً رأسه، تخط قدماه حتى دخل بيتها، فقضي عندها آخر أسبوع من حياته.

وكانت عائشة تقرأ بالمعوذات والأدعية التي حفظتها من رسول الله ﷺ، فكانت تنفث على نفسه، وتمسحه بيده رجاء البركة.

قبل الوفاة بخمسة أيام

ويوم الأربعاء قبل خمسة أيام من الوفاة، اتقدت حرارة العلة في بدنه، فاشتد به الوجع وغمي، فقال: « هريقوا علي سبع قِرَب من آبار شتّى، حتى أخرج إلى الناس، فأعهد إليهم»، فأقعدوه في مِخْضَبٍ، وصبوا عليه الماء حتى طفق يقول: « حسبكم، حسبكم ».

وعند ذلك أحس بخفة، فدخل المسجد متعطفاً ملحفة على منكبيه، قد عصب رأسه بعصابة دسمة حتى جلس على المنبر، وكان آخر مجلس جلسه، فحمد الله وأثني عليه، ثم قال: « أيها الناس، إِلَيّ »، فثابوا إليه، فقال ـ فيما قال: « لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ـ وفي رواية: « قاتل الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ـ وقال: « لا تتخذوا قبري وثناً يعبد ».

وعرض نفسه للقصاص قائلاً: « من كنت جلدت له ظَهْرًا فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عِرْضاً فهذا عرضي فليستقد منه ».

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

ثم نزل فصلى الظهر، ثم رجع فجلس على المنبر، وعاد لمقالته الأولى في الشحناء وغيرها. فقال رجل: إن لي عندك ثلاثة دراهم، فقال: « أعطه يا فضل»، ثم أوصى بالأنصار قائلاً:

«أوصيكم بالأنصار، فإنهم كِرْشِي وعَيْبَتِي، وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم، فاقبلوا من مُحْسِنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم »، وفي رواية أنه قال: « إن الناس يكثرون، وتَقِلُّ الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام، فمن ولي منكم أمراً يضر فيه أحداً أو ينفعه فليقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم ».

ثم قال: « إن عبداً خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده ». قال أبو سعيد الخدري: فبكى أبو بكر. قال: «فديناك بآبائنا وأمهاتنا»، فعجبنا له، فقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا، وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا. فكان رسول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا.

ثم قال رسول الله ﷺ: « إن مِنْ أمنّ الناس عليَّ في صُحْبتِه وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سد، إلا باب أبي بكر ».

قبل أربعة أيام

ويوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام قال ـ وقد اشتد به الوجع: « هلموا أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده » ـ وفي البيت رجال فيهم عمر ـ فقال عمر: قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبكم كتاب الله، فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم رسول الله ﷺ، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغط والاختلاف قال رسول الله ﷺ: « قوموا عني ».

وأوصى ذلك اليوم بثلاث: أوصى بإخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب، وأوصى بإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم، أما الثالث فنسيه الراوي. ولعله الوصية بالاعتصام بالكتاب والسنة، أو تنفيذ جيش أسامة، أو هي: « الصلاة وما ملكت أيمانكم ».

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

والنبي ﷺ مع ما كان به من شدة المرض كان يصلّي بالناس جميع صلواته حتى ذلك اليوم ـ يوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام ـ وقد صلّى بالناس ذلك اليوم صلاة المغرب، فقرأ فيها بالمرسلات عرفاً.

وعند العشاء زاد ثقل المرض، بحيث لم يستطع الخروج إلى المسجد، قالت عائشة: فقال النبي ﷺ: « أَصَلَّى الناس ؟ » قلنا: لا يا رسول الله، وهم ينتظرونك. قال: « ضعوا لي ماء في المِخْضَب »، ففعلنا، فاغتسل، فذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق، فقال: «أَصَلَّى الناس ؟»ـ ووقع ثانياً وثالثاً ما وقع في المرة الأولى من الاغتسال ثم الإغماء حينما أراد أن ينوء ـ فأرسل إلى أبي بكر أن يصلي بالناس، فصلى أبو بكر تلك الأيام ١٧ صلاة في حياته ﷺ، وهي صلاة العشاء من يوم الخميس، وصلاة الفجر من يوم الإثنين، وخمس عشرة صلاة فيما بينها.

وراجعت عائشة النبي ﷺ ثلاث أو أربع مرات ؛ ليصرف الإمامة عن أبي بكر حتى لا يتشاءم به الناس، فأبي وقال: « إنكن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس ».

قبل الوفاة بثلاثة أيام

قال جابر: سمعت النبي ﷺ قبل موته بثلاث وهو يقول: « ألا لا يموت أحد منكم إلا وهو يحسن الظن بالله ».

قبل الوفاة يوم أو يومين

ويوم السبت أو الأحد وجد النبي ﷺ في نفسه خفة، فخرج بين رجلين لصلاة الظهر، وأبو بكر يصلي بالناس، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه بألا يتأخر، قال: « أجلساني إلى جنبه »، فأجلساه إلى يسار أبي بكر، فكان أبو بكر يقتدي بصلاة رسول الله ﷺ ويسمع الناس التكبير.

وقبل يوم من الوفاة ـ يوم الأحد ـ أعتق النبي ﷺ غلمانه، وتصدق بستة أو سبعة دنانير كانت عنده، ووهب للمسلمين أسلحته، وفي الليل أرسلت عائشة بمصباحها امرأة من النساء وقالت: أقطري لنا في مصباحنا من عُكَّتِك السمن، وكانت درعه ﷺ مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من الشعير.

روى أنس بن مالك: أن المسلمين بينا هم في صلاة الفجر من يوم الاثنين ـ وأبو بكر يصلي بهم ـ لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ كشف ستر حجرة عائشة فنظر إليهم، وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه ؛ ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، فقال أنس: وهَمَّ المسلمون أن يفتتنوا

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

في صلاتهم، فَرَحًا برسول الله ﷺ، فأشار إليهم بيده رسول الله ﷺ أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر.

ثم لم يأت على رسول الله ﷺ وقت صلاة أخرى.

ولما ارتفع الضحى، دعا النبي ﷺ فاطمة فسَارَّها بشيء فبكت، ثم دعاها، فسارها بشيء فضحكت، قالت عائشة: فسألنا عن ذلك ـ أي فيما بعد ـ فقالت: سارني النبي ﷺ أنه يقبض في وجعه الذي توفي فيه، فبكيت، ثم سارني فأخبرني أني أول أهله يتبعه فضحكت.

وبشر النبي ﷺ فاطمة بأنها سيدة نساء العالمين.

ورأت فاطمة ما برسول الله ﷺ من الكرب الشديد الذي يتغشاه.

فقالت: وا كرب أباه، فقال لها: « **ليس على أبيك كرب بعد اليوم** ».

ودعا الحسن والحسين فقبلهما، وأوصى بهما خيراً، ودعا أزواجه فوعظهن وذكرهن.

وطفق الوجع يشتد ويزيد، وقد ظهر أثر السم الذي أكله بخيبر حتى كان يقول: « **يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبْهَرِي من ذلك السم** ».

وقد طرح خَمِيصَة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك ـ وكان هذا آخر ما تكلم وأوصي به الناس: « **لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ـ يحذر ما صنعوا ـ لا يبقين دينان بأرض العرب** ».

وأوصى الناس فقال: « **الصلاة، الصلاة، وما ملكت أيمانكم** »، كرر ذلك مراراً.

الاحتضار

وبدأ الاحتضار فأسندته عائشة إليها، وكانت تقول: «إنّ مِن نِعَم الله عليَّ أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي وفي يومي وبين سَحْرِي ونَحْرِي، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته. دخل عبد الرحمن ـ بن أبي بكر ـ وبيده السواك، وأنا مسندة رسول الله ﷺ، فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك، فقلت: آخذه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم. فتناولته

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

فاشتد عليه، وقلت: أليّنه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم. فليته، فأمره ـ وفي رواية أنه استن به كأحسن ما كان مستنا ـ وبين يديه رَكْوَة فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح به وجهه، يقول: « لا إله إلا الله، إن للموت سكرات... » الحديث.

وما عدا أن فرغ من السواك حتى رفع يده أو أصبعه، وشخص بصره نحو السقف، وتحركت شفتاه، فأصغت إليه عائشة وهو يقول: « مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى. اللهم، الرفيق الأعلى ».

كرّر الكلمة الأخيرة ثلاثاً، ومالت يده ولحق بالرفيق الأعلى، إنا لله وإنا إليه راجعون.

وقع هذا الحادث حين اشتدت الضحى من يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ وقد تم له ﷺ ثلاث وستّون سنة وزادت أربعة أيام.

تفاقم الأحزان على الصحابة

وتسرب النبأ الفادح، وأظلمت على أهل المدينة أرجاؤها وآفاقها، قال أنس: ما رأيت يوماً قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه رسول الله ﷺ، وما رأيت يوما كان أقبح ولا أظلم من يوم مات فيه رسول الله ﷺ.

ولما مات قالت فاطمة: يا أبتاه، أجاب ربا دعاه، يا أبتاه، مَنْ جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه، إلى جبريل ننعاه.

موقف عمر

ووقف عمر بن الخطاب يقول: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفي، وإن رسول الله ﷺ ما مات، لكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل: قد مات، ووالله، ليرجعن رسول الله ﷺ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات.

موقف أبي بكر

وأقبل أبو بكر على فرس من مسكنه بالسُّنْح حتى نزل، فدخل المسجد، فلم يكلم الناس، حتى دخل على عائشة فتيمم رسول الله ﷺ، وهو مغشى بثوب حِبَرَة، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه، فقبله وبكي، ثم قال: **بأبي أنت وأمي، لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد مِتَّهَا.**

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

ثم خرج أبو بكر، وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فتشهد أبو بكر، فأقبل الناس إليه، وتركوا عمر، فقال أبو بكر:

أما بعد، من كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت، قال الله: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[آل عمران: ١٤٤].

قال ابن عباس: والله لكأنّ الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها.

قال ابن المسيب: قال عمر: والله، ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعرفت أنه الحق، فعقرت حتى ما تُقِلّني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي ﷺ قد مات.

التجهيز وتوديع الجسد الشريف إلى الأرض

ووقع الخلاف في أمر الخلافة قبل أن يقوموا بتجهيزه ﷺ، فجرت مناقشات ومجادلات وحوار وردود بين المهاجرين والأنصار في سَقِيفة بني ساعدة، وأخيرًا اتفقوا على خلافة أبي بكر رضي الله عنه، ومضي في ذلك بقية يوم الاثنين حتى دخل الليل، وشغل الناس عن جهاز رسول الله ﷺ حتى كان آخر الليل ـ ليلة الثلاثاء ـ مع الصبح، وبقي جسده المبارك على فراشه مغشي بثوب حِبَرَة، قد أغلق دونه الباب أهله.

ويوم الثلاثاء غسلوا رسول الله ﷺ من غير أن يجردوه من ثيابه، وكان القائمون بالغسل: العباس وعليّا، والفضل وقُثَم ابني العباس، وشُقْرَان مولي رسول الله ﷺ، وأسامة بن زيد، وأوس بن خَوْلي، فكان العباس والفضل وقثم يقلبونه، وأسامة وشقران يصبان الماء، وعلى يغسله، وأوس أسنده إلى صدره.

وقد غسل ثلاث غسلات بماء وسِدْر، وغسل من بئر يقال لها: الغَرْس لسعد بن خَيْثَمَة بقُبَاء وكان يشرب منها.

ثم كفنوه في ثلاثة أثواب يمانية بيض سَحُولِيَّة من كُرْسُف، ليس فيها قميص ولا عمامة، أدرجوه فيها إدراجًا.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

واختلفوا في موضع دفنه، فقال أبو بكر: إني سمعت رسول اللهّ ﷺ يقول: « ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض »، فرفع أبو طلحة فراشه الذي توفي عليه، فحفر تحته، وجعل القبر لحداً.

ودخل الناس الحجرة أرسالاً، عشرة فعشرة، يصلون على رسول اللهّ ﷺ أفذاذاً، لا يؤمهم أحد، وصلى عليه أولاً أهل عشيرته، ثم المهاجرون، ثم الأنصار، ثم الصبيان، ثم النساء، أو النساء ثم الصبيان.

ومضى في ذلك يوم الثلاثاء كاملاً، ومعظم ليلة الأربعاء، قالت عائشة: ما علمنا بدفن رسول اللهّ ﷺ حتى سمعنا صوت المَسَاحِي من جوف الليل ـ وفي رواية: من آخر الليل ـ ليلة الأربعاء.

قال ابن رجب: «لما توفي اضطرب المسلمون، فمنهم من دهش فخولط، ومنهم من أقعد فلم يطق القيام، ومنهم من اعتقل لسانه فلم يطق الكلام، ومنهم من أنكر موته بالكلية».

وكان أنس رضي الله عنه يقول: «قلّ ليلة تأتي عليّ إلا وأنا أرى فيها خليلي عليه السلام» ويقول ذلك وتدمع عيناه.

وعن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر دخل على النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته فوضع فمه بين عينيه، ووضع يديه على صدغيه، وقال:«وانبيّاه، واخليلاه، واصفيّاه».

ولما دفن قالت فاطمة عليها السلام: «يا أنس، أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم التراب؟!»

قال أبو ذؤيب الهذلي: قدمت المدينة ولأهلها ضجيج بالبكاء كضجيج الحجيج أهلوا جميعاً بالإحرام، فقلتُ: مه؟! فقالوا: قبض رسول الله ﷺ ».

وقال عثمان: توفي رسول الله ﷺ فحزن عليه رجال من أصحابه حتى كان بعضهم يوسوس، فكنت ممن حزن عليه، فبينما أنا جالس في أطم من آطام المدينة – وقد بويع أبو بكر – إذ مَرّ بي عمر فسلم علي، فلم أشعر به لما بي من الحزن».

لكن حزن الصحابة وعظيم المصاب لم يخرجهم عن الصبر والتصبر إلى النواح والجزع، قال قيس بن عاصم: («لا تنوحوا علي، فإن رسول الله ﷺ لم يُنَح عليه».

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

وقفة لابدّ منها

هل يمكن أن يقرأ شخص هذه الصُّوَر ولا يغرس نفسه في داخلها فيستشعر كلّ إحساس سرى في نفوس الصحابة ؟

على المستوى الشخصي أرى أنّ هذا السياق الّذي أتيت به من كتاب المباركفوري أعطاني انطباعاً لطبيعة المشاعر الّتي اكتنفت أنفس الصحابة منذ أوّل كلماته الّتي بدأ يمهّد لهم بها خبر وفاته.

وكانت هذه الكلمات تنزل عليهم كما الصواعق، وأنا على يقين أنّها كانت تترك في نفوسهم أثراً لكنّهم كانوا يعرضون عنها ولا يسألون عمّا ترمي إليه كالّذي لا يحبّ أن يسمع ما يسوؤه.

لكنّ الأحداث الّتي جرت في آخر حياته بدأت تتقارب وتتجمّع كقطع الصورة المتناثرة لتكوّن شيئا فشيئا مشهد الفاجعة بكلّ تفاصيله المرعبة وكلّ تجلياته المغرقة في الحزن والكآبة.

هذه المشاعر لا يمكن أن يتحسّسها إلاّ أولئك الّذين عايشوا هذا السيّد العظيم من أوّل وهلة، ودرجوا معه في مدارج الحياة، حلوها ومرّها، يسرها وعسرها، وهم في كلّ ذلك ينهلون من عطاياه المتدفقة رحمة وعطفا ومحبة وشفقة حتّى أصبح وجوده بالنسبة لهم أشدّ أهمّيّة من وجود الهواء الذي يتنفسونه والماء الذي يشربونه.

إنّها الصّحبة، والصحبة هنا أكبر من كونها معاشرة، بل هي مشاركة في كلّ شيء، لا أقول شاركوه، بل أقول: شاركهم هو كلّ أحوالهم، فرح بفرحهم، وحزن بحزنهم، وغضب لغضبهم، ورضي لرضاهم، جاعوا فجاع، وعطشوا فعطش، ضُربوا فضُرب، حوصروا فحوصر، كيدوا فكيد، كان هو نصفهم الّذي يكتملون به، وشقّهم الّذي يعتمدون عليه، كان لهم أبا وأمّا وأخاً وسيدا وصاحبا.

وإن العجب العجاب هو هذه التربية التي بها غالبوا كل عواطفهم ومشاعرهم وحيدوها فترة من الوقت حتى يستطيعوا سدّ هذه الثغرة السياسية أو الفراغ السياسي كما يُقال الآن، فالدولة بلا قائد، وبقاؤها هكذا من أخطر شيء يمكن فلابدّ من سدّ هذا الفراغ قبل كلّ شيء، فيالله لهذا الجيل الفريد حقا.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

انتهى ما عندي.. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه[1] .

(١) أعدت النظر فيها وصوبت بعض الأخطاء ظهيرة الجمعة الثاني والعشرين من شوال عام أربعة وأربعين ووأربعمئة وألف من هجرة الحبيب ﷺ.

اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المحتويات

فهرس أبرز المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
المرحلة الأولى: ما قبل المولد الشريف	
الكون يستعد	١٠
النسب الشريف	١٦
قصي بن كلاب وحيازة الشرف	٢٠
عبدالمطلب	٢٧
والديه ﷺ	٣١
عام الفيل وتعظيم البيت	٣٥
المرحلة الثانية: من المولد الشريف إلى البعثة	
التهيئة الخاصة	٤٠
يُتم مبكر – رعي الغنم	٤٣
في مضارب بني سعد	٤٨
شق الصدر	٥٢
النبي الأمّيّ	٥٥
أخلاقه ومروءته قبل البعثة	٥٨
زواجه من خديجة	٦١
إرهاصات الاصطفاء	٦٥
التعبد في غار حراء	٦٨
المرحلة الثالثة: من البعثة إلى الهجرة	
القول الثقيل	٧٤
طلائع المؤمنين	٧٦
التمحيص	٨٢
حصار الشعب	٨٩
الأمن أولاً	٩٤
عام الحزن	٩٨
الهجرة إلى الحبشة	١٠٢
الوطن البديل	١٠٧
أحاديث الهجرة	١٢٠
المرحلة الرابعة: من الهجرة إلى الوفاة	
خير يوم مرّ على يثرب	١٢٨
لا وقت للرّاحة	١٣٢
التحالفات	١٣٧
الغزو	١٤٥
بدر الكبرى	١٤٨
غزوة أحد	٢١٠
بعث الرجيع	١٨٥
مأساة بئر معونة	١٨٩
غزوة الأحزاب	١٩٢
غزوة بني قريظة	٢٠١
الحديبية	٢٠٩
غزوة خيبر	٢١٦
فتح مكة	٢٢٤
غزوة حنين	٢٤٥
غزوة الطائف	٢٥٤
غزوة تبوك	٢٥٧
حجة الوداع	٢٦٦
قمة المرحلة (الوفاة)	٢٧٢